

دكتور محمد عمار

جمال الدين الأفغانى المفتى رحمه الله عليه



دار الشروق

جمال الدين الأفغانى
المفتى رحمه الله عليه

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

القاهرة: دار الشروق - طبع في مصر - هاتف: ٧٧٤٨٨٨ - ٧٧٤٨٨٩ - برقية: الشروق - الفاكس: ٥٥٥٥٥٥
DAR AL SHORUK LTD. - مصر - هاتف: ٧٧٤٨٨٨ - ٧٧٤٨٨٩ - برقية: الشروق - الفاكس: ٥٥٥٥٥٥
DAR AL SHORUK INTERNATIONAL, 315/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK. TEL: 6372743/A. TELEX: DSHORUK257790

اختصاص الدكتور لويس ، فلقد نشأ بيننا ما أسميه « التعايش السلمي » ،
المرتكز إلى « حسن الحوار » .. نلتقى قليلا ، ولكن في ود واحترام .. أقرأ له
ما يعرض علينا من نقد وتقويم للأدب الأوربية ، قراءة متذوق غير
متخصص .. وأبدى إعجابي في كثير من الأحيان .. ويقرأ الرجل بعض
أعماله ، ويثنى عليها ثناء أشكره عليه ..

لكن « الظاهرة » التي أفلقتني - وربما أفلقت غيري - هي خروج الدكتور
لويس عن إطار تخصصه واختصاصه ، لا إلى دائرة فنية أو فكرية أوسع -
فهذا حقه المشروع شريطة أن يتأهل له - وإنما إلى دائرة فكرية ليست بينه
وبينا أية علاقة على الإطلاق ! .. ثم إصداره العديد من الأحكام الخطيرة
والخطرة في قضايا فكرية لها حساسيات شديدة ، بحكم صلتها العضوية
بالمعتقدات المقدسة لجمهور الأمة .. ومحى نشاطه الجديد هذا وأحكامه
تلك في إطار الجهود التي تنظمها وتوجهها دوائر استشرافية غربية - أوربية
وأفريقية - تصديا لتيارات فكرية محلية ، بعضها قومي وأغلبها إسلامي ..
ثم - - وهذا هو المصدر الأساسي للقلق من هذه « الظاهرة » - أن تصدى
الدكتور لويس لهذه القضايا قد جاء دون « مؤهلات » ، ليس بالمعنى
الأكاديمي ، ولا لأنه مسيحي يقتحم ميدان الكتابة في التأريخ لحركات
الإصلاح الإسلامية ، وإنما بالمعنى « الفني » الذي يتطلب من أي إنسان
أن يتأهل ولو بالحد الأدنى من أسلحة الميدان الذي يريد أن يجارِب فيه ! ..
لقد أفلقتني هذه « الظاهرة » ، لأحكامها الخطيرة ، واستنتاجاتها
الغريبة ، ولما مثلته وتمثله من استفزاز للضمير القومي والإسلامي .. وفوق
ذلك نجيتها في إطار مخطط لا تحسب أن معالمة ومرايمه قد غابت عن فطنة
الدكتور لويس ؟ ! ..

● ففيما بين حرب السويس سنة ١٩٥٦ م وعدوان سنة ١٩٦٧ م استقطب المشروع القومي العربي ، الذي قاده جمال عبد الناصر ، جمهور الأمة العربية . وبرزت لهذه الأمة ذاتيتها الخاصة تجاه الغرب الاستعماري وحضارته الغازية . وأخذ عقل الأمة يبحث عن ذاتها وقسماتها التي تميزها عن أعدائها وغزاتها التاريخيين . فإذا الإسلام السياسي والحضاري يبرز كالمصدر الأعظم والصيغة الأفعلى فى تكوين الملامح القومية لهذه الأمة . الأمر الذى دفع إلى المقدمة ظاهرة « الإحياء الإسلامى » و « الصحوة الإسلامية » الحالية .. حتى لنستطيع أن نقول : إن التيار الإسلامى المعاصر ، قد انطلق ، مواصلا ومطورا ، المشروع القومى العربى الناصرى ، رغم ما حدث بين القوميين والإسلاميين من صراع سلمى أو عنيف ؟ ! ..

وفى خلال تلك الحقبة - حقبة بزوغ شمس المشروع الحضارى الخاص للأمة العربية - تعلقت آمال شعوب الشرق الإسلامية ، بل وغير الإسلامية ، بالأمة العربية ، آملة أن تقود نضالها فى سبيل الاستقلال السياسى والاقتصادى والحضارى ، كما صنعت ذلك ، من قبل ، بالفتوحات التى أعقبت ظهور الإسلام ! ..

وهكذا تلاحمت الدائرة العربية بالدائرة الإسلامية ، وبرز للعقل الواعى : إفضاء « المشروع القومى العربى » إلى « الدائرة الإسلامية » . وارتباط « الدائرة الإسلامية » بالمشروع « القومى العربى » . والعلاقة الوثيقة بين « العروبة » و « الإسلام » ! ..

● ولقد كان طبيعيا أن يتصدى الغرب الاستعماري . وحضارته العدوانية

الاستعمارية للمشروع الحضارى « العربى - الإسلامى » . الذى يريد أن
يفسد مقولة الغرب الاستفزازية التى تزعم أن حضارته هى الحضارة
« الإنسانية » . وأن على كل الأمم أن تتخلى عن موارثها الحضارية
وخصائصها القومية . وتتحول إلى كيانات حضارية تابعة للغرب . وإلى
« هوامش » للحضارة الغربية ... لقد نهضت دوائر الفكر الاستعماري في
الغرب . لتشن حملتها الضارية ضد بواذر مشروعنا الحضارى الخاص .
مدافعة عن ما يمكن أن نسميه « الاستعمار الاستيطاني الحضارى » . كما
تدافع جيوش الغرب وشركائه عن « الاستعمار الاستيطاني » المتمثل في
الكيانات العنصرية . والقواعد العسكرية . والنهب الاقتصادي لثروات
البلاد التابعة للمركز الغربى ! ..

وفي خضم هذا الصراع الحضارى .. بدأت وبرزت « الظاهرة المقلقة »
للدكتور لويس عوض ! .. فى تلك الحقبة - على وجه التحديد - بدأ
الرجل يتخطى نطاق اختصاصه ويختصه - النقد الأدبى - ويتقدم إلى قرائه
« مفكرا » يوجه سهامه إلى لب المشروع الحضارى الخاص للأمة .. إلى
« العروبة » و « الإسلام » ؟ ! ..

● فبينما الأمة تسعى إلى بلورة ملامح مشروعها الحضارى « المتميز » -
ولا نقول المعادى ولا المنفلق - عن الحضارة الغربية - وخاصة في جوانبها
الاستعمارية وروحها المادية - بينما الأمة تسعى على هذا الدرب - برزت أهمية
تجديد الصلات بين « الحاضر » وبين « التراث » - وضرورة تأسيس المشروع
الحضارى الجديد على « الثوابت » و « القيم » و « القسائم الحضارية » التى
هى بمثابة « البصمة » المميزة لأمتنا عبر تاريخها الطويل - والتى لا تزال
صالحة للعطاء الذى يمثل طاقة خلاقة في التقدم والنهوض ...

وهنا .. تقدم الدكتور لويس . في صورة « مؤرخ الفكر » ليقول في كتابه [تاريخ الفكر المصرى الحديث] : إنه لا علاقة بين مصر الحديثة وبين التراث العربى الإسلامى . فكل ما فى مصر الحديثة من إيجابيات ، وجميع ما عرفته من مظاهر الحرية والديمقراطية . إن فى « الفكر » أو فى « التنظيم » . إنما هو أثر من آثار الحملة الفرنسية عليها سنة ١٧٩٨ م .. حتى يمكن تلخيص كتابه هذا فى كلمات تقول : « إن مصر الحديثة هى هبة بونابرت » ؟ ! ..

وبالطبع . فليس المقام الآن خاصا بتنفيذ دعوى الدكتور لويس . التى ترمى إلى عزل حاضر الأمة عن تراثها « العربى - الإسلامى » .. فقط نريد أن نسأله - وهو الذى قرأ « الجبرى » - : ألم تقرأ ذلك الحوار الذى دار بين عمر مكرم [١١٦٨ - ١٢٣٧ هـ ١٧٥٥ - ١٨٢٢ م] وبين الضابط الأرنؤدى « عمر بك » . أثناء حصار الشعب المصرى . بزعامة عمر مكرم . للوالى العثمانى خورشيد باشا . فى القلعة . فى سنة ١٩٠٥ م ؟ ..

لقد دار هذا الحوار . الذى بدأه الضابط الأرنؤدى . على النحو

التالى :

عمر بك : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم . وقد قال الله تعالى : [أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم] ^(١) .

السيد عمر مكرم : أولو الأمر : العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . وهذا - [خورشيد باشا] - رجل ظالم . وجرت العادة ، من قديم الزمان ، أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شئ من زمان ، حتى الخليفة والسلطان ، إذا سار فيها بالخور ، فإنهم يعزلونه ويخلعونه !

(١) النساء : ٥٩ .

عمر بك : وكيف نحصرونا . وتمنعون عنا الماء والأكل ،
وتقتلوننا ؟ ! .. نحن كفرة ، حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ ! ..

السيد عمر مكرم : نعم ! .. لقد أفنى العلماء والقاضى بجواز قتالكم
ومحاربتكم ، لأنكم عصاة ^(٢) ! ..

نسال الدكتور لويس عن دلالة هذا الحوار ، الذى هو جزء من فكرة
أولى الثورات الدستورية فى حياة مصر الحديثة .. أكانت حملة بونابرت هى
مصدره ؟ .. أم أن تراث الأمة وشريعته الإسلامية كانت الخلفية الفكرية
التي تعلم منها عمر مكرم حق الأمة - « أهل البلد » - فى عزل الولاة ، بل
والخليفة والسلطان ، لأن الأمة هى مصدر السلطات ، والظالمون الجاثرون
من هؤلاء هم « عصاة » للأمة ، عليها أن تقاثلهم ، لأنهم كفروا بشريعة
العدل والإنصاف ! ..

هل كانت مصر الحديثة هنا منبئة الصلة بتراثها الإسلامى ؟ .. تبدأ من
حيث انتهت الثورة الفرنسية ، ورسولها نابليون ؟ ! ..

● وفى ذات كتاب الدكتور لويس - [تاريخ الفكر المصرى الحديث] -
يريد أن يعلم قراءه أن « استقلال مصر » ليس هو « استقلالها عن الغرب
الاستعمارى » ، بل هو « استقلالها عن ماضيها وتراثها » ، وفك الارتباط بينها
وبين المحيط الإسلامى الأوسع « حتى ولو كان فى ذلك » تبعيتها للغرب
الاستعمارى » ، فى السياسة والحضارة والاقتصاد ! ! ..

فعنده أن أول مشروع لاستقلال مصر هو ذلك الذى وضعه « المعلم

(٢) الجيرى [عجائب الآثار] ج ٦ ص ٢٢٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

يعقوب « [١٧٤٥ - ١٨٠١ م] .. والمعلم يعقوب هذا أفاق ، خرج على إجماع الأمة ، إبان الحملة الفرنسية على مصر ، وخان الشعب ، أقباطا ومسلمين ، وكون فرقة من أراذل الأقباط . الذين نبذتهم حتى طائفهم . وأصبحوا سوط القمع الفرنسي والنهب البونابرتي لمصر الثائرة على الاحتلال .. حتى لقد منح الفرنسيون ليعقوب هذا لقب « جنرال » . وعينوه « قائمقام سارى عسكر الفرنسيين » ! .. وهو الذى يسميه « الجبرتى » . فى كتابه [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين] - « يعقوب اللعين » ! -

« يعقوب اللعين » هذا ، هو - عند الدكتور لويس - صاحب المشروع الاستقلالى الأول لمصر .. فإذا بحثنا عن ملامح هذا المشروع - كما أوردها الدكتور لويس ، من خلال « هذيان » يعقوب اللعين ، أثناء احتضاره على ظهر السفينة الانجليزية - « الفرقاطة بالاس » - التى أفلته مع الخونة الذين جلوا عن مصر فى ركاب جنود الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ م .. وهو « الهذيان » الذى ترجمه رجل « مصاب - [باعتراف الدكتور لويس] - بنوع من الهوس » يدعى « لاسكاريس » .. ودونه قبطان السفينة « جوزيف آدموندز » ... إذا بحثنا عن ملامح « مشروع الاستقلال الأول » هذا ، من خلال هذا « الهذيان » - الذى وصفه الدكتور لويس بـ « الوثائق » ؟ ! - فس نجد هذا « الاستقلال » :

١ - استقلال مصر عن الدائرة الإسلامية .. التى كانت تتمثل ، يومئذ ، فى الدولة العثمانية ..

٢ - وخضوع مصر « المستقلة » هذه « لتأثير إنجلترا ، التى تملك ناصية البحار

المحيطة بمصر .. إذ « من المستحيل على إنجلترا أن تمتلك مصر امتلاكها
لمستعمرة » ..

٣ - حماية استقلال مصر عن الدائرة الإسلامية . وتأمين إخضاعها « لتأثير
إنجلترا » « بوجود قوة أجنبية مرتزقة في مصر قوامها بين ١٢ ألفا و ١٥
ألف جندي .. » تتحمل مصر نفقاتها ! .. فصر في حاجة إلى « قوة
قاهرة تحكم حياة قوم وادعين جهلاء » ؟ ! ..

ثم يعضى « يعقوب اللعين » . في مشروعه . معناه في إغراء إنجلترا
بالسيطرة على مصر . فيقول : « إن الامبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى
من كل جانب . ولذا فن المهم للإنجليز أن يلتصقوا بالوسائل المضمونة
للاستفادة من عهد تمزقها التاريخي بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية
المستقبلية .. إن بريطانيا العظمى ليست بحاجة إلى امتلاك مصر كمستعمرة .
لأنها مستتأثر دائما بالتجارة معها . نتيجة طبيعية لتفوقها البحرى . فهي
ستؤثر إذن في مصر باختيارها » ؟ ! ..

إنه « استقلال » عن الدائرة الإسلامية .. وخضوع « اختيارى » -
[ومع ذلك فهو بقوة أجنبية . مرتزقة - قاهرة] - للغرب الاستعمارى .
التمثل . يومئذ - في بريطانيا العظمى ؟ ! ..

ذلك هو مشروع « الاستقلال الأول » لمصر . الذى وضعه « المعلم
يعقوب » . والذى لأجله وضع الدكتور لويس « معلمه » يعقوب هذا فى
مصاف الأبطال . أبطال الاستقلال الوطنى . فكتب يقول (٣) : « إن

(٣) د . لويس عوض [تاريخ الفكر المصرى الحديث] ج ١ ص ١٨٣ . ١٨٤ . ١٨٦ .

١٩٤ . ١٩٧ . ٢٠٩ . طبعة دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

الحكم التاريخي الموضوعى يقول : إن الجنرال يعقوب . ومحمد على . وكل قائد أو زعيم شارك بجهد فى الكفاح من أجل استقلال البلاد - من على بك الكبير إلى جمال عبد الناصر - كانوا مجرد أدوات فى يد هذا الشعب العظيم . وتعبيراً عن إرادته لتحقيق استقلال مصر . ولتثبيت هذا الاستقلال « ١١٩ » ..

هنا يريد الدكتور لويس خلط الأمور والأوراق على القراء .. فعلى بك الكبير ومحمد على كانوا قادة - كل فى وقته وملايساته - لمشروع استقلال المنطقة بأسرها - وليس « استقلال » مصر . الذى يعنى عزلتها عن المحيط الأوسع من إقليمها - والعدو الرئيسى كان الغرب الاستعمارى .. وما التناقض بينهم وبين السلطان العثمانى إلا لما رأوه من ضعفه الذى أفضى ويفضى إلى ازدياد خطر الاستعمار الغربى .. فصراعهم مع العثمانيين يأتى فى إطار محاولات إصلاح وتجديد الرباط الذى ينظم أقاليم العروبة والإسلام فى الشكل الذى يحقق فاعليتها تجاه التحدى الاستعمارى .. إنه « صراع » فى إطار « الوحدة » - لمواجهة الخطر الرئيسى . وهو الغرب الاستعمارى ..

كذلك لم يكن عبد الناصر داعية للاستقلال الذى يعزل مصر عن محيطها العربى وعالمها الإسلامى .. لمشروعه القومى غنى عن تفصيل الحديث ! .. فكيف . إذن . يتسنى للدكتور لويس عوض أن يصنف الدعوة لعزل مصر عن محيطها الإسلامى . وإخضاعها لالانجلترا . بين مشاريع « الاستقلال » .. بل ويقول عنه : إنه « مشروع الاستقلال الأول » « ١٢ » . وكيف يتسنى للرجل أن يضع الخائن « يعقوب اللعين » فى زمرة القادة والزعماء الذين كانوا « أداة هذا الشعب العظيم . المعبرين عن إرادته » . من مثل على بك الكبير . ومحمد على . وجمال عبد الناصر « ١١٩ » ..

كيف يتنى للدكتور لويس « تبيض » الصفحة « السوداء » للمعلم يعقوب ؟ ! .. اللهم إلا إذا كان يريد أن يوهم قراءه أنه . مع دعوته لعزل مصر عن محيطها العربى - من الناحية القومية . وماتطرحه من خيارات وحدوية - . ومع دعوته لفك الارتباط بين مستقبل مصر وبين تراثها الإسلامى . وشعوب أمتها الإسلامية . واستبدال الحضارة الغربية بالتمدن الإسلامى .. أى عزل مصر عن محيطها وعن تراثها . مع إخضاعها للغرب - خضوعا حضاريا اختياريا - . يريد الدكتور لويس أن يوهم قراءه أنه - كمعلمه يعقوب - رغم هذه الدعوة - بل وبسببها - واحد من دعاة « استقلال » ؟ ! .. وليس كما يقول خصومه واحدا من رموز « التبعية الحضارية » . كما كان المعلم يعقوب رائدا « للتبعية السياسية والاقتصادية » للغرب . المتمثل فى إنجلترا فى ذلك التاريخ ؟ ! ! .. إنها محاولة « لتأصيل » دعوة الدكتور لويس . فيها الكثير من الإسقاط على الذات ! ..

● وفى إطار السعى لعزل الأمة عن تراثها الحضارى . تأتى الجهود التى بذلتها وتبذلها حركة الاستشراق - وخاصة قطاعاتها التى تشكك فى « إبداع » العرب الحضارى - .. لأن الهدف هنا هو تجريد « الفريسة » من « المجد التاريخى » . كى تستسلم « للتغريب » . إذ يصبح التغريب . بالنسبة للحاضر والمستقبل . هو « الخيار الوحيد » . طالما أن تراثنا لا يشير علينا بخيار بديل ! ..

وعلى هذا الدرب كانت دراسة الدكتور لويس عوض [على هامش الغفران] .. تلك التى كتبها سنة ١٩٦٤ م . لتكون حلقة فى سلسلة التشكيك بأصالة التراث العربى . من خلال التشكيك بأصالة فكر أبى العلاء المعرى [٣٦٣ - ٤٤٩ هـ ٩٧٣ - ١٠٥٧ م] وفلسفته .. وذلك عن

طريق إيهام القراء أن المعري - وهو الصفحة البارزة في تراثنا الأدبي والفكري - لم يكن إلا صدى لرهبان بيزنطة ، وتلميذا لأديرتهم . وطبعة لتراث الغرب الحضارى ، الذى أبدعه اليونان ؟ ! ..

فهى ، إذن ، جهد موظف « لتزع سلاح الأمة » ، إبان سعيها - فى ستينات هذا القرن - خلف قيادة عبد الناصر ، لبلورة مشروعها الحضارى الخاص والمستقل عن التبعية الحضارية للغرب الاستعمارى ؟ ! ..

● ولقد كان الدكتور لويس عوض فى مطلع حياته الفكرية أكثر « جرأة » وأقل « دبلوماسية » مما هو عليه الآن ! ..

فى الغرب تعلم ، مع الأدب الانجليزى ، الكراهية والعداء للغة العربية ، تلك التى تربط مصر بمحيطها العربى وتراثها الإسلامى ، والتى تمثل رابطة قومية أضفى عليها القرآن طابع القداسة والخلود ... فقرر الدكتور لويس أن يسير على الدرب الذى ارتاده ، فى القرن التاسع عشر ، المستشرق الإنجليزى الاستعمارى السير « ولیم ويلكوكس » ، ذلك الذى تزعم الدعوة للتخلى عن العربية .. وكتب : « إن دراسة العربية الفصحى مضیعة للوقت ، وموتها محقق كما ماتت اللاتينية » ! ..

لكن الدكتور لويس تعلم ، أيضا ، أن استبدال الحرف اللاتينى بالحرف العربى - على النحو الذى دعا إليه عبد العزيز فهمى باشا [١٢٨٧ - ١٣٧٠ هـ ١٨٧٠ - ١٩٤٨ م] لم يكن أكثر من صيحة تبدد صداها فى المحيط العربى والانتماء الإسلامى لمصر .. بل ربما كانت هذه الصيحة عاملا من العوامل التى استفزت الحس العربى واستفرت الضمير الإسلامى ، فى مصر ، كى يعى هول ما يدبره له الأعداء ؟ ! ... فلم يدع الدكتور لويس

إلى كتابة العربية بالحرف اللاتيني . وإنما دعا إلى تحطيمها كلية . ولكن عن طريق مألوف للناس أكثر من اللاتينية . عن طريق استخدام « العامية » بدلا من « الفصحى » . ولما كان لكل إقليم عربي « عاميته » . فإن « العامية » ستصبح الطريق لعزل مصر عن محيطها العربي . وعزلها كذلك عن تراثها وانتمائها الإسلامي ! .. فكتب الدكتور لويس في مقدمة كتابه [بلوتولاند] - الذى ضمنه ما أسماه شعرا نظمه بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٠ م - كتب يقول : « إنه قد عاهد الثلوج الغزيرة . فى خلوة مشهودة - بين أشجار الدردار . عند الشلال - بكامبريدج . ألا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية » (العامية) ؟ ! ..

ورغم أن الدكتور لويس قد عجز عن الوفاء بعهده هذا . ولم يستطع النهوض بتبعات « المهمة » التى عاد بها من الغرب . فاضطر - فى المحيط العربي الإسلامى . الذى حكم عليه القدر بالنشأة والحياة فيه - إلى الكتابة بالعربية الفصحى . إلا أنه لم يتخل عن عدائه للعربية . فكتب فى كتابه [مذكرات طالب بعثة] سنة ١٩٤٢ م . يصف العربية بأنها « أغلال » يجب تحطيمها ؟ ! .. كتب يقول : « إنه مامن بلد حتى إلا وشبت فيه ثورة أدبية هدفها تحطيم لغة السادة المقدسة . وإقرار لغة الشعب العامية . أو الدارجة . أو المنحطة . أما فى مصر . فقد ثار كثيرون على اللغة المقدسة . بعضهم داخل النطاق النظرى كلطفي السيد . وبعضهم بصورة عملية . كبيرم التونسي . شاعر مصر الأول ؟ ! .. ولكن ثورتهم لم تكن بالثورة الفعالة . لأن العبيد لم ينضجوا بعد لتحطيم أغلالهم . ورغم ذلك فتحن نحنهم . ولسوف ينبجون العالقة فى مستقبل الأيام ؟ ! ..

فلما جاءت الستينات . حقبة المد القومى العربى . الذى فتح الطريق

أمام الخيار الإسلامى . أدرك الدكتور لويس - ومن يتفق معهم فى التوجه الفكرى - أن جدبة المخاطر على « الخيار التغريبى » . تحتاج إلى « الثورة الفعالة » التى يقوم بها « العمالقة » . لتحطيم اللغة العربية .. فإذا بالرجل . رغم قلة بضاعته فى العربية وعلومها . يكتب فى حقبة الستينات كتابه [مقدمة فى فقه اللغة العربية] . الذى لم ير النور إلا فى سنة ١٩٨٠ م ! ..

وكما أراد بدراسته [على هامش الغفران] أن يتزع من الأمة « سلاح الثقة بالثراث » فلقد أراد بكتابه [مقدمة فى فقه اللغة العربية] أن يتزع من الأمة « سلاح الثقة فى اللغة التى كتب بها هذا التراث » ! .. فتراثها غير أصيل .. وكذلك لغتها .. فقيم . إذن . الحديث عن المشروع الحضارى الخاص . إذا كان مالدیکم . إن فى الشكل أو المضمون . هو أثر من آثار الغرب ؟ ! .. ولماذا . إذن . مقاومة « الخيار التغريبى » . وهو - كما ترون - « الخيار الوحيد » . فليس لديکم . فى الحقيقة . بديل ؟ ! ..

● فلما انتقل عبد الناصر - قائد المشروع القومى العربى . ورمزه - إلى رحاب ربه سنة ١٩٧٠ م . ظن أعداء هذا المشروع أن الفرصة قد سحبت - خصوصا فى ظلال آثار هزيمة سنة ١٩٦٧ م - للاجهاز على « بقايا » هذا المشروع ... وهنا . كان للدكتور لويس عوض دور يؤديه ؟ ! ..

فالرجل قد أسهم فى إهالة التراب على « الناصرية » بكتابه [أفتعة الناصرية] . الذى استهل به نشاطه الموصول . على هذا الدرب . فى حقبة السبعينات ...

فلما كانت زيارة الرئيس السادات للقدس سنة ١٩٧٧ م . وخرجت من ججورها تلك الاصوات التى دعت إلى عزلة مصر عن محيطها العربى وعالمها

الإسلامي ، وإلى استبدال « التطبيع » مع الكيان الصهيوني -
 « المتحضر » . لأنه غري ؟ ! - استبدال « التطبيع » معه بالرباط الذي يشد
 مصر إلى العروبة والإسلام . لأنه - كما كتب أحدهم يومئذ - : « عدو عاقل
 خير من صديق جاهل » ؟ ! .. لما كان ذلك « المتعطف » . الذي دفع
 المنطقة بأسرها إلى « منحدر » . نشهد اليوم مخاطره وآثاره .. تقدم الدكتور
 لويس عوض لينفض بنصيبه في الإجهاز على « بقايا » المشروع القومي
 العربي .. فكان إسهامه في الهجوم على « عروبة مصر » . بمقالته في
 [الأهرام] - ٤/٧ ، ٤/٢٠ ، ٥/١١ سنة ١٩٧٨ م وفي [السياسة
 الدولية] - أكتوبر سنة ١٩٧٨ م - تلك المقالات التي رعى فيها العروبة
 والقومية العربية بكل نقیصة .. من مثل أنها « عرقية » و « عصرية »
 و « فاشية » ولا تعدو أن تكون « أسطورة من الأساطير » ؟ ! ..

● لكن بال الدكتور لويس عوض لم يهأ بما لاح يومئذ من هزيمة
 للمشروع القومي العربي .. ذلك أن مظاهر هذه الهزيمة . والاستفزاز الذي
 جسده دعوات الدكتور لويس ومن يتفق معهم في التوجه . قد استنفرت
 الحس الإسلامي إلى درجة « الغضب » ! .. فانتشرت مظاهر « الصحوة
 الإسلامية » - رغم شوائب تشوب بعض فصائلها - وغدت الدعوة إلى
 الإحياء الإسلامي . وتأسيس المشروع الحضاري الخاص على أسس
 « التمدن الإسلامي » . غدت هذه الدعوة أبرز ظواهر العصر وأخطرها .
 فهي - موضوعيا - وعند الذين يعون حقيقتها - تختصن كل إيجابيات المشروع
 القومي العربي . ثم تعد نطاقه إلى كل بلاد الإسلام وشعوبه . فتشمل الشرق
 المستضعف بأسره . وتسعى جاهدة للتمايز الحضاري عن حضارة الغرب
 المادية العدوانية ..

لم يهنا بال أعداء هذه الأمة . بما حسبه تراجعاً « للخطر الناصري » .
لأن عدوهم الأول . والأساسي - وهو « الخطر الإسلامي » - قد استقطب
الشارع الإسلامي .. ثم بدت نذره الأولى في ثورة إيران سنة ١٩٧٩ م :
وبينما كانت دوائر الاستشراق ومراكز البحث . التي « تشير » على صانع
القرار في بلاد الحضارة الغربية . تسعى . محمومة . لجمع المعلومات عن المد
الإسلامي . وفصائله . وعن موقفه من الغرب ومصالحه . وعن الآفاق
المستقبلية التي يمد إليها البصر والبصيرة ... انطلقت من هذه الدوائر حملة
منظمة . ومدروسة . ومتواصلة الجهود . ومتعددة الصور . لتشويه هذا
المد الإسلامي . من الخارج ومن الداخل . بواسطة السهام التي توجه إليه .
وعن طريق الشراك التي تصيد بعض رموزه !! ..

لقد عقدت لهذه « المهمة التاريخية » ندوات ومؤتمرات وحلقات
بحث .. وكتبت الكثير من التقارير . ونشرت كتب عديدة .. ولا زال العمل
قائماً على قدم وساق في هذا المضمار ... ولقد كان للدكتور لويس عوض
نصيبه الذي أعد له في هذا النشاط ! .. فقصه « الإحياء الإسلامي » .
و « الجامعة الإسلامية » . و « المشروع الحضاري الخاص » . المؤسس على
التحدين الإسلامي .. هذه القصة . التي تقض أحداثها الراهنة مضاجع
الغرب الاستعماري هذه الأيام . قد بدأها منذ قرابة القرن والنصف رجل
اسمه جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] ..
فليكن نصيب الدكتور لويس عوض في الحرب ضد هذه « الظاهرة » تشويه
سيرة الرجل الذي بدأ هذه المسيرة . التي تهدد حلم الغرب بالسيادة الأبدية -
عن طريق الفكر - على وطن العروبة وعالم الإسلام ؟ ! ..

أما كيف تم ذلك ؟ .. فلقد جمعت جامعة « لوس أنجليس » الأمريكية

للدكتور لويس عوض أوراقا - سماها « وثائق » - أغلبها « تقارير » جواسيس ومخبرين رسميين كانوا يعملون لحساب الاستعماريين الانجليزى والفرنسى ! .. وبعضها « ملفات » أنشأتها أجهزة المباحث فى إنجلترا وفرنسا . لتجمع فيها المعلومات عن عدو الاستعمار جمال الدين الأفغانى ! .. وبعضها كتب - استندت إلى هذه « التقارير » و « الملفات » - كتبها صهيانية . ومستشرقون من أشباه الصهيانة . ممن تجمعهم مشاعر ومصالح العداء للمد الإسلامى و « الحيار الإسلامى » . ثم نشروها مابين لندن وباريس وتل أبيب ... لقد ملمت جامعة « لوس انجليس » هذه « التقارير » و « الملفات » المباحثية - وكذلك الكتب التى استندت إليها . لكتاب من أمثال : « جاكوب - [يعقوب] - لاندو » . و « إيلي كدورى » . و « هوما باكدامان » . و « نيكى كيدى » . و « البرت قدسى زاده » . الخ . ثم دعت هذه الجامعة الدكتور لويس عوض . ووضعت بين يديه هذه الأوراق .. فلما فتح الرجل هذه « الملفات » خيل إليه أنه « فاتح » حقا ؟ ! فكتب لنا عن جمال الدين الأفغانى « دراسة » بلغت صفحاتها - على الآلة الكاتبة - مائتين وثلاثين صفحة . فرغ منها - كما أخبرنا فى ختامها - « بلوس انجليس » فى « ٦ يناير سنة ١٩٧٥ م » ؟ .. !

وعندما تعذر نشر هذه « الدراسة » بمصر - نشرها الدكتور لويس فى لندن ؟ ! .. وجعل عنوانها : « الايراني الغامض فى مصر » ؟ ! .. - نشرتها مجلة [التضامن] فى سبعة عشر عددا .

لقد قال الدكتور لويس عوض فى « دراسته » هذه . إنه - ومعه الجواسيس وكتاب الاستشراق . الصهيانة وأشباه الصهيانة . الذين استند إلى أوراقهم - إنما يفتحون « ملف » جمال الدين الأفغانى . من جديد ! ..

ولم يدر الرجل أن « فتحة » و « فتوحات » الذين عمل معهم ولهم . لم يكن
إلا « فتحا » لملفات « المباحث » و « دوائر الأمن والاستخبارات » في أجهزة
الحكومات الاستعمارية !! ..

أما كيف كان ذلك ؟ .. ولماذا كان ؟ .. فهو موضوع الحديث بعد هذا
« التمهيد » ؟ ! .. نعم إنه مجرد « تمهيد » عن [قصة المخطط .. وأبعاده ..
ومراميه] ! ..

الدوافع ... والمنطلقات

لكن ... لماذا اختار الدكتور لويس عوض معسكر المناوئين للعروبة القومية والسياسية . ولالإحياء الإسلامى . وصيغ المشروع الحضارى المأمول بالصيغة الإسلامية . وتأسيسه على قواعد التمدن الإسلامى ؟...

إن البعض يقطع بأن مرجع ذلك هو « تعصبه للمسيحية » ضد « الاسلام » !... لكنى لست مع هذا البعض فى هذا التفسير ؟!

إنه تفسير سهل ميسور . وقد تكون عليه بعض الشواهد والقرائن . بل والحيثيات . ثم إنه نهائى وقاطع . يريح الذين يختارونه من عناء الحوار مع الأفكار التى يطرحها الدكتور لويس ... وليس هذا فى رأى هو المطلوب !...

إن المطلوب ليس هو « إدانة » من تختلف معهم فى الرأى . ولا تصنيفهم بوضعهم فى « الخانات » الجاهزة التقليدية ... وإنما المطلوب هو إقامة أوسع دائرة من الحوار مع الأفكار التى يطرحونها . حتى ولو كان إقناعهم أمرا بعيد الحدود . أو مستحيلة . كما يرى البعض فى « حالة » الدكتور لويس !... فالحوار مطلوب . أساسا . من أجل القراء الذين يقتنع فريق منهم بما يطرح الدكتور لويس من آراء !...

ثم إن الدكتور لويس ليس أول من شجر حرباً ظالمة ضد جمال الدين الأفغاني .. فلقد تعرض الأفغاني لسهام الخصوم منذ بدأ الدعوة إلى إيقاظ الشرق وتحديد « دنياه » بواسطة تجديد « الدين » .. ولقد ضم موكب الخصوم هذا أغلبية من المسلمين وقليلاً من غير المسلمين !؟ .. بل لقد يدهش البعض إذا علم أن التيار « السلفي - النصوصي » - وجميع أسرى الشعوذة والخرافة - وخصوم « العقلانية » - في صفوف الإسلاميين - يناصبون جمال الدين ودعوته عداً لا يقل عن عداً الدكتور لويس . رغم اختلاف المنطلقات . وتباين الغايات ! ... وفي حدود علمي فإن هناك رسالة جامعية أُجيزت في الستينات من هذا القرن تدّين الأفغاني بالعمالة للاستعمار .. ليس « الاستعمار العثماني » . كما هو اتهام الدكتور لويس للأفغاني .. وإنما الاستعمار الغربي . الذي يتهم صاحب الرسالة الأفغاني بالعمالة له . لأنه - في رأيه - هو الذي قوض دعائم الدولة العثمانية بدعوته إلى التجديد !؟ ..

ثم إن كل « العلمانيين » - ومنهم مسلمون يؤدون شعائر الإسلام بإخلاص وفي خشوع - يقفون من دعوة الأفغاني إلى تأسيس التقدم الحديث على أسس إسلامية موقف الرفض أو العدا .. وكذلك يفعل « الأقلينيون » . الذين يريدون لمصر أن تنفج همومها واهتماماتها عند حدودها الجغرافية الوطنية . كإقليم ! ..

فليس الدكتور لويس عوض بدعا في عداوته لما دعا إليه الأفغاني من آراء .. ومن ثم فالحوار ضروري ومطلوب حتى ولو كان إقناع الدكتور لويس هو ضرب من ضروب المستحيل ! ..

وحتى نتبين ونحدد القضايا التي يجب أن يدور حولها الحوار . لا بد من الوعي بحقيقة الدوافع والمنطلقات التي حركت الآخرين إلى تبني الآراء

والأفكار التي نرفضها . وتتناوؤها بالتوضيح والنقد والتفنيد ... ومن هنا تأتي أهمية استكشاف دوافع الدكتور لويس للهجوم على استقلالية الأمة العربية بمشروع حضارى متميز عن الحضارة الغربية . وعدائه لصبغ هذا المشروع الحضارى المستقل بصبغة الإسلام ..

وكما سبقت الإشارة . فأنا لست مع الذين يجعلون تدين الدكتور لويس بالمسيحية السبب الأول في خياره الفكرى هذا . فالرجل - كما يعرف القريبون منه . والمتابعون لأحاديثه وكتايباته - ليس - من الناحية الروحية - الابن البار للمسيحية ولا للكنيسة القبطية .. بل إن آراءه في المسيح والمسيحية تجعله موضع غضب المسيحيين المتدينين ! .. وفى صحيفة (الأخبار) - بتاريخ ١٩٨٣/٩/٢١ م - كتب كاتب فاضل من الأصدقاء المسيحيين - بل ومن يتعاطفون مع كثير من آراء الدكتور لويس - كتب عن رأى الدكتور لويس في المسيح . عليه السلام . فإذا هو رأى أدخل في نطاق الهرطقة والسباب . وأبعد ما يكون عن التدين بالمسيحية كما يعرفها المسيحيون المتدينون ! ..

ثم .. من من المسيحيين يطعن قلبه لما كتبه الدكتور لويس . في « دراسته » عن جمال الدين الأفغانى . عن المسيحية . وقوله : « إن الشيوعية هي أقرب التخريجات إلى روح المسيحية » (١) ؟ !

بل كيف يكون « التدين » بالمسيحية هو دافع الدكتور لويس ومنطلقه . ونحن نراه يفضل « الاسلام » على « المسيحية » . فيقول - عند حديثه عن أن « أديان التوحيد الثلاثة . اليهودية والمسيحية والاسلام . تنتمى . في كل

(١) ص ١٨٣ من أصل « الدراسة » [ولقد رجعنا إلى أصل الدراسة .. كما رجعنا إلى حلقاتها المنشورة في مجلة [التضامن] ..

تحليل نهائي . إلى ينبوع ميتافيزيقي واحد ينبثق من مبدأ ازدواج الفكر والمادة وأسبقية الفكر على المادة في الزمان والمكان . وكلية الفكر وجزئية المادة في سائر الصفات والأسماء والأفعال . . . يقول الدكتور لويس . مفضلاً « الاسلام » على « المسيحية » : « . . . ولا شك أن روح الاسلام أقرب إلى الهيومانزم - [الانسانية] - والعقلانية من روح المسيحية ذات الازدواج التام والأسرار الكثيرة . لأن الله في الاسلام لا يحجور تماماً على مكان الانسان . ولأن الروح في الاسلام لا تنسحق المادة سحقاً ذريعاً . ولأن الآخرة في الاسلام - رغم أنها خير من الأولى - لا تلغيها تماماً من الوجود . كما هو الحال في المسيحية . . . »^(٢) ! . . .

والأمر الذي لا شك فيه هو أن هذا النص الهام يرضى المتدينين بالاسلام بالقدر الذي يغضب المتدينين بالمسيحية ١٩ . الأمر الذي يؤكد أن الدكتور لويس . من الناحية الروحية . ليس الابن البار للمسيحية وكنيسها ؟ . . . كذلك . ليس التعصب « للقبضية » المسيحية . بالمعنى الروحي هو دافع الدكتور لويس إلى العداء لأسلمة المشروع الحضاري للأمة . . . فالقبضية . عند الرجل . « عنصر » أكثر منها « دين » . . . وهي عنده تساوى « المصرية » إذا جردت من العروبة القومية والسياسية - بل والثقافية إذا أمكن ذلك ١٩ - . وإذا هي جردت كذلك من الاسلام السياسي والحضاري . . . إن الدكتور لويس ليس ضد أن تتدين أغلبية الشعب في مصر بديانة الإسلام . ولكنه ضد صبغ الحضارة في مصر بصبغة الاسلام . ومن هنا فإن عداؤه ليس موجهاً إلى « الدين التقليدي » . القابع في المساجد والزوايا والنكايا . ولكنه موجه ضد « التجديد الديني » . الذي يجعل

(٢) ص ١٨٣ من أصل « الدراسة » .

الاسلام ديناً وحضارة . عقيدة وقانونا . ومن هنا كانت سهامه موجهة إلى رائد التجديد الديني في عصرنا الحديث . جمال الدين الأفغاني . وليست موجهة إلى رموز الجمود في الدولة العثمانية . بل لقد اتفق الرجل مع مشيخة الاسلام العثمانية - وهي القمة في الجمود والتخلف - وتبنى دعاواها واتهاماتها لجمال الدين الأفغاني ؟ ! ..

وإلى الذين يتطلعون إلى مزيد من « الوقائع » الشاهدة على صدق هذه الحقيقة أقول :

● لقد تحدث إليّ الدكتور لويس . منذ سنوات . بمكتبه بـ [الأهرام] - في معرض التقويم لما قدمته للمكتبة العربية والاسلامية من أعمال فكرية في إطار : « تجديد دنيا المسلمين بتجديد فكرهم الديني » .. تحدث إليّ حديثاً فيه الكثير من الثناء والتقدير .. لكن عبارات من حديثه أثارت فيّ من الانتباه ما لم تثر عبارات الثناء والتقدير .. لقد قال لي : « إن جهودك عظيمة .. لكنها خطيرة . وضارة » !! ..

قلما أبدت تعجبي ودهشتي . وطلبت المزيد من الإيضاح . قال الرجل : « إن تجديد الدين يحية . ويطيل عمره .. أما تركه في صورته التقليدية التي هو عليها عند المؤسسات المحافظة . فهو الذي سيجعل بموته وهذا هو المطلوب .. » ؟ ! ..

فعداء الرجل هو « للتجديد الديني » - [وليت أهل الجمود يفقهون ويعون !] - ومن هنا كان تعاطفه - في « دراسته » عن الأفغاني - مع رموز الرجعية العثمانية ضد جمال الدين . رائد التجديد ! ..

● وإذا كان « الأضرار » قد غلبت على بعض من قياداته « الفكرية المحافظة » .. وإذا كانت « السلطة العلمانية » قد استأنست بعضاً من قياداته . بالترغيب أو التهيب . فنهض بمهمة الحفاظ على الشريعة والعربية

وعلمومها . دون أن بقود الحركة التجديدية التي تمتد بالاسلام إلى صيغ الدولة والمحدث بالصيغة الاسلامية ... إذا كان الأزهر في مجمله « محافظا » . فإنه - لذلك - ليس موضع سخط الدكتور لويس ... أما موضع سخطه فهو « دار العلوم » ... تلك التي علق عليها محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] آمالا في لحظات يأسه من تجديد الأزهر . فهي - بما استهدف منشؤها من ورائها - الجامعة بين « الأصالة الاسلامية » وبين « المعاصرة » . والمؤسسة « للمعاصرة » على قواعد الاسلام . أو هكذا كان الهدف من وراء إنشائها . وفي ذهن كوكبة من الأعلام الذين خرجوا منها يقودون حركة تجديد دنيا المسلمين بتجديد دينهم !

وعن « دار العلوم » هذه بعد الدكتور لويس دراسة يوجه فيها إليها السهام .. كما صنع مع جبال الدين الأفغاني !

● ورغم ما كتبه الدكتور لويس عن الإمام محمد عبده من إشارات تحمل له التقدير ... من مثل قوله في إحدى دراساته بـ [الأهرام] منذ سنوات : « إنه أعظم من تكونت من حوله مدرسة في الفكر المصري الحديث » - [لاحظ كلمة المصري .. وليس العربي . ولا الاسلامي ! ؟] - رغم هذا التقدير المعلن من الدكتور لويس ل محمد عبده - وهو من أبرز رموز التجديد الديني الحديث . إلا أن عداء الدكتور لويس لتجديد محمد عبده هو أمر كامن ومكنون ! .. ففي لحظة من اللحظات التي تفك فيها « عقد الألسنة » . دفعت « النشوة » الدكتور لويس ليصف محمد عبده بأنه « راسيوتين » ! .. سمعت ذلك منه . وسمعه معي إخوة وأصدقاء - كان منهم الأستاذ سيد بسين - في فلورنسيا . بإيطاليا . وكنا نشارك في ندوة فكرية في السنوات الأولى من عقد السبعينات ! .. وفي ذات

الجلسة وصف الدكتور لويس الأفغانى بأنه « جاسوس » ... وتساءل : ما الذى جاء به إلى « بلادنا » ؟ ! ..

فعداء الرجل ليس للإسلام . كدين .. وسهامه ليست موجهة إلى الدوائر أو المؤسسات الإسلامية المحافظة .. لأن وجود الاسلام الشعائرى والمؤسسات الاسلامية التى تدع ما لقيصر لقيصر ومالله لله ، لا يقض مضاجع الدكتور لويس ... أما تيار التجديد الدينى . الذى يحى فعاليات الاسلام . والذى يمتد بصافته إلى شؤون الدنيا وقضايا العمران والحضارة ... فهو العدو اللدود للدكتور لويس ! ..

ذلك أن الدكتور لويس عوض . وإن لم يكن الابن البار . روحياً . للمسيحية وكنيستها القبطية .. إلا أنه الابن البار للحضارة الغربية وعلمانياتها .. والاسلام السياسى والحضارى هوالتقيض الذى يسعى بالتجديد . ليكون البديل - فى بلاد الاسلام - للحضارة الغربية التى جاءت إلى هذه البلاد فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .. والرجل الذى بدأ التصدى لحركة التغريب . ودافع عن الهوية الحضارية المتميزة للأمة . ودعا إلى تأسيس التمدن الحديث على أسس إسلامية . وقاد تيار البقطة الاسلامية فى مواجهة الغزوة الاستعمارية وفكرتها .. هذا الرجل هو جمال الدين الأفغانى .. ومن هنا كانت سهام التغريب موجهة إليه وإلى ما بشر به من آراء وأفكار ..

فالتناقض ليس بين « لويس - المسيحى » وبين « الاسلام - التقليدى » ... وإنما هو بين « لويس - الاقليمى - العلمانى » وبين « المشروع الحضارى الخاص » لهذه الأمة . ذلك المشروع الذى ينهض فيه الاسلام السياسى والحضارى بدور محور .. والذى تمتد آفاقه - عبر العروبة - إلى كل عالم الاسلام ... والدكتور لويس لم يكتب « دراسته » الظالمة لجمال الدين

الأفغانى ليواجه بها ويخرج الثورة الإيرانية - كما حسب بعض الفضلاء الذين انتقدوا «دراسته» - لأن هذه «الدراسة» قد كتبت لمواجهة «الصحوة الإسلامية» . بتشويه رائدها وأبرز رموزها في عصرنا الحديث .. وهى قد كتبت قبل قيام الثورة الإيرانية بخمس سنوات .. أما توقيت النشر لها . وتوظيفه في الاساءة إلى الثورة الإيرانية . فذلك أمر آخر !



عندما زحف الاستعمار الغربى على وطن العروبة وعالم الإسلام . فى القرن التاسع عشر . كانت غزوته الحديثة هذه أكثر من جيوش تخلل الأرض . وشركات نهب الثروة . ذلك أن «فكرية التغريب» قد جاءت إلى بلادنا فى ركاب هذه الغزوة الاستعمارية ..

وكان المتخلف المملوكى - العثمانى . الذى ساد بلادنا لعدة قرون . قد حجب فعالية الإسلام الحضارى ونألق الحضارة الإسلامية عن الأنظار . فكان الطافى على السطح من موارثنا مثقلا بالشعوذة والخرافة والجمود .. وهذا هو الذى أفقد هذا «الموروث المتخلف» جدارة المقارنة والمقارعة والمنافسة لفكرية «التغريب» . التى مثلت زهوة الانتصار للحضارة الأوروبية الحديثة . فكان ذلك هو المناخ والسبب فى انحياز «الصفوة والنخبة» إلى فكرية «التغريب» . واختيارها «الحيار الغربى الحضارى» سبيلا لنهضة الأمة . بل وسلاحا تنصدى به للاستعمار الغربى ..

أما مؤسسات التعليم التقليدية فلقد جمد جمهورها عند هذا «الموروث المتخلف» . وزاد من جمودهم الاحساس بالخطاير التى يمثلها «الوافد الغربى» على ذاتية الأمة وهويتها الحضارية ..

هكذا حدث الاستقطاب بين الذين سلكوا للتقدم سبيل الغرب . وبين الذين جمدوا عند فكرية موروث عصر المماليك والعثمانيين ..

ولقد تمثلت عبقرية جمال الدين الأفغانى . أول ما تمثلت في رفضه لكلا الخيارين اللذين استقطبا مثقفى الأمة وجمهورها . وفي ارتياده واختياره الطريق الثالث والموقف الثالث . المثل لوسطية الاسلام . والساعى لبلورة البديل الحضارى الاسلامى . القادر على منافسة فكرية « التغريب » . والمتجاوز - في ذات الوقت - للتخلف الموروث .

لقد كان الجمود عقبة في طريق « التغريب » . وكانت تلك إيجابيته العظمى ١٤ . لكن عجز الجمود وأهله عن تقديم البديل الحضارى . الذى يستجيب لروح العصر . وينهض بمواجهة تحدياته . كان بمثابة الثغرة التى تفتح السبيل . بل والسبل . في جدار الأمة . لينفذ منها « التغريب » . في بقاء . ولكن باستمرار ١٥ . فلما جاء تيار التجديد الدينى . الذى تبلور من حول جمال الدين الأفغانى . شعرت الدوائر الاستشراقية و « المتغربون » بخطره الأكبر . لأنه يتزع عن « التغريب » الجدوى والمشروعية . ويقدم البديل الاسلامى الضامن لتقدم الأمة دون أن تنفصل عن موارثها الحضارية . ودون أن تفقد ذاتيتها وهويتها . جاء الأفغانى - وتياره - ليرفض الجمود . والعلمانية . وأن نكون أوروبيين في الحضارة . وأن نقف في فهمنا للقومية عند الفهم العلماني الغربى لها . ودعا إلى « الجامعة الاسلامية » . وإلى تأسيس النهضة الحديثة على قواعد « التمدن الإسلامى » . وإلى تجديد الدين كسبيل لتجديد الدنيا .

وكان هذا المشروع هو التحدى الحقيقى لفكرية « التغريب » . التى رامت عزل أمتنا عن تراثها الحضارى . لتبدأ من حيث انتهى الأوروبيون . كما رامت . بالعلمانية . نزع الصبغة الإسلامية عن مؤسسات الدولة وشؤون الإنسان في حياته الدنيا .

وهذا هو جذر الخلاف وسبب العداء بين دعوة جمال الدين الأفغانى

وبين دعاة الاقليمية والعزلة والتشردم . وأنصار العلمانية الذين يريدون
لبادنا أن تصبح . في الحضارة . قطعة من أوروبا - أو . إن شئت الدقة .
هامشا حضاريا لأوروبا ... والدكتور لويس عوض واحد من هؤلاء !^{١٢}
إنه - باختصار شديد - وبدقة - الخلاف الجذري بين الدعوة إلى
« الاستقلال الحضارى » . والدعوة إلى « التبعية الحضارية »^{١٣} .

ونحن إذا شئنا الأدلة على أن هذا هو جوهر الخلاف . وجدنا الكثير منها
في كلام الدكتور لويس .. وفي فكر جمال الدين ..

● ففي رأى الدكتور لويس أن « نقطة الضعف » عند الأفغانى متمثلة في
رفضه « فكر » الحضارة الأوربية و« قيمها » . على حين يقبل « علمها »
وتطبيقات هذا العلم « التكنولوجيا » .. على حين يدعو الدكتور لويس إلى
تبني الحضارة الأوربية ككل .. إنه رافض للاختيار وللتمييز بين ما يلائم أمنا
وما لا يلائمها . لأن الشرق . عنده . ليس مقولة حضارية متميزة . وإنما
هو فراغ حضارى يجب أن يمتلئ بحضارة الأوربيين .. يقول : « إن نقطة
الضعف في دعوة الأفغانى قيامها على تفتيت وحدة الحضارة . والفصل بين
العلم والفكر . وبين التكنولوجيا والقيم . واعتبار الشرق مقولة حضارية
مكتفية بذاتها »^(٣) .. وفي مكان آخر يقول : إن الأفغانى قد ناصر « العلم
والعقل » . وبين في كل مكان أن الدين الإسلامى لا يتعارض مع العلم . بل
على العكس من ذلك يحض عليه حضاً .. ولكن الأفغانى يفتت الحضارة
الحديثة إلى شطرين . هما : وجهها المادى . أى العلم والتكنولوجيا .
ووجهها الروحى . أى الفكر والقيم . وهما عنده غير مترابطين . وبالتالي
فالفكر والقيم من عندنا . والعلم والتكنولوجيا من عندهم »^(٤) ..

(٣) مجلة [التضامن] العدد ١٦ ص ٦٧

(٤) أصل « الدراسة » ص ١٨٢ .

ونحن نقول : إذا كانت هذه « تهمة » فإن الأفغانى يشرف بها .. وهى ليست « نقطة الضعف » فى دعوتها . بل هى « الجوهر العبرى » فى هذه الدعوة الإسلامية ! .. فقط نسأل :

١ - هل هناك . حقاً . وحدة فى الحضارة على نطاق العالم ؟ .. ومن الذى ينكر التمايز الحضارى لدى أمم عريقة كالأندلس والصين واليابان .. ومثل ذلك الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ؟ .. إن « التمايز » الحضارى هو نوع من « المغايرة » . وهو يختلف عن « العداء » وعن « الانغلاق » الحضارى .. فالتمايز الحضارى . على النطاق العالمى . وفى عصرنا الراهن حقيقة موضوعية . لا ينكرها إلا غلاة المتعصبين للحضارة الأوروبية . من أهلها . الذين أرادوا لها أن تمارس مع الحضارات الأخرى . فى عصر المد الاستعمارى الأوروبى . ما مارسه المستوطنون والمهاجرون الأوربيون مع الهنود الحمر ؟ .. المسخ والتشويه والاقتلاع والنسخ والإجلاء ! .. وما الزاعمون . فى صفوفنا . أن الحضارة الأوروبية هى حضارة العصر الوحيدة . والحضارة العالمية المفردة إلا « أتباع » لهؤلاء الغلاة ! ..

٢ - وأليست دعوة الأفغانى إلى الاستفادة من « علوم » الغرب و« تطبيقاتها » . مع الحفاظ على ما تتميز به حضارتنا وشخصيتنا القومية من « فكر » و« قيم » .. أليست هذه الدعوة هى « القانون » الذى حكم « التفاعل » والتلاقح « بين الحضارات الكبرى عبر التاريخ الحضارى للإنسان ؟ ! ..

ماذا صنعت اليابان إبان نهضتها ؟ .. لقد أخذت « علوم » الغرب و« تطبيقاتها » واحتفظت « بفكرها » و« قيمها » .. ولا زالت تصنع ذلك حتى الآن ! ..

وماذا صنع العرب والمسلمون عندما انفتحوا على حضارات اليونان والفرس والهنود ؟ .. لقد ميزوا بين ما يمكن « تمثله » . دون أن يطمس « الثوابت » الحضارية التي تتميز بها الأمة . وبين ما تختص به تلك الأمم من « قيم » و « مثل » غير مقبولة في المناخ العرقي الاسلامي .. لقد أخذوا « العلوم » و « تطبيقاتها » . ورفضوا « الميتولوجيا » و « القيم » و « العقائد » .. وحتى الفلسفة التي ترجموها . نراهم قد قرأوها قراءة اسلامية . وأضافوا إليها نقداً وخلقاً وإبداعاً . جعلها « فلسفة إسلامية » إلى حد كبير .. على حين ظل « علم الكلام » هو الفلسفة الحقة لحضارة الإسلام ! ..

بل ماذا صنعت أوروبا . وهي تسعى للنهضة . حين تعاملت مع حضارتنا العربية الإسلامية ؟ .. لقد أخذت من حضارتنا « العلوم » و « تطبيقاتها » . وأخذت « المنهج التجريبي » .. ثم رفضت « الفكر » و « القيم » . فلم تجد « للتوحيد » ولا « للوسطية » ولا « للروح المؤمنة » أثراً في حضارتها الحديثة . التي ظلت ذات طابع مادي كما كانت منذ جاهلية اليونان ! ..

إن الأوربيين عندما تعاملوا مع ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ - ١١٢٦ م - ١١٩٨ م] أخذوا منه بضاعتهم - أرسطو - فقط .. أما ابن رشد « المتكلم » . و « الفقيه » . وصاحب « التوحيد الاسلامي » . و « القيم الاسلامية » . فهو الذي صدرت ضده قرارات التجريم والتحريم .. لقد أخذوا منه « عقلانية أرسطو اليونانية » . التي لا تقم وزناً للوحي والنقل والمأثورات . على حين رفضوا « عقلانيته الاسلامية » التي آتت ما بين « الحكمة » و « الشريعة » . ووفقت ما بين « العقل » و « النقل » . حتى تدبنت بها فلسفتنا وتفلسف بها الدين في حضارتنا العربية الاسلامية ! ..

فالتمييز بين ما يؤخذ وما يترك .. بين ما هو ملائم وما هو غير ملائم .. بين ما « تمثله » الشخصية الحضارية فتقوى به وتندعم ذاتيتها وبين ما هو

خطر على هذه الذاتية . لأنه قوة طامسة لمالمها مشوهة لا يحاياتها ... إن هذا التمييز هو « القانون » الذى حكم « تفاعل » الحضارات العظمى و « تلاقحها » عبر التاريخ ... والأفغانى عندما دعا إلى إعمال هذا « القانون » إنما كان يتخذ الموقف الواعى والناصح بين موقفين كلاهما خاطئ ... موقف أهل الجمود . الذين عكفوا على « التخلف الموروث » . رافضين التفاعل مع الحضارة الغربية بإطلاق ... وموقف دعاة « التغريب » . الذين أسلموا عقلمهم كله للحضارة الأوربية . وكأناهم « لقطاع » . بلا ميراث حضارى . ولا سمات حضارية تستوجب أن يكون التفاعل والأخذ والعطاء من موقف الراشد وموقع الاستقلال !

٣ - وأخيرا .. فهل قال الأفغانى - كما زعم الدكتور لويس - أن « الشرق مقولة حضارية مكثفية بذاتها » ؟ ...

إن الرجل لم يقل بذلك .. وعبارات الدكتور لويس تشهد على ما نقول ... فالذين يقولون إن حضارتنا « مكثفية بذاتها » هم أهل الجمود . الذين يرفضون التفاعل والاستفادة من الحضارات الأخرى بإطلاق ... والدكتور لويس يقول عن الأفغانى إنه دعا إلى أخذ « علوم » الغرب و « تطبيقاتها » .. فكيف إذن يكون من القائلين إن « حضارة الشرق مكثفية بذاتها » ؟ ...

لقد أجاد الدكتور لويس تلخيص موقف الأفغانى فى هذه القضية عندما قال : « إن الحل عند الأفغانى هو الحل الوسط : أن يرتبط الإنسان بتراته القومى وبثقافته القومية . وأن يفتح فى الوقت نفسه . لما هو نافع فى تراث الغير وثقافته » .^(٥)

(٥) [التضامن] العدد ١٦ ص ٦٩

لكن هذا الموقف الوسط لا يعجب الدكتور لويس . فهو لا يدري كيف نميز . في تراثنا القومي وثقافتنا القومية . النافع من الضار ؟ ومن الذي يحدد لنا . في موارث الآخرين . ما نأخذ ؟ وما ندع ؟!

ونحن نقول له : إن الأمم الساعية إلى النهضة . بعد ضعف وركود . تحتفظ من موارثها « بالثوابت » . التي هي بمثابة « البصمة » المميزة لها . حضاريا . بين الأمم ذات الحضارات ... وتحتفظ بالمناهج والقيم والعقائد التي جربت في تاريخها الحضاري . فكانت عوامل نهضة وقوة وازدهار . ثم .. هل هناك صعوبة حقا في التمييز . وفي الاختيار . مثلا . بين : « العقلانية الإسلامية » و « الشعوذة والخرافة » أو « الجمود عند ظواهر النصوص » ؟! أو أن نميز ونختار بين « الوسطية » و « التطرف » . بينما كان أو يسار ؟! أو أن نميز ونختار بين « موازنة الدين والدنيا » و « الشره واللذة والنفعية » أو « الزهد المفرط » الذي يجعلنا ندبر الظهر للعالم فهمل عمرانها ؟!

وكذلك الحال في التمييز بين ما هو نافع وملائم وما هو ضار وغير ملائم في حضارات الآخرين . فأي صعوبة من أن نميز بين مصادر القوة ومصادر الضعف في الحضارات الأخرى ؟! ... لأعتقد أن الصعوبة قائمة . على النحو الذي يصورها الدكتور لويس . طالما كان هناك « ولاء » حقيقي للتراث القومي والثقافة القومية . أما إذا انعدم هذا « الولاء » أو ضعف فإن إغراء « التبعية الحضارية » . بالبدء من حيث انتهى الآخرون . سيكون له سلطان شديد . إذ ما الذي يغري « اللقيط » بمعاناة البحث والتنقيب في « غابة الأنساب » ؟! ..

ثم . لنسأل الدكتور لويس : إنك تعترف بأن الغرب قد طوع المسيحية لطابع حضارته المتميز . ولواقعه الاجتماعي الخاص . حتى لقد « ابتعد عن

عبادة الله وتوغل في عبادة الانسان . ولم يبق له من المسيحية إلا دمن وأطال « (٦) ...! فإذا كانت الحضارة الغربية ، ذات الطابع المادى والروح الاحادى - منذ اليونان - قد أخذت ما يلائم طابعها وقيمتها . وطوعت ما أخذت . حتى ولو كان ديناً . وحتى لو بلغ هذا « التطويع » حد التشويه للدين وإفقاده المضمون الجوهرى والمحتوى الحقيقى ... فكيف تنكر على حضارتنا العربية الاسلامية الحق في الاختيار والانتقاء والتمييز بين ما هو نافع وملائم وما هو غير ذلك من حضارات الآخرين ؟! ... إن ما رأيت « نقطة ضعف » في موقف الأفغانى من الحضارة الغربية . هو بذاته « نقطة القوة » في موقفه ودعوته ... فهى الفاصل بين الدعوة « للاستقلال الحضارى » والدعوة إلى « التبعية الحضارية ».

وليتك قد قرأت أعمال الأفغانى قراءة باحث عن الحقيقة . إذن لو قفنا طويلاً عند كلماته التى تقول . عن ضرورة « تميزنا واستقلالنا » الحضارى :

« إن الظهور في مظهر القوة . لدفع الكوارث . إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم . ولا ضرورة . في إيجاد المنعة . إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى . ولا ملجئ للشرقى في بدايته أن يقف موقف الغربى في نهايته . بل ليس له أن يطلب ذلك : وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أقر نفسه وأمتة وقرا - [أى أذها وصدها] - وأعجزها وأعوزها ... إن التمدن الغربى .. هو . في الحقيقة . تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى ... وتقليده جدع لأنث الأمة . يشوه وجهها . ويحط بشأنها ! لقد علمتنا التجارب أن المقلدين .

(٦) أصل « الدراسة » . ض ١٨٣ .

من كل أمة . المستحلين أطوار غيرها . يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . وطلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات . يمهّدون لهم السبيل . ويفتتحون الأبواب . ثم يثبتون أقدامهم^(٦) .

وإنا . معشر المسلمين . إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدّنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه . ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق . وإن مانراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط . لأننا في تمدّنا هذا مقلدون للأمم الأوروبية . وهو تقليد يجزنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب . والاستكانة لهم . والرضا بسلطانهم علينا . وبذلك تتحول صبغة الاسلام . التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب . إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي^(٧) .

لو قرأ الدكتور لويس كلمات الأفغانى هذه . بروح الباحث عن الحقيقة . وتأملها في ضوء ماجره علينا « التحديث على النمط الغربي » من « تبعية » في كل شيء « للمركز الغربي » . لاختلف تقويمه لحال الدين . لكن الغرض وسوء القصد والنية قد صرف الدكتور لويس عن رؤية الحقيقة . وعندما كان يرى طرفا منها كان يجتهد للتشكيك فيه ! فجاء « عمله » على هذا النحو الغريب . وصدق رسول الله . صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى ... » !

(٧) [الأعمال الكاملة لحال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣ ، ١٩٥ - ١٩٧ . ٣٢٧ - ٣٢٨ .

طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

طريق الجواسيس . . لا طريق العلماء ؟ ! . .

لقد ترددت . لبعض الوقت . في أن أكتب هذا « النقد » لـ « دراسة » الدكتور لويس عوض عن جمال الدين الأفغاني . وذلك على الرغم من طلب العديد من الصحف والمجلات إلى . بل وإلحاحها على . إلى درجة « الاستنفار » . أن أكتب هذا « النقد » . وعلى الرغم من إلحاح العديد من الأصدقاء ، بل واستغراب بعضهم . وشك البعض في أن يكون ما بيني وبين الدكتور لويس من ود متبادل مبعث حرج لي في أن أurd عن الأفغاني ما وجه إليه من افتراءات ! . .

أما أسباب التردد فعدة . أهمها :

١ - أنني . بالطبع والعادة . عزوف عن الجدل . ولست سباقا إلى الخصومة واللجاج ..

٢ - وفيما يتعلق بجمال الدين الأفغاني . فلقد قدمت إلى المكتبة العربية والإسلامية عنه عدة أعمال فكرية . غدت - والحمد لله - مراجع للباحثين والقراء . منها تحقيق أعماله . ودراسات عن حياته وفكره .. الأمر الذي يجعل « الضمير » مستريحا حتى ولو لم أسهم في هذه « المعركة » التي أقامتها « دراسة » الدكتور لويس ..

٣ - ثم - وهذا هو السبب الأهم في التردد - إن « دراسة » الدكتور لويس قد بلغت في « الافتراء » إلى حد « الشذوذ » .. الأمر الذي يجعلها « سافطة » بذاتها . فنها فتها ولا معقولة ما جاء بها من افتراء على جمال الدين الأفغانى يفقدها « التأثير السيسى » الذى قصد إليه الدكتور لويس ؟ ! ..

لكننى .. رغم وجاهة أسباب التردد هذه . راجعت نفسى . فبدت لى حقيقتان رجحتا كفة الكتابة على كفة التردد ..

● فالدكتور لويس له جمهور من القراء . نحترمه . ونحرص كل الحرص على ألا ندعه والأفكار المغلوطة التى تلقى إليه ... ومن الأهمية بمكان إدارة الحوار الموضوعى والمنطقى حول القضايا الفكرية التى عرض لها الدكتور لويس .. لأن جمهورا ذا وزن وتأثير فى حركتنا الفكرية قد يتبنى - لثقته فى الدكتور لويس - النتائج والمقولات التى انتهى إليها فى « دراسته » .. فالحرص على وصول الحقيقة إلى هذا الجمهور الذى أحترمه يجعل كتابة هذا « النقد » من أوجب الواجبات ..

● ثم إن الدكتور لويس قد سلك فى « دراسته » هذه طريقا ملتويا - ولا أريد أن أقول : « خبيثا » ! - فى التعامل مع حقائق الموضوع ... لقد أهمل الحقائق التى لا تشهد « للغرض » الذى سعى إليه ... وعندما كانت تضطره طبيعة الأمور للإشارة إلى بعض الحقائق . سرعان ما كان يعود لذكر نقبضها ؟ ! .. حتى لقد أكثر . إلى حد مثير . من وضع الحقيقة بين العوامل التى تشكك فيها . حتى يبلبل فكر القارئ ! - وليس كل قارئ مختصص أو ناقد - .. ومما ساعد « دراسته » هذه على أن تفعل هذا الفعل السيسى . نشرها على « حلقات » .. فهو ينقض فى « حلقة » ما أثبتته فى « حلقة » أخرى .. الأمر الذى يعطى الانطباع . لا بتناقض الدكتور لويس . وإنما

بمتناقض أفكار الأفغانى ومواقفه إلى حد الغموض والريبة واللامعقول ! ..
وعندما « تنجح » « دراسة » .. بهذا الأسلوب .. فى أن تترك هذا الكم
من « التشكيك » الذى بلغ ذروة « الافتراء » على « الفكر » و « النضال »
الذى جسده جمال الدين الأفغانى بالنسبة للإحياء الإسلامى والاستقلال
الحضارى - الذى هو طوق نجاة هذه الأمة مما يريد لها أعداؤها الكثيرون -
فإن التصدى لهذه « الدراسة » .. بالنقد والحوار الموضوعى .. يصبح
واجبا .. بل من أوجب الواجبات ! ..



إن جمال الدين الأفغانى ليس مجرد « مفكر » .. ولا هو بـ « المناضل »
العادى .. لقد أصبح جزءا كبيرا وعزيزا من ضمير هذه الأمة الإسلامية فى
عصرها الحديث ... تعيشه - ولا أقول « تذكره » - عندما تبحث عن
ذاتيتها الحضارية المتميزة .. وعندما تتصدى لأعدائها .. مستعمرين كانوا أو
مستبدين .. وتستلهمه عندما تبرز للعيان الضرورة والمصادقية للمقولة التى بشر
بها : [إن تجديد دنيا المسلمين رهن بتجديد دينهم .. ولن يكون لهم تمدن
حقيق إلا إذا تأسس على روح الشريعة وقواعد الإسلام] ..

ولذلك .. فلم يكن غريبا أن « يجمع » الأئمة والمناضلون والعلماء
والأعلام .. فى الشرق - بل وفى الغرب - على أن جمال الدين هو : « حكيم
الشرق .. وموقفه .. وفيلسوف الإسلام » ! .. ومن ثم .. فلا بد من النظر
إلى السهام التى توجهها « دراسة » الدكتور لويس على أنها موجهة إلى « ضمير
أمة » .. لتطعن « خيارها القومى - الإسلامى » .. هادفة إلى عزل مصر عن
محيطها العربى وانئائها الإسلامى .. وحصرها فى قصص الإقليمية الذى جاهد
الأعداء لفرضه عليها بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م .. وبفصم عرى الوحدة
مع سوريا سنة ١٩٦١ م .. وبعقدوان يونيو سنة ١٩٦٧ م .. وبفكرية

« التفریب - العلمانية » . التي اجتهدت . بالفكر . حتى تجعل مصر قطعة من أوربا . كي لا تكون : العقل والقلب والقاعدة والقيادة لوطن العروبة وعالم الإسلام ! ...

إنهم يريدون نزع سلاح العرب والمسلمين . المتمثل في مصر ! ... ونزع سلاح مصر . المتمثل في محيطها العربي وانتمائها الإسلامي ... وما الهجوم على جمال الدين الأفغانى إلا سهم موجه إلى هذا الانتماء ؟ ! ...

تلك هي الحقيقة التي غدا الأفغانى رمزا وتجسيدا لها ... والتي كاذ أن « يجمع » عليها الأئمة والعلماء والأعلام . إن في الشرق أو في الغرب ...

● فالأفغانى . في نظر قادة الصحوة الإسلامية المعاصرة . هو الرائد الذي ارتاد هذا الطريق في عصرنا الحديث ... وواحد من أبرز رموز هذه « الصحوة » - وهو المناضل أحمد بن بلا - يقول : « إن جمال الدين الأفغانى هو « فكر » تجسد « فعلا » . لقد مثل - [بالنسبة للإسلام وعالمه] - بزوغ حركة الإصلاح الدينى والثقافة والنهضة الحديثة .. لقد كان حقنة من الكظيرين - الادريينالين - أنعشت جسد الإسلام .. » ^(١) ! ...

● وفي ندوة « بالقيروان » - تونس - عقدتها « جامعة الأمم المتحدة » - مارس سنة ١٩٨٣ م - لدراسة ظاهرة [الصحوة الإسلامية] .. تبين أن هذه الصحوة .. ترتبط بمدرسة جمال الدين الأفغانى ... وأنها برزت في عصرنا كرد فعل على العلمانية ... والتحديات الحضارية المعاصرة .. وهى منجاة في وجه الاستلاب المسلط على المجتمع العربي ^(٢) ! ..

(١) من خطابه في المؤتمر الإسلامى : باريس - سبتمبر سنة ١٩٨٢ م . انظر مجلة [المنتقى] العدد الأول - باريس سنة ١٩٨٣ م - ص ١٢ .

(٢) [ملف المستقبل العربية البديلة] العدد ١٠ - أكتوبر سنة ١٩٨٣ م - ص ١٧ .

● وهو ينظر المفكر المسلم - الذرزي - الأمير شكيب أرسلان [١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م] : « فيلسوف الإسلام . وعلم الأعلام . وكوكب الإصلاح الذي أطلعه الله في أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام . حجة الشرق الناهضة . وآية الحق الباهرة .. » (٣) ! ..

● وهو في رأى الإمام المسلم - الشيعة - السيد محسن الأمين [١٢٨٤ - ١٣٧١ هـ ١٨٦٧ - ١٩٥٢ م] : « .. متوقد الذكاء . فصيح الكلام . بليغه . على الهمة . حسن الأخلاق .. جرىء . مبال بطبعه إلى معارضة الحكام . والدعوة إلى الإصلاح .. » (٤) ! ..

● وهو - كما يقول عنه عالم تونس الشيخ محمد الفاضل بن عاشور [١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ ١٩٠٩ - ١٩٧٠ م] - : « حكيم . صوفي . زاهد . متواضع .. كانت سنوات إقامته بمصر هو طور بروز حكمته ومعرفته . والإصداع بدعوته في الإصلاح الديني .. حتى لقد بعث ما كان مهجورا من مواد الثقافة الإسلامية وطوائفها . بتدريس « الكلام » و « الحكمة » و « الرياضيات » . وتحريك مآثرات المباحث ، وفتح مسالك النظر . وتهيئة فرصة التقرير والتحريير وصقل ملكاتها بالنقد والمران .. » (٥) ! ..

● فإذا ما جئنا إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ -

(٣) [حاضر العالم الإسلامي] مجلد ١ - ج ٢ ص ٢٨٩ . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٤) محسن الأمين [رجال الدين الأفغاني] ص ٩ . طبعة بدون تاريخ . وبدون تحديد مكان الطبع .

(٥) محمد الفاضل بن عاشور [التفسير ورجاله] ص ١٥٦ ، ١٥٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م . الذى شارك الأفغانى الفكر والنضال اتى عشر عاما . فتفرد وانفرد بما جعله . عندما يكتب عن الأفغانى . يصدر - كما قال - عن « كمال الخبرة . وطول العشرة » .. والذى قال عنه الامام محمد رشيد رضا : « إنه أعلم الناس بمقاصد الأفغانى وأعماله » .. والذى وصفه سليم العنحورى - وهو من عارفى الأفغانى ومعاصريه - بأنه « أعز أخلاء الحكماء جمال الدين » ..

إذا جئنا إلى محمد عبده لنرى وصفه لمكانة جمال الدين . وتقويمه لدوره فى النهضة الإسلامية - مع التنبيه والتنبيه إلى أن محمد عبده عندما يكتب فإنه يتخير ألفاظه بدقة من يؤدى شهادة سيحاسب عليها أمام الله . أعانته على ذلك قدرات لغوية وحكمة فلسفية جعلته إماما فى البيان كما هو إمام فى الحكمة وتجديد الدين ؟ ! - ... إذا جئنا إلى تقويمه للأفغانى . وجدناه يقول - ضمن مقال - : « ... فكأنه حقيقة كلية . تجلت فى كل ذهن بما يلائمه . أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله ... »

فهو فى السياسة : يسعى لتلحق الأمة بالأمم العزيزة . والدولة بالدول القوية . ليعود للإسلام شأنه . وللدين الحنيفى محجده ...

وهو فى الدين : حنيف حنفى .. لم يكن مقلدا فى عقيدته . لكنه لم يفارق السنة الصحيحة . مع ميل إلى مذهب الصوفية .. وهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه .. له حمية دينية لا يساويه فيها أحد .. يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله ...

وهو فى الفلسفة : له سلطان على ذقائق المعانى . وقوة فى حل ما يعضل منها . كأنه سلطان شديد البطش ! .. وله لسنٌ فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد - إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ! - ..

وهو في الآداب : له في الشعرية قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم
الصنع والابداع ...

وهو في المعارف : إذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ...
وهو في الأخلاق : ولوع بعظائم الأمور . عزوف عن صغارها . سلامة
القلب سائدة في صفاته . كريم يبذل ما في يده . قوى الاعتماد على الله .
لا يباي ما تأتي به صروف الدهر . له حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع .
إلى أن يدنو منه أحد لمس شرفه أو دينه فيقلب الحلم إلى غضب تنقض منه
الشهب . فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب ! ... شجاع مقدام .
لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ! ...

ثم يختم محمد عبده وصفه لجمال الدين بهذه العبارة التي يقول فيها :
« وبالجملة . فإني لو قلت : إن ما أتاه الله من قوة الذهن . وسعة
العقل . ونفوذ البصيرة . هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ .
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو فضل عظيم » (٦) !

ذلك هو جمال الدين الأفغاني . كما وصفه وحدد مكانه ودوره . الأئمة
والعلماء المسلمون . الذين أشرنا إلى رأيهم فيه ... وعلى دريهم سار كل
الذين كتبوا عنه الكتب أو الدراسات . أو عرضوا للحديث عن مكانته في
انهاض الأمة وإصلاح دينها ودنياها .. من مثل رشيد رضا .. وحسن
البننا .. وعبد الحميد بن باديس .. وعبد القادر المغربي .. ومحمد الخزومي ..
ومصطفى عبد الرزاق .. وعبد الله النديم .. وسعد زغلول .. ومحمد إقبال ..
وعباس العقاد .. وأحمد أمين .. وعبد الرحمن الرافعي .. ومالك بن نبي ..
والدكتور محمود قاسم .. وأديب اسحق .. وسليم نقاش .. وسليم

(٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٤٩ - ٣٥٢ . طبعة بيروت سنة

العنحوري . والفيكونت فيليب دي طرازي . الخ . الخ . الخ .
 وإذا كنا قد أشرنا إلى « كلمات » لأئمة المسلمين وأعلام علماءهم في جمال الدين . فإن كلمات العلماء والمؤرخين . من غير المسلمين . شاهدة . هي الأخرى . على عظمة الأفغاني وريادته وتألقه في سماء « الفكر » و « النضال » .

● فالمؤرخ المسيحي العربي حرجي زيدان [١٢٧٨ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦١ م - ١٩١٤ م] يقول عنه : « لقد نشأ الأفغاني قطبا من أقطاب الفلسفة . وعاش ركنا من أركان السياسة . وتوافرت فيه قوى الفلاسفة ومواهب رجال الأعمال » (٧) !

● والفيلسوف الفرنسي إرنست رينان Ernest Renan [١٨٢٣ - ١٨٩٢ م] يقول عن جمال الدين : « كنت أتمثل أمامي عندما كنت أخطبه : ابن سينا . أو ابن رشد . أو واحدا من أساطين الحكمة الشرقيين » (٨) !

● والسياسي والمستشرق الانجليزي - [الأيرلندي] - ولفرد سكاون بلنت S. Blunt [١٨٤٠ - ١٩٢٢ م] - وهو الذي عاشه . وتعامل معه . وخبره - يقول عنه : « إن جمال الدين كان رجلا عبقريا . أثرت تعاليمه تأثيرا لا يمكن الغض من جسامته على حركة الإصلاح الإسلامي . وأنا أشعر بالشرف العظيم لأنه عاش ثلاثة شهور تحت سقف في إنجلترا . ولكنه كان رجلا برياً . كل ما فيه آسوى . وليس من السهل تأنيسه للعادات الأوروبية ؟ » (٩) !

(٧) حرجي زيدان [تراجم مشاهير الشرق] . طبعة القاهرة .

(٨) [حاضر العالم الإسلامي] مجلد ١ ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٩) أصل : دراسة « الدكتور لويس عوض » . ص ٢٣٠ .

● والمسيحي الأمريكي لوثرروب ستودارد Lothrop Stoddard - مؤلف كتاب [حاضر العالم الإسلامي] - يقول عنه : « كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء . وأمير الخطباء البلغاء . وداهية من أعظم الداهة . دامغ الحجة قاطع البرهان . ثبت الجنان . متوقد العزم . شديد المهابة . كأن في ناسوته أمرار المغنطيسية .. وكان داعيا مسلما كبيرا .. كأنما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب .. ضحى بنفسه في سبيل إيقاظ العالم الإسلامي .. وليس هناك قطر من الأقطار الإسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تحبو نارها ولا يتبدد أوارها » (١٠) ! ..

● أما المستشرق اليهودي المجري جولد سيهر Goldziher [١٨٥٠ - ١٩٢١ م] فإنه يقول : « كان جمال الدين من أبرز أعلام الإسلام في القرن التاسع عشر .. أثر تأثيرا كبيرا في الحركات الحرة والدستورية .. وسعى إلى إيقاف الشعور الوطني وتحرير الدول الإسلامية من النفوذ والاستغلال الأوربي » (١١)

وعلى منوال المستشرق جولد سيهر - في تقدير عظمة الأفغانى - سار
المستشرقون الكبار الذين كتبوا عنه . من أمثال براون E.G. Browne
[١٨٦٢ - ١٩٢٦ م] . وتشارلز أدامز Gh. Adams . الخ . الخ .

ذلك هو رأى الأئمة والعلماء والأعلام - مسلمين ومسيحيين ويهود -
شركيين وغربيين - فى جهال الدين الأفغانى ...

(١٠) [حاضر العالم الإسلامي] مجلد ١ ج ١ ص ٣٠٥.

(١١) [دائرة المعارف الإسلامية] الترجمة العربية . الطبعة الثانية . القاهرة . دار الشعب .

لكن الدكتور لويس عوض له رأى مخالف . بل ومضاد - ومعذرة
لكلمة « رأى » إذا نحن أطلقناها على ماخطه قلمه في وصف جمال الدين
الأفغانى ؟ ! ... أتعرفون بماذا وصفه ؟؟

لقد قال عن الأفغانى - وبالحرف - وبذات الألفاظ :

« إنه : زنديق ... ملحد ... مجدف ... متفرنج . في الفكر
والسلوك ... علماني ... ثيوقراطي ؟ ! ... تقدمي ... ثوري ... جدلي ...
رجعي ؟ ! ... تقليدي ... محافظ ؟ ! ... وسطي ... حالم ...
هناكاري ؟ ! ... سلفي ... شيخي ؟ ! ... بهائي ... باطني ... ماكر ...
إرهابي ... فوضوي ... عدمي ... غامض ... مريب ... جاهل ...
متعصب ... غيبي في الفكر . غيبي في السياسة ... شغل نفسه بسفاسف
الفكر وبسفاسف الفكر السياسي ... مزدوج الشخصية . بل ومتعددها ...
متذبذب ... متناقض ... محامي روسيا في السياسة الأفغانية ... صاحب
نظرية « المستبد العادل » ... صاحب عنجهية فارسية ... شخصية
مأساوية ... لم يكن يعرف مايريد ... عدو للشعور القومي وللحركات
الاستقلالية ... على درجة من النقص في الإخلاص ... باحث عن استدرار
الأموال - وبالطرق الملتوية - لتصب في جيبه ... ينصب على كل
الأطراف ... انتهازي من طراز نادر ... متوسل للغايات النيلية بالوسائل
الحسية ... مغامر ... مقامر ... بل وأفاق دولي ... (١٢) ١٩٢ ١٩١ :

تلك هي - عند لويس عوض - أوصاف الرجل الذي سقنا طرفا من
وصف الأئمة والعلماء والأعلام له . منذ قليل .. والذي قال عنه الأستاذ

(١٢) تتأثر هذه الأوصاف للأفغانى في صفحات « دراسة » الدكتور لويس عوض .. وانظر
على وجه الخصوص عدد [التضامن] ١٤ ص ٨٠ ، وأصل « الدراسة » ص

١٧٣ . ١٩١

الإمام الشيخ محمد عبده : إنه لا يبالغ إذا قال : « إن ما أتاه الله من قوة
الذهن . وسعة العقل . ونفوذ البصيرة . هو أقصى ما قدر لغير
الأنبياء ... ! »

وذلك هو الذى جعلنا نقول : إن « دراسة » الدكتور لويس عن
الأفغانى قد بلغت فى الشذوذ إلى الحد الذى جعلها « ساقطة » بالطبع
والذات ... ولولا أن الرجل قد سلك إلى غرضه هذا كل السبل
« الملتوية » - ولا أريد أن أقول : « الخبيثة » - لما احتجنا إلى هذا « النقد »
لنحمى به « الحقيقة » من « الافتراء » ! ...

فما هى هذه السبل الشاذة . التى سلكها الدكتور لويس ليبلغ بواسطتها
قمة الشذوذ التى بلغت « دراسته » عن جمال الدين ؟؟

● من « التقاليد البحثية » . التى غدت بديهة فى دنيا الفكر . تلك التى
تتعلق بطبيعة ونوعية المصادر والمراجع فى كل بحث من الأبحاث . وعلاقة
هذه المصادر والمراجع - من حيث الموضوع والمستوى - بالبحث الذى
تستخدم فيه ...

فإذا كان البحث فى الاقتصاد . فإن آثار الفكر الاقتصادى لا بد وأن
تتصدر قائمة المصادر والمراجع . وإذا كان فى التاريخ . فهناك مصادر
ووثائقه ... وإذا كان فى الدين . فهناك مصادر الفكر الدينى ... وإذا كان
فى الأدب . فهناك الآثار الأدبية وأعمال النقاد ... تلك بديهة من
البديهيات ...

وفى حال جمال الدين الأفغانى فإن هناك أعمالا فكرية كتبت عن الرجل
- ما بين رسالة جامعية . أو كتاب متخصص . أو دراسة جادة . أو فصل أو
فصول من كتاب - كتبها أكثر من خمسين مفكرا . فيهم ما يزيد على الثلاثين

إماما وعالما ومفكرا ومتقفا . من الشرق والغرب . ومن كل الديانات والاتجاهات . وبديهي أن تنصدر هذه الأعمال الفكرية قائمة المصادر والمراجع في أي بحث جديد عن جمال الدين - مع ما يصل إليه الباحث الجديد من مصادر جديدة جدية بالاحترام ... وبديهي كذلك . في التأريخ لأي مفكر . أن تكون أعماله الفكرية وآراؤه الثابت نسبتها إليه . موضع الاعتبار الأول في تقويم أفكاره واتجاهاته ... كما أن شهادات المعاصرين . وخاصة القريبين من العلم الذي نكتب عنه . هي الأخرى مصادر لا بد وأن يكون لها وزن كبير ... كل هذه بديهيات . استقرت كتقاليد تعارف عليها المفكرون والباحثون . في كل ميادين البحث ومجالات التفكير .

لكن الدكتور لويس عوض قد جاء . في « دراسته » عن الأفغاني . فخرج عن كل هذه القواعد . ورفض كل هذه البديهيات ... واستن للباحثين سنة سيئة لم يسبقه إليها أحد من الناس !

● فهو يرفض أن يصدق الرجل الذي يكتب عنه ؟ ! .. بحجة « أن الأفغاني كان كثيرا ما يلون الأحاديث عن نفسه . لأسباب متعددة (١٣) » .. ؟ ! .. وبحجة « أن الأفغاني عودنا أن يروي الأمور دائما من وجهة نظره (١٤) » .. ؟ !

● ثم هو يرفض آراء محمد عبده عن الأفغاني ... رغم عدالة الرجل . ودقته . وموضوعيته - التي جعلته لا يغفل نقد الأفغاني . رغم ما يكتنه له من تقدير منقطع النظير - ورغم أنه قد صحبه وشاركه لأكثر فترة - اثني عشر

(١٣) [النضام] العدد ٦ ص ٦٨ .

(١٤) [النضام] العدد ١٤ ص ٧٨ .

عاما - حتى لقد صدق عندما قال إنه يكتب عنه بناء على « طول العشرة
وكمال الخبرة » . ولم يشفع لمحمد عبده - كمصدر ثقة - عند الدكتور لويس
إجماع معاصري الأفغانى . وكل الذين كتبوا عنه بأنه - أى محمد عبده -
« أعلم الناس بمقاصد الأفغانى وأعماله .. » - كما يقول رشيد رضا (١٥) - .
و « أعز أخلاء الحكيم الأفغانى » - كما قال سليم العنحورى .

● بل لقد رفض ما أجمع عليه أئمة العصر وأعلام علمائه . الذين أرحوا
لجمال الدين ... وترددت فى « دراسته » عبارات كثيرة من مثل : « هناك
رواية محمد عبده . وهى بوجه عام رواية جرجى زيدان . وآدمز .
وبراون . وهى الرواية المعتمدة من أكثر الناس (١٦) ... » ثم يرفضها ...
ومن مثل عبارة : « ... وفى رواية محمد عبده وجرجى زيدان وبراون
وغيرهم من المصادر التقليدية (١٧) » ... ثم يرفضها ... ومن مثل عبارة :
« وقد أجمع محمد عبده وأديب اسحق وسليم العنحورى وجرجى زيدان
وعامة معاصري الأفغانى من المصريين وأبناء البلاد العربية (١٨) ... » ثم
يرفض هذا الإجماع ! ؟

وبالطبع . فليس من حق أحد أن ينكر على باحث أن يرفض « الروايات
المعتمدة » ويرفض « الإجماع » . إذا كان قد استند إلى مصادر أوثق مما
استندت إليه « الروايات المعتمدة » . وإذا كانت لديه الحقائق الصلبة
والواضحة التى تنقض « الإجماع » ...

(١٥) [تاريخ الأستاذ الإمام] ج ١ ص ٣٠٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م .

(١٦) [التضامن] عدد ٥ ص ٦٩ .

(١٧) [التضامن] عدد ٥ ص ٦٨ .

(١٨) [التضامن] عدد ٧ ص ٦٢ .

لكن أن يرفض لويس عوض « إجماع علماء العصر وأعلامه » .
 مستندا إلى « تقارير الجواسيس الانجليز » . وإلى « ملفات المباحث » الخاصة
 بالأفغانى فى دوائر الأمن والتجسس فى إنجلترا وفرنسا - وهى الدوائر التى
 ناصبته العداء - لعدائه لاستعمار حكوماتها بلاد الشرق واستغلالها شعوبه -
 وإلى عدد من الكتب التى ألفها نفر من « طلاب الاستشراق » - وليسوا من
 علمائه - استنادا إلى « تقارير الجواسيس » و « ملفات المباحث » ... أما أن
 تكون هذه هى « مصادر » الدكتور لويس . التى ينقض بها « إجماع الأئمة
 وأعلام علماء العصر » .. فتلك هى الخطيئة الكبرى . والسنة السيئة التى
 استنها فى « دراسته » هذه عن جمال الدين الأفغانى !

إن الدكتور لويس يسمى « الأوراق » التى استند إليها « وثائق » . وهو
 يتحدث عنها فى معرض حديثه عن الكتب التى أخذ عنها . والتى استندت
 إلى هذه « الوثائق » . فىقول صراحة إنها لا تخرج عن « تقارير جواسيس »
 و « ملفات مباحث » ضمت « تقارير المخبرين » !! فأصحاب « المراجع
 الجديدة » . التى استند إليها فى « دراسته » . اضطروا - [فى سبيل نقض
 إجماع علماء العصر] - إلى نبش ملف جمال الدين الأفغانى وتحركاته فى آسيا
 وإفريقيا فى :

- ١ - سجلات وزارة الخارجية البريطانية
- ٢ - وفى « يوميات كابول » عن عامى ١٨٦٨ و ١٨٦٩ م فى « أعمال
 حكومة الهند » فى مصلحة الشؤون الخارجية (كلكتا سنة ١٨٦٩ م) .
 (مكتب علاقات الكومنولث) .
- ٣ - وفى « موجز حوادث كابول » فى الأعوام ١٨٦٣ - ١٨٧٤ م (مكتب
 علاقات الكومنولث) الصادر فى سمل سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٤ م .

٤- وفي « أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (ملف قاس ١٨٨٨ - ١٨٩٦ م) .

٥- بل اضطروا إلى نبش محفوظات البوليس الفرنسي والبوليس الانجليزى^(١٩) ... »

لكن ... هل ضمت هذه « الأرشيفات » و « الملفات » أوراقا يمكن .
بحق أن تسمى « وثائق » بحق للباحث أن ينقصر . استنادا إليها . إجماع
العلماء ؟ !

لنتأمل ... ولنتأمل ...

إن « الوثيقة » . عند الدكتور لويس . مفهومها غريبا .. فهو يمنح هذا
الاسم لأوراق ينكره عليها . ليس علماء التاريخ وحدهم . بل والطلاب
المبتدئون في هذا الفن ! .. ولقد سبق أن أشرنا إلى قصة تلك « الأوراق »
التي كتبها رجل اسمه « لاسكاريس » . هو - باعتراف الدكتور لويس ونص
كلماته - « مصاب بنوع من الهوس أو الخيال المسرف » . والتي ضمنها
« هذيان » رجل مريض بالحمى . ساعة الاختصار . هو « المعلم يعقوب
اللعين » . عندما حضرته الوفاة على ظهر السفينة التي أفلته هو والحنة الذين
تعاونوا مع الحملة الفرنسية على مصر . أفلته مع جنود الحملة عند جلائهم عن
مصر سنة ١٨٠١ م ... لقد سمي الدكتور لويس هذا « الهذيان » . الذي
كتبه « مهووس » . « وثائق » . وقال - ليضفي عليها المهابة - إنها في
محفوظات وزارة الخارجية بلندن تحت رقم [F.O.78vol38] : ولتبها
كانت « وثيقة » يوزع فيها « معلمه يعقوب اللعين » تركته الشخصية . إذن

(١٩) [التضمين] عدد ١ ص ٥٣

هنا الأمر... ولكنها . في رأى الدكتور لويس . « وثائق مشروع الاستقلال الأول لمصر » (٢٠) ؟ !

ذلك هو مبلغ « الاحترام » عنده لمصطلح « الوثيقة » وهو يكتب هذا الكلام لقراء هم أبناء حضارة لها في نقد النصوص والمأثورات والروايات جهود تبلورت في علم اسمه [علم الجرح والتعديل] ؟ ! .. أمة تعلمت في سيرة نبيها . عليه الصلاة والسلام . أنه في لحظات احتضاره . طلب صحيفة ودواة ليلى كتابا . فأحجم عن الإجابة فمر من أجلة الصحابة . على رأسهم عمر بن الخطاب . قائلين : « إن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قد غلبه الوجع . وعندكم القرآن . حسبنا كتاب الله » (٢١) ! .. فحتى النبي . عليه الصلاة والسلام . لم يسجلوا ما أراد أن يلى عندما اشتد عليه الوجع ساعة الاحتضار .. احتراماً منهم « للمصادر » الجديرة بأن تكون طاقة التوجيه وتكوين الأفكار والآراء ... في أمة هذا شأنها وشأن حضارتها مع « الوثائق » و « التوثيق » . يسمى الدكتور لويس « هذيان » معلمه يعقوب « عندما اشتدت عليه الحمى . لحظة الاحتضار : « وثائق مشروع الاستقلال الأول لمصر » !! ..

ولقد سار على هذا الدرب في « دراسته » عن جمال الدين ...
● إنه يتهم الأفغانى بالكذب .. وبالتقية .. وبالباطنية .. وبالنصب ..
لأنه قد أخفى « إيرانيته » وزعم أنه « عثماني » عندما عاش في بلاط أمير الأفغان سنة ١٨٦٨ م ... و « الوثيقة » التي اعتمد عليها الدكتور لويس هي تقرير جاسوس أفغانى كان يعمل لحساب الاستعمار الانجليزى .. وبعبارات

(٢٠) [تاريخ الفكر المصرى الحديث] ج ١ ص ١٨٣ . ١٨٤ .

(٢١) الطهطاوى [الأعمال الكامنة] ج ٤ ص ٣٨٨ .

الدكتور لويس : « هي تقرير كتبه موظف في حكومة كابول سنة ١٨٦٨ م كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز . والتقرير بعنوان [سجل بأوصاف السيد الرومي في كابول] .. » وفيه اتهام للأفغان في عقيدته ووطنيته إذ يقول عنه : إنه « فيما يبدو لا يتبع ديننا معيناً . وأسلوب معيشته أقرب إلى أسلوب الأوروبيين منه إلى أسلوب المسلمين . وهو يلبس ملابس التوغاي (أتراك جنوب غرب التركستان) ويشبه أن يكون عميلاً روسيا ... (٢٢) » !

تلك هي « الوثيقة » التي اعتمد عليها الدكتور لويس في نقض « إجماع العلماء » على تدوين الأفغانى وصدق إخلاصه في وطنيته ...

ونحن إذا تجاوزنا . جدلاً . عن « التدني والهبوط » في إطلاق اسم « الوثيقة » على هذه الورقة التي كتبها جاسوس ... نسأل الدكتور لويس : أما كان الأجدر بك أن تقف موقف الناقد أمام هذه النصوص ؟ .. إن « نقد النصوص » ليس خاصية من خصائص المؤرخ وحده . حتى يمكنك الاعتذار بأنك « مؤرخ هاو » . لم تتعلمه فيما تعلمت ! .. وإنما هو جزء من « صناعة » الناقد الأدبي . التي هي وظيفتك الأصلية ! .. فلماذا لم تقف الموقف النقدي من هذا النص ؟ .. وأنت لو صنعت ذلك لألقيته في سلة المهملات ؟ ! ... وذلك لأن :

١ - هذا التقرير يتحدث عن « السيد الرومي » . وليس فيه أية إشارة إلى أن هذا « السيد الرومي » هو جمال الدين الأفغانى ! ... فمن قال إن المقصود هو جمال الدين ؟ ! ..

٢ - ثم إن وصف « السيد » يعنى « الشريف » . من « السادة » .

المنحدرين من نسل آل البيت . أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ... أى أنه « عربى . قرشى . هاشمى » ... أما « الرومى » فمعناها « التركى العثمانى » . لأن العرب . فى صراعهم مع الترك العثمانيين . قد سموهم « الأروام » (٢٣) .. فكيف يكون إنسان واحد « سيدا » و « روميا » فى ذات الوقت ؟ أى كيف يكون « عربيا » و « تركيا عثمانيا » فى وقت واحد ؟ ! ..

٣ - ثم ... هذا الجاسوس - وهو أفغانى - كيف لم يكشف « إيرانية » جمال الدين .. والأفغانيون والإيرانيون أبناء أرومة واحدة ؟ !

٤ - وأخيرا .. فهل من حصافة العميل . الذى يمارس نشاطه فى بلاط دولة محافظة دينيا . أن يكون متفرجحا فى أسلوب معيشته . إلى الحد الذى يبدو فيه أنه لا يتبع ديننا معينا ؟ ! ... وألست أنت الذى أوردت عبارة « بلنت » عن أسلوب معيشة الأفغانى فى لندن . والتي تقول : « إنه كان رجلا برياً . كل ما فيه آسوى . وليس من السهل تأنيسه للمعادات الأوربية » ؟ ! ... أكان « آسيويا برياً » فى لندن . « متفرجحا » فى كابول ؟ ! ..

عزيزنا الدكتور لويس ! .. إن من الحكم الشعبية الماثورة تلك الحكمة التى تقول : « إذا كان المتحدث مجنوناً . فليكن المستمع عاقلاً » ؟ ! .. فلم لم تصنع ذلك مع هذا « الهراء » الذى سميت « وثائق » . نقضت بها « إجماع الأئمة والعلماء والأعلام » ؟ ! .. هل هو الغرض السيئ ؟ .. والغاية الرامية إلى ضرب الإحياء الإسلامى بتشويه رائده فى عصرنا الحديث ؟ ! .. أم ماذا يا عزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

(٢٣) انظر عبد الرحمن الكواكبي [الأعمال الكاملة] ص ٣٢٥ طبعة بيروت سنة

١٩٧٥ م .

وغير هذا الجاسوس المجهول الاسم . وغير التقرير الذى كتبه عن
« شخص » مجهول الاسم كذلك .. ترد فى « دراسة » الدكتور لويس
الاشارات إلى تقارير الجواسيس - من أمثال « حسين بلجرامى » . سكرتير
الحاكم الانجليزى لحيدر آباد .. و « عزيز الدين » . الذى كلفته الحكومة
البريطانية برصد تحركات الأفغانى - فهى « مصادره » فى « دراسته » عن
جمال الدين ! ..

لقد كان لابد للدكتور لويس كى ينقض « إجماع الأئمة والعلماء » . من
أن يرفضهم . كمصادر لـ « دراسته » . وبذلك فهو قد تنكب طريقهم .
على حين رأيناه قد سار خلف الجواسيس . باعتماده على التقارير التى كتبوها
عن الأفغانى . بل والى لا دليل على أن المعنى بها هو جمال الدين ! ..
● وغير هذه « الأوراق الساقطة » . التى يسميها الدكتور لويس
« وثائق » . نراه يعتمد على نوعية من « الكتب » ليست بأحسن حالا من
هذه « الأوراق » ! ..

فهو يعتمد . فى تشويه موقف الأفغانى من الثورة المهدية بالسودان .
وتوجيه الاتهامات إلى موقفه أثناء المفاوضات بين الانجليز وبينه . بواسطة
« بلنت » . حول الثورة المهدية . يعتمد على الترجمة الانجليزية لكتاب
الصحفى الفرنسى « هنرى دوشفور » [مغامرات حياتى] ؟ ! ... ثم نراه - كما
هى عادته - لا يتخذ أى موقف نقدى مما جاء فى هذه [المغامرات] :
فهو . استنادا إلى هذه [المغامرات] . يوجه للأفغانى « تهمة » أنه « طرح
نفسه وسيطا فى المفاوضات . مدعيا أنه يعرف المهدي معرفة شخصية »
وينسب إلى الأفغانى عبارة : « تلميذى السابق فى جامعة الأزهر . وهو الآن
المهدي » (٢٤) ! ..

(٢٤) أصل « دراسة » الدكتور لويس . ص ١٩٣ .

ولو تأمل الدكتور لويس ماجاء في هذه [المغامرات] بحس نقدي
لظهرت له هذه الحقائق :

١- أن الأفغانى . وفق كتابات « بلنت » التى أوردتها الدكتور لويس
ذاته . ليس هو الذى طرح نفسه وسيطا فى المفاوضات . بل إن الانجليز هم
الذين صنعوا إليه . بواسطة « بلنت » ..

٢- ان الأزهر لم يكن يسمى « جامعة » .. وهو لم يتخذ هذا الاسم إلا
فى ستينات القرن العشرين . لقد كان اسمه « الجامع » - بالتذكير - وعندما
عرض البعض على الشيخ سليم البشرى [١٢٤٨ - ١٣٣٥ هـ ١٨٦٧ -
١٩١٧ م] تسميته « جامعة » . رفض قائلا : « لماذا تؤنث ماذكره
الله ؟ ! »

٣- أن جمال الدين الأفغانى لم يدرس فى الجامع الأزهر ..
٤- والمهدى - محمد أحمد - لم يدرس فى الأزهر . فلقد منعه فقره من
مغادرة السودان ؟ !

لم ير الدكتور لويس شيئا من هذه الحقائق البسيطة . والعنيدة . التى
تنقض [المغامرات] التى اعتمد عليها . فقط رأى « تهمة » موجهة للأفغانى
فحال « الغرض » بينه وبين التفكير فى مدى تماسكها ومصداقيتها ! ..

● وكتاب آخر . هو « العمدة » فى أغلب ماوجه إلى الأفغانى من
اتهامات .. ففيه أنه « شيعى » . كذب على العالم عندما ادعى أنه
« سنى » .. وأنه « إيراقى » . كذب على العالم عندما زعم أنه « أفغانى » ..
وأنه « غير متدين » . كذب على العالم عندما ظهر فى صورة المتدينين ! ..
الخ .. الخ .. وعنوان هذا الكتاب هو [جمال الدين الأسد آبادى .
المعروف بالأفغانى] . وهو منسوب إلى « مرزا المظف الله خان » - الذى زعم

أنه ابن أخت جمال الدين .. ويضم ملاحق فيها « شهادات » على هذه
الدعوى المناقضة لما قاله الأفغانى عن نفسه . ولما أجمع عليه الأئمة
والعلماء .

ومرة ثالثة ، نقول : إن الدكتور لويس لو نظر نظرة نقدية إلى ماحواه
هذا الكتاب ، لكشف نهافته وزيفه .. ولأراح واستراح ... ففى هذا
الكتاب من « اللامعقول » الشئ الكثير ... وعلى سبيل المثال :

١ - يدلل هذا الكتاب على « إيرانية » جمال الدين بأن له فى « أسد
آباد » الإيرانية أسرة تسمى « الأسرة الجمالية » ، نسبة إليه ! .. ونحن نعلم أن
الرجل لم يتزوج ولم يتجب .. فكيف تكون له أسرة « جمالية » تنتسب إليه
هو ، لا إلى أبيه وأجداده ؟ ! ..

٢ - والكتاب يتحدث عن إخوة جمال الدين ، فيقول إن له أختين :
طيبة ، ومريم - وليس لنا ملاحظة على اسميهما . فهما - اسمان - مألوفان فى
الأوساط الإسلامية .. لكنه يذكر أن اسم أخيه الوحيد هو « مسيح
الله » (٢٥) ! .. فلم لم يقف الدكتور لويس أمام هذا الاسم ، ويقول لقراءه :
إن هذا الاسم محال أن يكون مألوفاً فى أسرة إسلامية .. ولا بد أن يكون
القصد من هذا الكتاب هو تشويه الصورة الإسلامية لجمال الدين ؟ ! .. أم
إن هذا الاسم - « مسيح الله » - قد أعجب الدكتور لويس فقص الطرف ،
ومضى يللم الاتهامات ؟ ! ..

٣ - وفى هذا الكتاب - [جمال الدين الأسد آبادى] - كم من
المعلومات التى لا يكتفى إلا جاهل أو مخرف ! .. ففيه : أن « الحزب
الوطنى - [الذى ترعّمه الأفغانى بمصر] - كان دقيق التنظيم للغاية » ...

(٢٥) انظر ص ١٧٠ ، ١٧١ من هذا الكتاب . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

والمعروف انه كان « تجمعا للصفوة » ولم يكن « حزبا » ، بالمعنى المتعارف عليه ، حديثا ، من مصطلح « الحزب » !

وفيه : أن « التبرعات النقدية من أعضاء هذا الحزب : في تسعة أشهر فقط ، بلغت ١٨,٠٠٠ جنيه ... وهذا كلام يدخل في عالم الخيال المريض .. !

وفيه : « أن جميع من كانوا في الادارات الانجليزية - من المصريين - قد تركوا أعناقهم ، وانضموا إلى المجاهدين من رجال الحزب الوطني « ؟ ! ... والمعروف أن هذا « الحزب » ، وزعيمه الأفغانى ، لم يكن موجودا بمصر عندما قامت بها « إدارات انجليزية » فلقد نفى الأفغانى من مصر سنة ١٨٧٩ م ، وانتهى أمر هذا الحزب ، تقريبا ، قبل الاحتلال الانجليزى لمصر الذى حدث سنة ١٨٨٢ م ؟ ! ..

وفيه : أن « اللورد كرومر ، المستشار المالى البريطانى » فى مصر قد انزعج من نشاط الأفغانى وحزبه الوطنى ، فكتب إلى حكومته تقريرين حول خطورة هذا الحزب على التجارة الانجليزية فى مصر وافريقية وآسيا .. وأنه - أى « الحزب الوطنى - هو أوضح مظهر لنهضة العرب من ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهو يبرهن حقا على كيفية سيطرة العرب على ثلث المعمورة فى أقل من ربع قرن « ؟ ! ..

ونحن نعلم - وتلاميذ المدارس الابتدائية يعلمون - أن كرومر كان « المعتمد البريطانى » فى مصر .. وليس « المستشار المالى » .. وأنه لم يأت إلى مصر إلا بعد الاحتلال بسنوات ، أى بعد نفى الأفغانى منها ، واختفاء الحزب الوطنى بنحو الخمس السنوات .. ومن ثم فلم يكتب كرومر إلى حكومته التقارير عن نشاط الأفغانى وحزبه فى مصر أبدا ؟ ! ..

وفيه : أن الموظفين الانجليز ... وأعضاء الجمع الكنسي قد شاركوا
« كرومر » فرعه من الأفغانى وحزبه الوطنى .. وتعجبوا من « تفهقر سبعائه
مليون من المسيحيين المثقفين الأقوياء أمام أربعين شخصا يقودهم درويش
إيراني هو جمال الدين الأسد آبادى » ! ... وبعد سطور يذكر أن أعضاء
هذا الحزب - الذين قال عنهم مرة إنهم ثلثائة ، ومرة إنهم أربعون .. يذكر
أنهم قد بلغوا ، فى تسعة أشهر ٢٠.١٨٠ عضوا .. وأصبح الحزب يملك
رأسمالا كبيرا فى المصارف ! .. مع العلم أن مصر ، يومئذ ، لم يكن بها أية
مصارف ؟ ! ..

وفيه : أن الانجليز ، عندما انزعجوا من نشاط الحزب الوطنى ، « نفوا
جمال الدين إلى أوروبا » ! ... والمعروف أنه قد نفى إلى الهند ؟ ! ..

وفيه : أنهم قد « نفوا كذلك محمد عبده ، الذى كان مقتباً ثلاث
سنوات » ! .. ومعلوم أن محمد عبده لم ينف إلا بعد فشل الثورة العربية ،
وبالتحديد فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م .. كما أنه لم يكن ، مقتباً قبل نفيه ،
وإنما شغل هذا المنصب بعد عودته من المنفى بعشر سنوات - [فى ٣ يونيو سنة
١٨٩٩ م ؟] ! ..

وفى هذا الكتاب ، أيضا ، أن نفى جمال الدين من مصر كان سنة
١٨٧٩ م « بعد قضاء الانجليز على الثورة العربية » ؟ ! .. والمعروف أن
القضاء على الثورة العربية كان فى سنة ١٨٨٢ م وليس فى سنة
١٨٧٩ م ؟ ! ..

وبعد أن ذكر الكتاب أن نفى الأفغانى من مصر كان إلى أوروبا .. عاد
وذكر أنه توجه من مصر للهند ؟ ! .. كما جعل استضافة « للافغانى »

« بمنزلة بباريس » .. على حين يعلم الجميع أنها في لندن (٢٦) ؟ ! ...
إلى آخر هذا الكم من « المعلومات » التي ما كان يجوز لطالب مبتدئ أن
يراها ثم يعتمد على هذا الكتاب في نقض إجماع الأئمة وأعلام العلماء الذين
كتبوا تاريخ جمال الدين ؟ ! ...

تلك هي « مصادر » « دراسة » الدكتور لويس عوض عن جمال الدين
الأفغاني .. التي رجحها على كتابات محمد عبده ، ورشيد رضا ، وحسن
البنّا ، وابن باديس ، ومحسن الأمين ، وعبد القادر المغربي ، ومحمد
المخزومي ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى عبد الرزاق ، ومحمد الفاضل بن
عاشور ، وعبد الله النديم ، وأديب اسحق ، وسليم نقاش ، وسليم
العنحوري ، وجرجي زيدان ، وسعد زغلول ، ومحمد إقبال ، وعباس
العقاد ، وأحمد أمين ، وعبد الرحمن الرافعي ، ومالك بن نبي ، ومحمود
قاسم ، وفيليب دي طرازي ، وريتان ، وبراون ، وآدمز ، وبلنت ، وجولد
سيهر ... وغيرهم من العلماء والمفكرين والكتاب ؟ ! ...



لقد شاءت الصدفة ، وأنا أقرأ « دراسة » الدكتور لويس عن الأفغاني ،
أن أقرأ في صحيفة [الأهرام] - بتاريخ ١٩٨٣/٩/٢٨ م - نقلا عن
ال [ديلي تلغراف] البريطانية - أن باحثا أمريكيا ، هو الدكتور « ريتشارد
شوارتز » قد طلب الاطلاع على « ملف » العالم الرياضي - صاحب النسبية -
ألبرت أينشتاين [١٨٧٩ - ١٩٥٥ م] في « إدارة المباحث الفيدرالية
الأمريكية » .. فوجد أن تقارير المباحث تصور أينشتاين في سنوات إقامته
بأمريكا - من سنة ١٩٣٢ حتى وفاته سنة ١٩٥٥ م - في صورة « العقل المدبر

(٢٦) [جمال الدين الأسد آبادي] ص ٦٢ - ٧٥

وراء مؤامرة شيوعية تستهدف السيطرة على هوليد والمسئول عن شبكة تجسس ، تستخدم مكتبه في برلين ، لتلقى رسائل جواسيس الاتحاد السوفيتي على عنوانه إلى آخر ما في تقارير هذا « الملف » . البالغ عدد صفحاته ١٥٠٠ صفحة ؟ ! ...

ولقد تساءلت : ترى ، هل يسمح « الضمير العلمي » للذين جمعوا للدكتور لويس - في لوس انجليس - تقارير الجواسيس وملفات المباحث ، ليكتب - استنادا إليها - « دراسته » عن جمال الدين الأفغاني ... هل يسمح « ضميرهم العلمي » بكتابة تاريخ « أيشتين » استنادا إلى « ملقه » في « إدارة المباحث القيدالية الأمريكية » ؟ ! أم أن « الضمير العلمي » مسموح له أن يأخذ « إجازة » إذا ما كانت « الدراسة » عن أعلام العروبة وقادة الإسلام ؟ !

ثم تساءلت : إذا كان الدكتور لويس قد رفض السير على درب العلماء الذين كتبوا عن الأفغاني ، وارتضى لنفسه السير على درب الجواسيس ، عندما اعتمد تقاريرهم « مصادر » لـ « دراسته » ، فلم لم يرجع إلى « تقارير جواسيس الدولة العثمانية » في « محفوظات الآستانة » أيضا ؟ !

لقد شملت « محضات » السلطان عبد الحميد للأفغاني ، في سنوات إقامته بالآستانة - إلى جانب المنزل والراتب والعربة التي تذهب به إلى « منزله الكاغدخانة » - عددا من الجواسيس ... حتى لقد داعب جمال الدين السلطان يوما ، عندما طلب منه تخصيص عربة للجاسوس الذي يتبعه ، لأن الجاسوس يلهث - في حالة يرثى لها - خلف عربة جمال الدين ؟ !

فلم لم نر في « دراسة » الدكتور لويس أثرا لتقارير جواسيس السلطان ؟ ! أم أن فرط إعجابه « بالغرب » ، وازدراؤه « بالشرق » ، قد انسحب ، أيضا ، على الجواسيس ؟ !!

تشكيك .. وافتراء ! ..

كثيرون - ممن يحسون الظن بالدكتور لويس عوض - قد أفلقهم ذلك المستوى ، البالغ السوء والبين الشذوذ ، الذي بلغته « دراسته » عن جمال الدين الأفغانى ..

ولقد كتب إلى فضلاء كثيرون - لثقة أعتر بها وتقدير أفر به - يطلبون إلى جلاء وجه الحقيقة في الأمر ، بل ويستنفروننى لتقوم « دراسة » الدكتور لويس .. فالأستاذ الفاضل الدكتور الطاهر أحمد مكي - الناقد الأدبي ، وأستاذ الجامعة ، ورئيس تحرير مجلة [أدب ونقد] - يكتب إلى : « .. إن دراسة الدكتور لويس .. تثير كثيرا من التساؤلات ... ونود أن نعرف كلمة العلم .. » والكاتب الفاضل الأستاذ مصطفى نبيل - مدير تحرير مجلة [العربي] - يعبر عن الصدمة التي أصابت الأوساط السياسية والثقافية ، ذات التوجه القومي - [فما بالنا بالاسلامى ١٤] - من هذه « الدراسة » .. فيكتب إلى يقول : « أتصور أن مقالات الدكتور لويس .. قد أثارتك مثلما أثارتنا ... إنه لا يمكن أن تمر هذه المقالات بلا تعليق .. إنه ليس من المناسب أن نلوث بالوحل أحد رموز النهضة العربية الحديثة .. فلذلك تأثيرة على « المشروع العربى » .. لقد سبق واطلعت على كتيب صغير لمؤلفة يهودية ، صدر في لندن ، يردد ذات الأفكار التي يعالجها الدكتور لويس .. » ١٤ ..

بل إن [التضامن] - وهى المجلة التى قبلت أن تنشر « دراسة » الدكتور لويس - بعد أن رفضت وسائل النشر بمصر نشرها - قد أدركت ما بها من خروج على « المؤلف » ، فكتب إلى رئيس تحريرها ، الأستاذ فؤاد مطر ، فى مارس سنة ١٩٨٣ م - أى قبل صدور المجلة - يطلب إلى الكتابة لها حول « دراسة » الدكتور لويس !.. وعندما نشرت [التضامن] تلك « الدراسة » قدمت لها بما يشبه التنصل مما بها من أفكار .. فكتبت فى التقديم لها - ضمن ما كتبت - : إن الدكتور لويس « يتحمل اسمه تبعات رأيه ... ومناقشته تبدو واجبا فكريا ... » !؟ ..

ولذلك .. فإن من « الحق » ، بل ومن « الواجب » أن تتساءل عن الأسباب التى بلغت « بدراسة » الدكتور لويس عن « جمال الدين » هذا الحد من « القبح المشين » !؟ ..

وفى تقديرى أن مرجع ذلك أسباب ، فى مقدمتها :

١ - أن الدكتور لويس قد اشترك بهذه « الدراسة » فى الوصول إلى تحقيق « غرض ثأرى مبيت » .. ولم تكن « الحقيقة الموضوعية » هى هدفه . ولاهدف الذين دعوه وهياؤاله « الأوراق » التى استند إليها فى الأحكام التى أصدرها على جمال الدين .. لقد جاءت هذه « الدراسة » حلقة فى المخطط الذى يتصدى لظاهرة « الإحياء الاسلامى » ، لتبيل التراب على الرمز الذى ارتاد ، فى عصرنا الحديث ميدان هذا الإحياء ..

٢ - ولقد كان طبيعيا « لدراسة » هذا هو « غرضها » . أن تكون « مصادرها » هى « الأوراق » والتقارير والملفات « التى كتبها الجواسيس والعملاء - من موظفى « المباحث » وتلامذة الاستشراق - صهيانية وأشباه صهيانية - .. فهؤلاء ، وأمثالهم ، هم « كتبة التصدى الفكرى » لظاهرة « الإحياء الاسلامى » التى قادها جمال الدين الأفغانى ! ..

فما كان « لغرض » « الدراسة » ولا لنوعية « مصادرها » إلا أن يثمرا هذا « الشذوذ » الذي خرج به علينا الدكتور لويس - ولقد سبق « نقدنا » لهذين العاملين ، فيما تقدم من صفحات - أما القدر من « المعلومات » ، التي اطلع عليها الدكتور لويس ، والخاصة بتاريخ . جمال الدين الأفغاني وحركته الثورية التجديدية ، فلقد أفسدها - حتى يطوعها لخدمة « الغرض الثأري المبيت » .. أفسدها بما امتلأت به « دراسته » من « التشكيك » .. ومن « الافتراء » ! ٩ ..

٣ - ففيما يتعلق بـ « التشكيك » ، ولوى عنق « الحقائق » و« المعلومات » ، لتذهب فعاليتها ، بل ولتعطى الأثر المعاكس لأثرها الطبيعي .. لا أعتقد أنني قد قرأت ، من قبل ، « دراسة » بلغت ما بلغته « دراسة » الدكتور لويس ... وإذا شئنا الأمثلة على ذلك ، فلينظر معي القارئ العزيز في هذه المواطن والألوان التي سلكت أكثر الطرق « التواء » لتفضي إلى « التشكيك » فيما استقر من « حقائق » و« معلومات » عن جمال الدين الأفغاني :

● كل الأئمة والعلماء والأعلام الذين كتبوا عن الأفغاني قد أجمعوا على وضوحه وحسمه ، حتى كأنه السيف المسلول في وضوح النهار ... بل لقد تحدث الامام محمد عبده عن افتقار الأفغاني إلى « المسيرة والملاينة والكياسة » مع مخالفته وخصومه .. وانتقد هذا الجانب في طبع أستاذه . فقال - بعد الحديث عن إيجابيات طبعه - : « .. إلا أنه كان حديد المزاج . وكثيرا ما هدمت الحدة مارفَعته الفطنة .. » (١) « ٩ ..

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٥٢ .

والأفغانى ذاته يحدثنا حديث الرفض « للتقية » - التى تجعل المرء يظهر غير ما يبطن لدواعى براها - والداعى إلى الجهر بالرأى . مهما كانت المخاطر . ومهما تكن الظروف والملايسات .. يحدثنا الأفغانى عن رأيه فى هذه القضية فيقول : « لا أرى فى هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتماناً لازماً إلا ما كان فى علانيته شيئاً ومعرفة . ولا يكون الكمال النسبى فى البشر إلا متى كثر إعلانهم وقل كتمانهم . فدولة تكتم عن أمنها كل أمورها لا خير فيها . ولاهى بالدولة الأمينة من أمانتها وحسن تصرفها . ورجل يرى كل شىء يقال له . أو يجب أن يقوله سرا مكتوباً . لا يرجى إلتفافه . وما هو بالرجل الرجل . ولا يشبه رجل . [ومن أحب فليعلن] . والمحبة هنا على مطلق المعنى . لكل شىء حق ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات .. (٢) » .

لكن الدكتور لويس يأتى إلا أن « يشكك » فى هذه الصفة من صفات الأفغانى .. فيهمته « بالغموض » و« التقية » و« ازدواج الشخصية » بل وتعددتها .. فيقول : « لقد انتشرت « التقية » بين الشيعة .. ونشأ الأفغانى فى هذه التقاليد التى جعلت منه مزدوج الشخصية بل ومتعددتها . يفصل الكلام والتعاليم بحسب من يخاطبه وبحسب ظروف الزمان والمكان » (٣) .

والدكتور لويس يستعين . هنا . بالخلط لكى يصل إلى « التشكيك » و« التشويه » ! ... ذلك أن الفرق بين والبعد شاسع بين « التقية » وازدواج الشخصية وتعددتها وبين مراعاة حال المخاطب ووضع ظروف الزمان والمكان فى الحسبان .. فرسولنا . عليه الصلاة والسلام يقول : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » ! .. ولقد استقر واشتهر فى تراثنا الفكرى أن

(٢) [الأعمال الكاملة لحال الدين الأفغانى] ص ٥٣٦ .

(٣) [التضامن] العدد ٢ ص ٧٠ .

« وحدة الحقيقة » لاتمنع تعدد أساليب الوصول إليها ولا تعدد أساليب إيلاغها إلى الآخرين ، وأن تعدد المستويات الفكرية للناس قد اقتضت وتقتضى تعدد وتنوع سبل البلاغ .. فهناك - كما تحدث ابن رشد - السبل « الوعظية » و « الجدلية » و « البرهانية » ، التي تختص كل واحدة منها بنوعية من المخاطبين ! .. فأين هذه من « التقية » والباطنية .. وازدواج الشخصية « ؟ ! .. وأين « تشكيك » الدكتور لويس من « الوضوح والحسم » الذي تميز به طبع جمال الدين ؟ ! ..

● ولقد كانت حياة الأفغانى ودعوته وحركته التجسيد لمقاومة الشرق للعاصفة الاستعمارية التي هبت من الغرب فرحفت على وطن العروبة ودول الشرق وعالم الاسلام .. والذين قرأوا وبقروا كتاباته ، وخاصة في [العروة الوثقى] ، يرون وضوحا في الهدف ، وخبرة ممتازة بصراعات السياسة الدولية وتناقضات أقطابها ، ومحاولة واعية ودائية للاستفادة من هذه التناقضات لدفع الآثار المدمرة لعاصفة الاستعمار عن وطن العروبة وعالم الاسلام . ولتحقيق « الدولة النموذج » ، التي تهض بالثقافة الاسلامية ، وبثمرات العلم الحديث . فتستقطب شعوب الشرق ودوله في مواجهة التحديات ..

تلك كانت رسالة جمال الدين في الحياة .. تجلوها كتاباته .. وتؤكدها نضالاته .. ويجمع عليها أنصاره وأعداؤه دون استثناء ! ..

... لكن الدكتور لويس عوض يأتي « ليشكك » في هذه الحقيقة . فيجرد قلمه من كل آثار الدقة . بل والأمانة . ليحكم على الأفغانى - حيناً - بأنه كان « محامي روسيا في السياسة الأفغانية » ! ... - وحيناً آخر - بأنه « أثناء وجوده في كلكتا - [بالهند] - عرض خدمته على الحكومة البريطانية . ولكنها اعتذرت عن قبولها . مع الشكر ! .. »

ورغم أن الدكتور لويس - فيما يتعلق بالاتهام الأول - يستند إلى « قصاصة ورق » كتبها جاسوس أفغانى يعمل لحساب الانجليز عن من يسميه « السيد الرومى » - الذى لا دليل على أنه جمال الدين الأفغانى !... ورغم دعوة الدكتور لويس إلى الحيلة والحذر فيما يتعلق بتقارير الجواسيس عن خصوم الاستعمار .. إلا أنه لا يتورع عن استخدام « أداة التوكيد » : « إن » ، واستخدام كلمة : « بوضوح » ، ليؤكد نسبة الاتهام إلى الأفغانى ، فتقول عبارته : « إن الأفغانى كان بوضوح محامى روسيا فى السياسة الأفغانية » .. ثم يحمى ليدعم هذه التهمة بقوله : « إن بعض تصرفاته الغامضة المريبة تدعمها ! » .. وذلك دون أى ذكر لأى تصرف من هذه التصرفات « الغامضة والمريبة » ؟!...

بل إن الدكتور لويس يوغل فى سبيل « التشكيك » ، حتى يبلبل قارئه فتضع من ذهنه « الحقيقة » ضياعا كاملا . يوغل فى ذلك إلى الحد الذى يجعله « يشكك » فى عمالة الأفغانى للروس ، ولكن بالإنجاء بعالته للعثمانيين !... فيقول : « إننا قد انتهى إلى أن جمال الدين كان فى نهاية الأمر يخدم مصالح الخلافة العثمانية . منسقا كفاح مسلمى آسيا الوسطى .. بما يمكن مستقبلا من وحدة العالم الاسلامى تحت الخلافة العثمانية » !...

إن الهدف هو « التشكيك » فى عداة الأفغانى للاستعمار .. ولما كان إنكار « حقيقة » عداة للاستعمار سيجد مقاومة لدى القارئ ، فليكن « التشكيك » هو السبيل لإغراق « الحقيقة » فى بحر من « الاحتمالات » . من مثل تلك التى تحملها عبارات الدكتور لويس عن الأفغانى : « هل كان حقا عميلا للروس ، كما توحي الوثائق البريطانية ؟ .. أم أنه كان مجرد سياسى فاشل . و » رفيق طريق « يرى أنه لا خلاص للمسلمين من يرائن الانجليز إلا بالتعاون مع روسيا ؟ .. أم أنه كان مثاليا حالمًا يخطط لاستقلال الهند المسلمة

وروسيا المسلمة ويحاول أن يمهّد . بالعمل السياسى وبالفكر . لوحدة
إسلامية كبرى !؟ ..

تشكيك .. واحتمالات .. وعلامات استفهام .. هدفها طمس حقيقة
عداء الأفغانى للاستعمار ! ..

أما فيما يتعلق « بالانتقام » الثانى - سعى الأفغانى ليعرض خدماته على
الانجليز - .. فرغم أن « مصدر » الدكتور لويس هو « إشارة » فى تقرير
جاسوس انجليزى كتب عن الأفغانى لحكومة الهند الانجليزية سنة
١٨٩٦ م .. ورغم أن هذه « الإشارة » لا تحدد طبيعة هذه « الخدمات » ..
فإن الدكتور لويس يتطوع « بالتكهن » - أى والله « بالتكهن » - فيقول :
« .. ونستطيع أن نتكهن بأن الخدمة التى عرضها الأفغانى على الحكومة
البريطانية ، فى الهند ، هى أن تعيده إلى مصر لإطفاء الثورة العربية وتأييد
الحديوى توفيق .. » (١) !؟ ..

يتكهن الدكتور لويس هذا التكهن .. بالرغم من سبيل الحقائق
والمعلومات التى تواترت عن عداء الأفغانى للاستعمار الانجليزى فى كل
مكان .. وبالرغم مما كتبه الكتائبون عن هذا العداء الذى بلغ حدا جعل
البعض يظن أنه عداء « لجنس الانجليز » . فسألوا الأفغانى عن ذلك .
فحدد أنه موجه للاستعمار الانجليزى ، لا للأمة الانجليزية (٢) !؟ .. بل
ورغم النصوص التى أوردها الدكتور لويس نفسه فى « دراسته » ، نقلا عن
« بليت » وعن السياسة الانجليز ومراسلى جريدة « التايمز » الانجليزية ، وكلها

(٤) [النضام] العدد ٤ ص ٧٦ . ٧٨ . والعدد ١٥ ص ٦٦ .

(٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

تؤكد عداء الأفغانى للاستعمار الانجليزى ومحاربتة له فى كل البلاد وفى جميع
الميادين ! ..

إن الدكتور لويس يوغل فى « درب التشكيك » إلى الحد الذى يجعله
يذكر الشىء ونقيضه ، ليبلبل القارئ فى « الحقيقة » حقيقة عداء الأفغانى
للاستعمار ..

ففيما يتعلق بخلع الخديوى اسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ - ١٨٣٠ -
١٨٩٥ م] عن عرش مصر سنة ١٨٧٩ م .. ينقل الدكتور لويس عن أديب
اسحق أن هذا « الخلع » كان قد تقرر من قبل انجلترا وفرنسا والدولة
العثمانية .. وأن سعى جمال الدين الأفغانى ، على رأس [الحزب الوطنى]
المصرى إنما كان ليخلف الأمير « توفيق » - الذى كان يبدى ميله للعالم
الأفغانى - أباه « اسماعيل » ، بدلا من الأمير « حلم » - الذى كان مع
فرنسا - .. ينقل الدكتور لويس هذا .. ثم يعود فيتهم الأفغانى بأنه هو الذى
« قاد شرذمة من أعضاء الحزب الوطنى ، من الاصلاحيين المحافظين المواليين
لمحور تركيا - انجلترا ، فعجل بالاجهاز على اسماعيل ، وعلى انتفاضة الوطنية
الدستورية ، زائفة كانت أم مخلصه .. » (٦) ١٩ !

فكيف يتهم [الحزب الوطنى] بأنه هو الذى عجل بالاجهاز على
الخديوى اسماعيل .. مع الاعتراف بأن « الخلع » كان قد تقرر ، قبل تحرك
[الحزب الوطنى] ١٩ .. ومع الاعتراف بأن هذا التحرك كان خاصا بمن
يخلف اسماعيل ١٩ .. ثم ما هي حيثيات اتهام [الحزب الوطنى] بالمحافظة ،
وموالاة محور « تركيا - انجلترا » ١٩ .. أليس هذا هو حزب « مصر
للمصريين » ١٩ .. وحزب الثورة العرابية ١٩ .. أليس هذا الحزب هو عدو

(٦) [التضامن] العدد ٧ ص ٦٣ - ٦٤ .

التدخل الأجنبي في مصر - والذي كان انجليزيا في الأساس !؟ ...
 وفيما يتعلق بموقف الأفغانى من الاستعمار الانجليزى ، أثناء إقامته بالهند ،
 بعد أن تسبب الانجليز في نفيه من مصر سنة ١٨٧٩ م .. يتهم الدكتور لويس
 الأفغانى بمهادنة الانجليز .. « وبأن نشاطه لم يكن فيه ما يغضبهم أو يلفت نظر
 جواسيسهم » - ولقد سبقت إشارتنا إلى اتهامه له بعرض خدماته
 عليهم ! - .. لكنه يعود فيعترف - عندما يتقل عن « بلت » - أن آراء
 الأفغانى المعادية للانجليز لقيت « انطباعا حسنا » عند الزعيم الاسلامى عبد
 اللطيف .. وأن وضوح هذه الآراء وحدة هذا العداء قد بلغا إلى الحد الذى
 جعل « مولاي عبد اللطيف يخاف على نفسه من لقاء الأفغانى مخافة غضب
 الانجليز .. » ؟ ! ..

وبعد أن يعترف الدكتور لويس - نقلا عن « كتاب القاضى عبد
 الغفار » - أن « الانجليز قد وضعوا الأفغانى تحت المراقبة .. وأنه كان محدد
 الإقامة .. » يعود فيشكك في الهدف من نفيه إلى الهند ، أثناء صراع الانجليز
 ضد الثورة العرباية . فيقول : « أما لماذا سمح الانجليز للأفغانى أن يقيم في
 الهند . بعد أن طردوه من مصر ، فأمر غير مفهوم . فقد كان في إمكانهم أن
 يشحنوه - [كذا !] - إلى بلاده في إيران . ربما ليضعوه تحت المراقبة . أو
 ربما لأنه موصى عليه من الباب العالى ، صديق الانجليز في تلك
 الفترة » (٧) ؟ ! ..

لقد نقل ما يؤكد عداء الأفغانى للانجليز عندما كان منفيا بالهند .. وكيف
 كان هناك مراقبا محدد الإقامة .. ثم عاد ليشكك في الموضوع . وليؤهم
 القارئ بأن الأمر كان مجرد مسرحية مثلها الانجليز مع الأفغانى . تنفيذ الوصية

(٧) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٤ . ٦٥ . ٦٦

صديقهم - « في تلك الفترة » - السلطان العثماني ! .. وذلك دون أن يسأل الدكتور لويس نفسه : هل كان السلطان العثماني صديقا للانجليز في الفترة التي كانوا يتزعون فيها مصر ١٢ .. وهي التي فجر احتلالها كل تناقضات العثمانيين مع الانجليز ١٣ ..

بل ويمضي الدكتور لويس ليعلل أسباب نفي الانجليز جمال الدين الأفغاني من مصر إلى الهند ، فيكشف لنا ، لا عن « تناقضه » فقط ، بل وعن « قلة في المعلومات » . نستحي أن نسميها « جهلا بأبسط الحقائق والمعلومات » ١٤ .. يقول : « وفي تقديرى أن قرار الانجليز بإبعاد الأفغاني إلى مصر يرجع إلى عاملين :

- ١ - أنهم أدركوا أن الأفغاني يعمل لحساب الباب العالي مباشرة .
- ٢ - أن الأفغاني خرج من حلقات المثقفين والمناورة مع سادة البلاد إلى خط جديد منسق غالبا مع « تركيا الفتاة » وإصلاحى تركيا . يقوم على الإرهاب المتمثل في مؤامرات الاغتيال ، وعلى تحريك الشارع . على غرار ماكانت تفعله الجمعيات السرية المألوفة في أوروبا في ذلك الزمان (القوضويون . والتهيلست) .. » (٨)

ونحن نقول : إن الدكتور لويس لو كان يحترم الحقيقة . ويحترم عقل قارئه لما كتب ماكتب ..

(أ) لقد سبق وحكم أن نفي الأفغاني إلى الهند كان بتوصية من الباب العالي لأصدقائه الانجليز .. ثم هاهو يذكر أن النفي قد حدث لأن الانجليز قد أدركوا أنه يعمل لحساب الباب العالي مباشرة . وفي مكان آخر أورد نص تقرير القنصل الانجليزى بالقاهرة ، الذى يتحدث فيه عن حادثة النفي .

(٨) [التضامن] العدد ٨ ص ٦٢

وفيه يقول : « إن الأفغانى قد حظروا عليه الإقامة فى أى من أجزاء
الامبراطورية العثمانية » ! ^(٩) فكيف تتفق هذه المناقضات الثلاث ١٢

(ب) وهو يذكر أن الأفغانى يعمل لحساب الباب العالى مباشرة .. ثم
يذكر ، فى ذات الفقرة ، أنه يعمل مع « تركيا الفتاة » وإصلاحى
تركيا .. ويغفل ، أو يتغافل عن أن « تركيا الفتاة » وإصلاحى تركيا
« هؤلاء هم أعداء الباب العالى » الذى قال إن الأفغانى يعمل مباشرة
لحسابه ١٢ ..

(ج) والدكتور لويس يتحدث عن نفى الأفغانى من مصر سنة
١٨٧٩ م . ويعلمه بتنسيق الأفغانى مع « تركيا الفتاة » ، وذلك دون أن
يكلف نفسه مؤونه سؤال أهل الذكر عن تاريخ نشأة « تركيا الفتاة » ١٣ ..
تلك التى بدأت جنينا فى صفوف الطلاب الأتراك فى جنيف سنة ١٨٩١ م -
فى رأى أوى سنة ١٨٩٤ م - فى رأى آخر - ثم هى لم يعرف لها نشاط داخل
الدولة العثمانية إلا فى العقد الأول من القرن العشرين .. أى بعد وفاة جمال
الدين الأفغانى بسنوات طويلة ^(١٠) .. فكيف نسق الأفغانى نشاطه ، أثناء
إقامته بمصر - فى سبعينات القرن التاسع عشر - مع جماعة هى من ثمرات
القرن العشرين .. عندما كان فى رحاب مولاه ..

(د) كذلك لم يسأل الدكتور لويس نفسه - ولو من باب الاحترام لعقل
القارئ - كيف يكون التنسيق بين دعوة « الجامعة الاسلامية » - التى هى -

(٩) [التصامن] العدد ١ ص ٥٥ .

(١٠) قليب حتى [تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين] ج ٢ ص ٣٥٠ طبعة بيروت سنة

١٩٥٨ م . ولوتسكى [تاريخ الأقطار العربية الحديث] ص ٣٩٤ طبعة موسكو سنة

١٩٧١ م .

كما يقول - الخط الأصيل في تفكير الأفغانى السياسى ^(١١) - .. وبين دعوة
« تركيا الفتاة » ، التى تعنى سيطرة القومية الطورانية على دولة الخلافة ؟ ..
كيف ، بالله ، يمكن أن يتم هذا التنسيق ، على فرض المستحيل ، وهو وجود
« تركيا الفتاة » فى عصر جمال الدين ... !

● ولما كان شهود العصر وأئمنه ومؤرخوه وعلماؤه الأعلام قد أجمعوا على
امتنياز جمال الدين وتفردّه وتمييزه ، فى كل موطن عاش وناضل فيه .. فلقد
شق الدكتور لويس على نفسه وعلى الحقيقة وعلى قرائه كى « يشكك » فى
قيمة وأهمية جمال الدين ! ..

(أ) فالمحاضرة التى ألقاها الأفغانى عن « الصناعات .. وفلسفتها » فى
(دار الفنون) بالآستانه ..

والتي سببت أزمة عنيفة مع « مشيخة الاسلام » العثمانية ، انتهت بنفى
جمال الدين من عاصمة الدولة العثمانية ... هذه المحاضرة - وما أحدثته من
أحداث وجدل وصراع - يتفه الدكتور لويس من شأنها ، فيقول : « وغير
صحيح بأن محاضراته الثورية ، مسببة الأزمة ، أقامت الدنيا وأقعدها - كما
صور - وإنما كانت مجرد فقاعة فى الجو الثقافى التركى سرعان
ما انفثت .. » ! ..

ونحن إذا جعلنا « دراسة » الدكتور لويس مصدرنا الوحيد ، وذهبنا
نجمع منها الآثار وردود الأفعال التى أحدثتها هذه المحاضرة .. فسنبجد :

١ - أن شيخ الاسلام العثمانى حسن أفندى فهمى قد طلب من الصدر
الأعظم على باشا إصدار الأمر بطرد الأفغانى من البلاد .. ولقد استجاب
الصدر الأعظم لذلك فصدر أمر الطرد ..

(١١) [التضامن] العدد ٦ ص ٦٨ .

٢ - أن أمرا سلطانيا صدر من السلطان عبد العزيز [١٢٤٥ - ١٢٩٣ هـ ١٨٣٠ - ١٨٧٦ م] بفصل جمال الدين الأفغاني من « مجلس المعارف » العثماني .. وبفصل مدير الجامعة - [دار الفنون] - تحسين أفندي كذلك !..

٣ - أن لجنة من هيئة كبار العلماء قد شكلت لإصدار الحكم على الأفغاني وإصدار الفتوى بحكم « الشرع » - كما تراه مشيخة الاسلام العثمانية - في محاضرته .. وأن رأى هذه اللجنة وحصيلة مداولاتها قد صدر - في صورة كتاب عنوانه [السيوف القواطع] ، وعليه اسم أحد أعضائها - خليل فوزي - في سنة ١٨٧٢ م .. وفيه حديث عن مهمة اللجنة ، التي تشكلت للرد على « زندقة » الأفغاني .. وعن الكتاب ، الذي هو ثمرة لمداولاتها ، والذي كتب تنفيذا لأوامر الخليفة السلطان لنصرة الدين وتسفيه « الفلاسفة الحقراء » .. والنتيجة التي وصل إليها « شيوخ الرجعية العثمانية » هي أن الأفغاني مرتد ، وإذا لم يعلن توبته فقد حق قتله ١٩ ..

٤ - أن الصحافة الأوروبية في استانبول - وليس التركية والعربية فقط - قد خاضت عذاب المعركة التي أثارها هذه المحاضرة (١٢) ..

٥ - وأخيرا .. استمرت هذه المحاضرة تثير ردود الأفعال ، فيكتب الشيخ مصطفى المغربي رسالة عنوانها : [عين الصواب في الرد على من قال إن الرسالة والتبوة صنعتان تئالان بالاكْتِسَاب] يشير إليها ابنه الشيخ عبد القادر المغربي - تلميذ الأفغاني - الذي برأ الأفغاني مما اتهمه به أبوه (١٣) ١٩ ! يذكر الدكتور لويس كل هذه الوقائع التي مثلت أحداثا وردود أفعال

(١٢) [التضمن] العدد ٥ ص ٦٨ - ٧٠ .

(١٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ج ١ ص ٣٢ .

لمحاضرة الأفغانى عن « الصناعة وفلسفتها » .. لكنه .. كى « يشكك » فى أهمية الأفغانى ويقلل من قدره . يقول عنها إنها « مجرد فقاعة فى الجو الثقافى التركى سرعان ما انفثأت .. » ١٩ .. ترى ماذا كان يريد لهذه « المحاضرة » أن تصنع . حتى لا تكون « مجرد فقاعة » ٢٠ .. هل كان يريد لها أن « تقلب نظام الحكم فى دولة آل عثمان » !! ٢١ ..

● والدكتور لويس عوض يذكر فى « دراسته » : « إجماع محمد عبده وأديب إسحق وسليم العنحورى وجرجى زيدان ، وعامة معاصرى الأفغانى . من المصريين وأبناء البلاد العربية على ثلاثة أشياء :

الأول : هو دور الأفغانى الكبير بين المثقفين والعامة فى خلع الخديوى اسماعيل ..

والثانى : هو دور الأفغانى الكبير بين المثقفين فى التمهيد للثورة العربية ..
والثالث : هو دور الأفغانى الخاص فى حركة التحرير المصرية ، إلى جانب دوره العام فى حركات التحرير الاسلامية فى مواجهة الاستعمار البريطانى على وجه التخصيص .. » (١٤)

يذكر الدكتور لويس هذا الإجماع على أهمية دور الأفغانى وتقديره وامتيازه وريادته فى هذه الميادين .. وهو إجماع شهود العصر ورجالاته وأعلامه الذين عاصروا الأفغانى ، بل وشاركوه صنع الكثير من الأحداث فى هذه الميادين .. لكن الدكتور لويس يمتضى على درب « التشكيك » متوهما القدرة على هدم هذا « الإجماع » ! ..

ونحن نعلم أن « الشك » فيما أجمع عليه علماء عصر من العصور أو اتفق عليه مفكروه ليس منكرا من القول ولا زورا .. فـ « الشك

(١٤) [التضامن] العدد ٧ ص ٦٢

المنهجى » ، الذى هو طريق الفكر إلى « اليقين » أمر مشروع ، بل
ومطلوب .. لكن الذى صنعه الدكتور لويس كان شيئا مختلفا ومخالفا .. إنه
« الشك العبثى » .. بل « التشكيك » الذى بلغ حد الهدم والنقض
للحقائق التى اضطّر الدكتور لويس ، أحيانا ، إلى الاعتراف بها أو إلى
إيرادها إذا كانت منصفة لسيرة جبال الدين ؟ ! ..

(أ) فى حديثه عن خطبة الأفغانى بقاعة « ريزينيا » بالاسكندرية ،
يذكر أن « أهم ما جاء فى هذه الخطبة هو :
إبراز الأفغانى لدور « القوميات » فى نهضة الأمم ..
وإدائه للتعصب الدينى ..
واستبداد الحكام ..
ودعوته لإنشاء تنظيم سياسى . هو الحزب الوطنى . ليحمى النظام
النبائى ..
ودعوته لحرية الاجتماع . وحرية الصحافة ..
وتعليم المرأة ..
والأخذ . عامة . بأسباب القوة والتقدم فى الحضارات الأجنبية .. (١٥)
هذا هو تلخيص الدكتور لويس لمحاضرة الأفغانى فى « ريزينيا » ..
والذين يتأملون هذه « المحاور » التى دارت حولها هذه الخطبة لا يد مدركون
لمبلغ ثورتها وتقدميتها ، بمقاييس مجتمعاتنا المعاصرة . فما بالنا بهذه
الاجتماعات فى سبعينات القرن الماضى .. أى منذ أكثر من قرن من
الزمان ؟ ! ..

لكن الدكتور لويس . بعد ذكره لأفكار الأفغانى الثورية هذه ، يعود :

(١٥) [التضمن] العدد ٩ ط ٥٩ .

في الصفحة التالية من « دراسته » ، لينق عن الأفغانى شرف « الثورية » ، بل وليتهم « بالاندماج في الحركات الوطنية والتقدمية المصرية كي يحكم جنوبها إلى التطرف الراديكالى ... » (١٦) !

وهنا تساءل : أية « راديكالية » تلك التى تتجاوز - فى مثل تلك البيئة وذلك التاريخ - ذلك « البرنامج الثورى » الذى طرحه جمال الدين ! ؟ ... ولكنه « التشكيك » ! ... !

(ب) وإذا كان المؤرخون قد أجمعوا - ومن قبلهم زعماء الثورة العربية وخصومها - على دور الأفغانى فى التمهيد لهذه الثورة ، إن فى الفكر أو فى تربية القيادات التى فجرتها وقادتها .. فإن الدكتور لويس يذهب فى « التشكيك » بهذه الحقيقة لا إلى حد إنكارها فقط . بل وإلى محاولة إثبات نقيضها ! .. يقول : « غير صحيح ما يقوله محمد عبده وغيره من أن دور الأفغانى فى تحريك الفكر المصرى كان أهم عامل فى إشعال الثورة العربية بل على العكس من ذلك ، لقد أدت أفكار الأفغانى العثمانية إلى استقطاب ذلك الجناح المحافظ بين مجاهدى الحزب الوطنى الحر ثم مجاهدى الثورة العربية بما أحبط الثورة العربية بتوجيهها فى مسارات دينية بدلا من تعميق جذورها المصرية » (١٧) ! ؟

إنه يحمل الأفغانى مسئولية فشل الثورة العربية ، بدلا من الغزو والاحتلال الانجليزى الذى حارب جيش الشعب بقيادة عراقى وهزمه مستعينا بالخيانة ! .. بدلا من إلقاء المسئولية ، فى فشل الثورة ، على الانجليز والخونة . يذكر عبارة غامضة تجعل الفشل ناتجا عن « توجيه الثورة فى

(١٦) [التضامن] العدد ٩ ص ٦٠ .

(١٧) [التضامن] العدد ٩ ص ٥٨ ، ٥٩ .

مسارات دينية بدلا من تعميق جذورها المصرية !..

وهنا لا بد من التساؤل : ماهي « هذه المسارات الدينية » ؟
إننا نعلم أن الثورة العراقية قامت وهزمت وهي ترفع شعار : « مصر
للمصريين » ... بمعنى : العداء للتدخل الأجنبي والنهب الخارجي ، الذي
كان أوربيا في الأساس .. وهذا هو جوهرها ومحتواها الوطني .. وأنها قامت
وهزمت وهي مخصصة للحرية والديمقراطية والدستور .. وهذا هو جوهرها
ومحتواها الديمقراطي .. وأنها قد قامت وهزمت وهي مجسدة لأروع صور
« الوحدة الوطنية » بين طوائف الأمة ومذاهبها الدينية .. في « المجلس
العربي » .. برلمان الأمة النائرة - قد ضم أربعائة من قادة الأمة ، بينهم كل
المثليين الروحانيين لجميع الطوائف الدينية ، مسلمين ومسيحيين - بكل
طوائفهم - ويهود^(١٨) .. و« البند » الخامس في برنامج [الحزب الوطني
الحري] - حزب الثورة العراقية - يتحدث عن « الوحدة الوطنية » لأبناء
الأمة ، على اختلاف عقائدهم الدينية ، فيقول : « الحزب الوطني حزب
سياسي ، لا ديني - [بمعنى أنه غير طائفي ، وليس بمعنى أنه ضد
الدين !] - فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب ، وجميع
النصارى واليهود ، وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه ،
لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ، ويعلم أن الجميع إخوان ، وأن حقوقهم
في السياسة والشرائع متساوية .. وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الأزهر
الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة المحمدية الحقنة تنهى عن
البغيضاء ، وتعتبر الناس في المعاملة سواء .. »^(١٩) !

(١٨) سليم نقاش [مصر للمصريين] ج ٥ ص ١٣٠ طبعة الاسكندرية سنة ١٨٨٤ م .

(١٩) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ١ ص ٣٦٩ .

فإذا علمنا أن الذي صاغ هذا البرنامج هو الشيخ محمد عبده ، تلميذ الأفغانى ومريده .. زاد التساؤل إلخاذا عن ذلك « الجناح المحافظ » - فى الحزب الوطنى - الذى يقول الدكتور لويس إنه - تبعاً للأفغانى - قد قاد الثورة العرابية إلى « المسارات الدينية التى أحبطتها » ١٤ ..

لكنه « التشكيك » فيما غدا ، فى تاريخنا ، بديهيات مثلت وتمثل صفحات مشرقة فى ذلك التاريخ ..!

بل إن الدكتور لويس يذهب ، على هذا الدرب ، إلى حدود « الافتراء » على الأفغانى افتراء يستفز كل صاحب ضمير .. إنه ينهم الرجل - الذى كان متعباً ، محدد الإقامة ، ومراقباً من قبل الانجليز ، بالهند - أثناء الثورة العرابية - ينهمه بالمسؤولية عن « المنشور السلطانى » الذى أعلن « عصيان عرابى » فى سبتمبر سنة ١٩٨٢ م ١٤ ..

يقول الدكتور لويس - فى فقرة لم تنشرها [التضامن] ، ورجعنا فيها إلى أصل « دراسته » ص ١٠٧ - : « ومن يدرس تاريخ الثورة العرابية يعرف أن « منشور العصيان » .. وإعلان خروج عرابى ورجاله من الملة والدين . حين كانت جيوش الانجليز تطرق أبواب القاهرة كان من طبيعة الأشياء التى كان الأفغانى يدعو إليها .. » ١٤ ..

أما كيف ؟ .. فلا يذكر الدكتور لويس أية حثيثات لهذا « الافتراء » ١٥ .. وهنا نتساءل : هل الرابطة - رابطة الجامعة الاسلامية - التى أرادها الأفغانى بين مصر وبين الخلافة العثمانية - كانت من أجل مواجهة الاستعمار الأوربى - الذى تصدت له الثورة العرابية - ؟ أم أنها كانت من أجل تسهيل مهمة هذا الاستعمار - كما حدث ووظف له « منشور العصيان » ١٦ .. وإذا كان الدكتور لويس لم يقرأ نص « منشور العصيان » - كما يبدو - أو

قرأه ثم أضاف إليه من عنده.. فإننا نقول له : إن « المنشور » لم يذكر « خروج عرابي ورجاله من الملة والدين » .. وإنما ذكر - في البند الخامس - عبارة « بناء على ما تقدم ، يحسب عرابي ياشا وأعوانه عصاة ، ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية ^(٢٠) » .. ونحن إذا نحن « الغباء السلطاني والتخاذل العثماني » جانيبا ، أبصرنا دور « الخداع الانجليزي » في صدور هذا المنشور .. فلقد كان إعلان شريطا انجليزيا لدخول الجيوش العثمانية لمصر ، كبديل للجيش الانجليزي .. فلما صدر المنشور ، فأضعف موقف عرابي والثورة ، تشددت الخلقا في شروطها ، بأن طلبت عدم دخول الجيوش العثمانية إلى الاسكندرية وبورسعيد والسويس ، وبقاءها في دمياط ورشيد وأبي قير ، بل وطلبت أن تكون قيادة الجيوش العثمانية للجنرال الانجليزي « ولسلي » !!.. ولقد رفض السلطان الشروط الانجليزية ، فلم يتم الاتفاق ، واستفاد الانجليز من « منشور العصيان » ، وتجاوزوا ظرف السماح بالتدخل العثماني كي لا يكون بديلا لاحتلالهم مصر .. ولقد تعللت الخلقا بأنها ضببطت كتابا مرسلا من السلطان إلى عرابي ، وأعلنت أن العلاقات لم تزل مستمرة بين عرابي والامانة ، بالرغم من مناداة السلطان بعصيان عرابي ورجاله .. وقالت « التابز » الانجليزية : « إن هذا الكتاب لو نشر لكان له تأثير عظيم ^(٢١) » !!..

فهو . إذن . « الغباء السلطاني والضعف العثماني » و « الخداع الانجليزي » - وليس فكر جمال الدين الأفغاني - المسئول عن « منشور العصيان » !..

(٢٠) [مصر للمصريين] ج ٥ ص ٢٠١ .

(٢١) [مصر للمصريين] ج ٥ ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

ثم .. ألم يقرأ الدكتور لويس ما كتبه الأفغانى فى [العروة الوثقى] إداة
 لهذا المنشور ١٩!.. لقد كتب يقول : « إن على الدولة العثمانية أن تذكر أنه
 لولا فرمانها بعصيان عراى لما سهل للانكليز أن يدخلوا أرض مصر ، ولا
 أصابوا هذه الغنيمة باردة ، فلتنظر إلى قوتها ونفوذها ، وتلاحظ أن الحل
 على من عقد ، والعقد على من حل .. وعليها ألا تغفل عن النمسا وشرها ،
 والروسيا وطمعها ، وفرنسا وآمالها ، فن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة
 تدعو الأقران إلى التسابق فى الأطلاع ، وإذا فرط متساهل فى ملته فلن يجد
 منهم فيما بعد عوناً » ١٩!.. (٢٢)

وإذا كان الدكتور لويس لم يقرأ هذا الذى كتبه الأفغانى إداة - منشور
 العصيان - فلم لم يتأمل ما أورده هو ، فى « دراسته » ، نقلا عن
 « بلنت » ، الذى ذكر أن جمال الدين قد وضع - فى مفاوضاته مع الانجليز
 لإنقاذ « غوردون » المحاصر من قبل مهدي السودان فى الخرطوم ، ولحل
 المشكل السودانى - قد وضع ضمن شروطه شرط « إعادة عراى من المنفى »
 إلى مصر (٢٣) ١٩!..

ولكنه « التشكيك » ، الذى يغفل - بل ويتغافل - عن الحقائق ، حتى
 يصل إلى حد « الافتراء » ..!

(ج) فإذا ما تعلق الأمر بالمكانة العامة للأفغانى بمصر ، وبدوره القيادى
 فى مجتمعها أثناء إقامته بها ، لم يتوان الدكتور لويس عن الاسراع للتهوين من
 شأن الرجل .. فهو يورد فقرات من التقرير الذى كتبه القنصل الانجليزى
 بمصر « السير فرانك لاسيلز » إلى وزير خارجيته اللورد سالسبورى ، فى ٣:

(٢٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى] ج ٢ ص ٦٨

(٢٣) [التضامن] العدد ٢١ ص ٦٢

أغسطس سنة ١٨٧٩ م بخصوص نقي الأفغانى من مصر... فنقرأ فيه - وصفا للأفغانى - هذه العبارات : «... وجمال الدين ، فيما يبدو ، رجل ذو طاقة ضخمة وصوله كبيرة كخطيب ، وقد استحوذ تدريجيا على قدر من التأثير فى سامعيه فكان مصدر خطر . وفى العام الماضى قام بدور إيجابى فى إلهاب الشعور المعادى ضد الأوربيين . وبصفة خاصة ضد الانجليز ، الذين يحمل لهم كراهة عميقة .. إن جمال الدين سبق نفيه من وطنه . ومن مدراس . ومن مدينة الجزائر ، ومن استانبول على التعاقب . وقد حضر عليه الإقامة فى أى جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية... »

تلك هى صورة الافغانى ، كما صورها القنصل الانجليزى .. وهى صورة القائد الذى يقود الأمة ، والذى يتناصبه الاستعمار وتناصبه الرجعية العداء الشديد ، إلى الحد الذى جعلوا حياته نفيًا وتشريدا دائما .. ومع ذلك نجد الدكتور لويس يعقب على هذه الأقوال - لافض فوه .. ولاحرمانا من « أمانته » - فيقول : « ماذا نستخلص من كل هذه الأقوال ؟ نستخلص أن جمال الدين الأفغانى ، فى قمة نشاطه فى مصر سنة ١٨٧٩ م لم يكن علما من أعلام البلاد أو زعما بارزا المكانة فى الحياة المصرية .. » (٢٤) !؟

تلك هى « الخلاصة » التى « استخلصها » الدكتور لويس من تقرير القنصل الانجليزى عن جمال الدين !..

(د) وحتى « الذمة المالية » للأفغانى لم تسلم من « تشكيك » الدكتور لويس !..

إن الذين عاصروا الأفغانى وعاشروه قد أجمعوا على أنه قد عاش « درويشا فقيرا » لا يقيم وزنا لعرض الدنيا ، حتى لقد عدل عن أن يصحب

(٢٤) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥ .

معه زداء بديلا . بعدما تكرر نفيه من بلد إلى بلد . فكان إذا خلقت ثيابه استبدلها بأخرى ! .. وكتب الإمام محمد عبده عن هذا الجانب من حياته فقال : « .. وهو كرم يبدل مايبده .. عظيم الأمانة .. قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور . عزوف عن صغارها . شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ! .. » ولقد قرأ الدكتور لويس هذا الوصف .. وأورده في « دراسته » .. ولكنه سلك - هنا أيضا - سبيل « التشكيك » في « الذمة المالية » للرجل .. فكتب يتساءل : « من أين للأفغانى بكل هذه النقود حتى يساعد كل هؤلاء المهاجرين الشوام على إصدار كل هذه الجرائد وتأسيس كل هذه المطابع !؟ .. » ثم لا يلبث أن يقطع بأن « مصدر التمويل كان الباب العالى بصفة أساسية ، وفرنسا بصفة فرعية .. » وهو يقطع ويؤكد . استنتاجا ، ودونما دليل ! ..

ومن « الحق » و « الواجب » أن نسأل : هل أسس الأفغانى مطابع للصحف التى ساعد على إصدارها فى مصر ؟ .. إن صحيفة [مصر] صدرت من « دكان فى حى باب الشعرية » الشعبى .. كما صدرت [العروة الوثقى] من غرفة على سطح المنزل رقم ٦ فى شارع « مارسيل » بباريس .. ولم تكن هناك « المطابع التى تأسست » ، والتى يتحدث عنها الدكتور لويس .. والذى يزيد من غرابة « العقلية المباحثية » التى يتحدث بها الدكتور لويس عن « التمويل » للصحف الشعبية التى ساعد الأفغانى على صدورها .. أن الدكتور لويس قد عاش حقبة من التاريخ المصرى - فيما قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م - كانت الصحف الشعبية تصدر فيها بالقروش التى يتبرع بها الفقراء .. ومع ذلك فعلت هذه الصحف مالم تفعله صحافة المطابع والمؤسسات .. فلم هذا الغبار المثار فى غير موضع ، وبلا سبب من الأسباب !؟

ثم .. إن الجميع يعلم ، علم اليقين ، أن افتراق محمد عبده عن الأفغانى
 فى سنة ١٨٨٥ - بعد توقف [العروة الوثقى] ، قد كان لاختلاف تصور كل
 منها « لسبيل » تحقيق الأهداف المتفق عليها .. والدكتور لويس يسلم
 « بالطابع الفكرى » للخلاف بين الرجلين ، ويقول : « .. نحن نعلم ، على
 وجه اليقين ، أن خلافا نشب بين الأفغانى ومحمد عبده فى أواخر فترة « العروة
 الوثقى » ، وهو خلاف ذو طابع فكرى ، لأنه خلاف بين منهجين ، منهج
 المفكر محمد عبده ، ومنهج السياسى الأفغانى ، كلاهما أراد تجديد شباب
 الاسلام وتحرير العالم الاسلامى ، ولكن على طريقته .. » (٢٥)

لكن الدكتور لويس لا يمهلتا كى نهنا بهذا التقويم الموضوعى لخلاف
 محمد عبده مع الأفغانى .. فيسرع - وفى ذات الصفحة من « دراسته » -
 ليتساءل عن السبب - الذى سبق وقطع ، ييقين ، أنه فكرى - يتساءل ،
 مشككا - : « هل كان بسبب خلاف على المال ؟! .. ثم لا يتورع عن أن
 يمتضى ليقول : « إن كل الأموال كانت تصب فى جيب الأفغانى ، وهو يتولى
 الإنفاق » .. وينسب إلى أعضاء [جمعية العروة الوثقى] التونسيين ما لم
 يقولوه .. وينسب إلى محمد عبده ما لم يقله .. كل ذلك « للتشكيك » فى
 « ذمة الأفغانى المالية » ! .. فيقول : « لعل - [لاحظ معنى « لعل » !] -
 التونسيين قبضوا المعونة عن محمد عبده - عندما زارهم - لأنهم كانوا يعلمون
 أن الأفغانى تلقى مافيه الكفاية وأكثر . من يعرف ؟ - [لاحظ الاعتراف بأن
 لا أحد يعرف !] - لعلهم - [لاحظ معنى « لعلهم » !] - قالوا أشياء
 لمحمد عبده أثبت عفته أن يتكلم فيها .. » (٢٥) !

إن التونسيين لم يقولوا شيئا ضد الأفغانى .. ومحمد عبده لم يذكر إلا

(٢٥) أصل « الدراسة » ص ١٨٨ .

ما ذكر عن أمانة الأفغانى وكرمه وقلة حرصه على الدنيا - وهو كلام كتبه فى التقديم لترجمة [الرد على الدهريين] عندما أقام فى بيروت ، بعد فراقه للأفغانى ١٩ - والدكتور لويس يقول إنه « لا أحد يعرف شيئا عن هذه الأمور .. ومع ذلك يمعن فى « التشكيك » ، مستخدما أدوات « هل » و« لعل » و« لعلهم » ، على نحو غريب ١٩ ..!

وإذا ما قرأ فى تقارير الجواسيس الانجليز - التى يسميها « وثائق » - كلاما عن أموال تلقاها الأفغانى من بعض الشخصيات مثل خير الدين التونسي ، والجنرال حسين باشا ، لم يكلف نفسه البحث ليعرف أن هذه الشخصيات كانوا أعضاء فى [جمعية العروة الوثقى] يؤدون لها « الاشتراك » المالى . وإنما نراه متلهفا على اتهام الأفغانى بجمع الأموال ، لتصب فى جيبه ، وليتولى وحده الانفاق ١٩ ..!

تلك نماذج - مجرد نماذج - من « التشكيك » الذى امتلأت به « دراسة » الدكتور لويس عن جمال الدين الأفغانى !

* * *

٤ - أما فيما يتعلق « بالافتراءات » التى اجتهد الدكتور لويس كي يلصقها بفكر الأفغانى وعقيدته وأسلوب حياته .. فلقد تنائر منها فى صفحات « دراسته » الكثير من النماذج ، حتى لقد نافست فى العدد نماذج « التشكيك » ! ..!

● لقد سبق وأوردنا قول محمد عبده عن الأفغانى : « .. إنه أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه .. وله حمية دينية لا يساويه فيها أحد .. يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله .. » وقول « يلت » عنه : « .. إن كل مافيه آسوى ، وليس من السهل تأنيسه للعادات الأوروبية .. »

لكن الدكتور لويس يتوكأ على « فصاصة ورق » كتبها جاسوس انجليزى عن من وصفه « بالسيد الرومى » ، فيفتري على الأفغانى تهمة « التفرنج فى الفكر والسلوك » .. كما يستند إلى إحدى الشهادات التى جمعها الشاه الايرانى ، المعادى لجمال الدين ، والتى تتحدث عن « إفطاره علنا فى نهار رمضان » أيام إقامته فى النجف العراقية .. ! (٢٦) ..

والغريب فى الأمر هو أن الدكتور لويس لا يكتفى بتزكية « الرواية » والأكذوبة التى اخترعها من زعموا قربانهم للأفغانى ، من أهل « أسد آباد » الايرانية .. بل مضى فحمل افتراءاتهم فوق ماحملوها ؟ ! ..

فإذا قال قائلهم إن سبب رحيل جمال الدين من « أسد آباد » إلى « قزوین » - وهو فى العاشرة من عمره - « أن فتنة نشبت بين (السادة) هناك » .. « وأنه قد شاع فى النجف - فيما بعد أثناء إقامته بها - أن الفتى جمال الدين هو المهدي المنتظر .. رغم إنكار جمال الدين لهذا الذى شاع عنه .. »

إذا قال قائلهم ذلك ، لم يكتف الدكتور لويس بالتزكية والتصديق .. وإنما تطوع بالزيادات والاضافات .. فمرجه يقول إن جمال الدين كان ينق أسطورة أو « إشاعة » المهديّة المنسوبة إليه .. لكن الدكتور لويس يقول : « ولاشك - [لاحظ مغزى استخدام « ولاشك » !] - أن جمال الدين بأقواله وأفعاله ، صراحة أو بالإنحاء ، بالخداع أو بالإيمان ، كان يغذى هذه الأساطير التى كانت تنسج من حوله .. ! .. ثم ينطوع ليرجح أن هذه الأساطير هى سبب الفتنة التى حدثت من قبل فى « أسد آباد » .. فهو يجعل لأسطورة « النجف » تأثيرا ، بأثر رجعى ، فى مرحلة « أسد آباد » ١٢ .. ثم هو لا يطلب من نفسه القليل من الاتساق فى التفكير .. فن يشيع حول نفسه

أسطورة المهديّة .. ومن يغذى الزعم بأنه « يوحى إليه بأنه المهدي المنتظر » .. هل يليق به ، وهل يدعم من مسعاه هذا - في بيئة محافظة في تدينها كالنجف - « عدم الاهتمام بالمحافظة على شعائر الدين .. والافتقار علنا في رمضان ١٤٢٧ » ! ..

لقد كنا ننتظر من الدكتور لويس أن يقف من هذه « الشهادات » التي ضممها كتاب [جمال الدين الأسد آبادي] - والذي سبق لنا الحديث عن قيمته - أن يقف منها موقف الناقد ، المتمثل للحكمة الشعبية المأثورة : « إذا كان المتحدث مجنونا فليكن السامع عاقلا » ! .. لكن الدكتور لويس - مع الأسف - لم يصنع ذلك .. بل لقد أضاف ، من عنده ، التخرجات والاستنتاجات التي زادت الطين بلة بتدعيمها لهذه الافتراءات ! ..

● كان الأفغاني « فليسوفا - متصوفا » و« درويشا - فقيرا » - زاهدا .. لكن الدكتور لويس عوض إمعانا منه في « الافتراء » على الرجل - ولزيادة حرصه على إهالة التراب والوحل على الرمز الأسطوري الذي ارتاد للأمة طريق البعث الإسلامي في عصرها الحديث - قد أراد أن يقدم لقرائه جمال الدين الأفغاني « سكيلا » ١٤٢ .. وفي سبيل بلوغ هذه الغاية لم يكتف الدكتور لويس بالافتراء على جمال الدين ، بل لقد افترى على الذين أروخوا له أيضا ! .. فكتب في دراسته يقول : « .. أما تردد الأفغاني على القهاوي والبارات فيشهد به محمد عبده وسليم العنحوري .. » (٢٨) ! .. فهل ، حقا ، شهد محمد عبده وسليم العنحوري بتردد الأفغاني على

(٢٧) [التضامن] العدد ٢ ص ٦٩ .

(٢٨) [التضامن] العدد ٦ ص ٧٠ .

« البارات » - [بصيغة الجمع .. أى أن الأمر لم يقف عند « التردد » على بار واحد] - ١٩ .. لننظر ..

إن عبارة محمد عبده التى تتحدث عن الأماكن التى كان الأفغانى يستطيع التتره فيها والجلوس بها ، وعقد مجالسه بين ربيعها ، تشير إلى جلوسه فى المنتزهات العامة ، وفى « المقهى » الحديث الذى يماثل - فى عصره - « الكازينو » - فى عصرنا الحالى - وهى أماكن لم يكن مألوفاً - فى ذلك العصر - من الشيوخ والعلماء ارتيادها .. وليس فى عبارة محمد عبده ، مازعمة الدكتور لويس ، من تردد الأفغانى على « البارات » .. يقول الأستاذ الإمام : « وكان - [الأفغانى] - يتوسع فى إثبات بعض المباحث ، كالجلوس فى المنتزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المخزومين ، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار ، وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية ، فكان بعيداً من اللغو مترها عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء - [ضباط الجيش] - وأرباب المقامات العالية وأهل العلم .. »

ثم يمضى الأستاذ الإمام ليرد نقد الناقدين ذهاب الأفغانى إلى هذه المنتزهات العامة فيقول : « وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه ، لكن الله يحب أن تؤفى رخصه كما يحب أن تؤفى عزائمه ، وأى غضاضة على المرء أن يفرج بعض همه بما أباح الله له ١٩ .. ٢٠ »

أما سليم العنحورى ، فهو وإن سمي المكان الذى كان يجلس فيه الأفغانى ، ويعقد به متداه : « ملهى » ، إلا أنه يحدد صراحة أن هذا « الملهى » هو بالتحديد « قهوة متاتيا » المجاورة لمبنى « البريد » -

(٢٩) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٥٣

[البوسطة] - بميدان العتبة الخضراء ، بالقاهرة .. يقول العنحورى عن مجلس جمال الدين : « وكان مجلس علمه في « ملهى » ، قرب الأزبكية .. يدعى (قهوة البوسطة) .. » (٣٠)

فهو « مجلس علم » - كما قال العنحورى - .. وهو المنتدى الذى كان يتحلق حول الأفغانى فيه طليعة المجتمع المصرى من المدنيين والعسكريين الذين جددوا حياة الأمة الفكرية والعملية ، وارتادوا بالشرق ميدان الثورة للمرة الأولى فى العصر الحديث .. إنه المكان الذى تكون فيه قادة من أمثال محمد عبده والبارودى وعزائى والنديم وسعد زغلول .. الخ .. الخ .. بل لکنه - بمقاييس افتراء الدكتور لويس - « بار » .. بل و « بارات » !؟ ..

● وتعدد الافتراءات التى يقذف بها الدكتور لويس كل من وقف عند الحقيقة فى تاريخه لحياة جمال الدين .. وفى مقدمتهم الاستاذ الإمام ! .. فإذا ذكر محمد عبده حقيقة أن الأفغانى لم يدرس بالأزهر ، وأنه لم يذهب إليه إلا مصليا أو زائرا ، وأن مجلس علمه كان فى منزله .. لم يعجب ذلك الدكتور لويس ، وأبناؤه بسلك لنقض هذا القول سيلا توقعه فى أخطاء لا يقع فيها بصير بكتابة التاريخ !؟ .. إنه يقول : « وربما كان اهتمام محمد عبده بإبراز أن الأفغانى لم يدرس بتاتا فى الأزهر جاء من الأفغانى نفسه .. من حيث حرصه على إخفاء صداماته مع علماء الأزهر ، حتى لا يخيف تلاميذه من المجاورين » (٣١) ..

(٣٠) [تاريخ الاستاذ الإمام] ج ١ ص ٤٤ .

(٣١) [التضامن] العدد ٦ ص ٧٠ .

.. فني رأيه أن محمد عبده يكذب - تبعاً لكذب الأفغاني - عندما ينفي
تدريس الأفغاني بالأزهر . كني لا يبرز صداماته مع شيوخ الأزهر . فيخاف
منه المجاورون فلا يقبلون على دروسه ١٩ ..

ولو كان الدكتور لويس عوض يحترم عقول قرائه لاحترم الحقيقة ولما سود
الصفحات بمثل هذا « الكلام » ! .. فلو كانت للأفغاني صدامات مع شيوخ
الأزهر ، عندما كان يدرس فيه ، لعلمها المجاورون - [من طلاب
الأزهر] - ولما أفلح محمد عبده في إخفائها عنهم . لأنهم مثله شهود
عيان ١٩ .. ثم - وهذا هو الأهم - إن محمد عبده قد كتب هذا الذي كتبه
عن الأفغاني في تقديمه لرسالة [الرد على الدهريين] ، وهو منفي . بيروت
سنة ١٨٦٦ م . وكان الأفغاني في باريس .. فأين كان الأفغاني . يومئذ .
من مصر ومن الأزهر ومن المجاورين ، حتى يكذب محمد عبده . فيخفي
تدريس الأفغاني بالأزهر وصداماته مع شيوخه كني يطمئن له المجاورون
فيستلمذون على يديه ١٩ ..

أهذا كلام يا عزيزنا الدكتور لويس ١٩ .. على كل حال فنحن نحمد
الله على أن هذا هو مبلغ جهلك في دعم مارميت به الأفغاني من
« الافتراءات » ! .. وعلى قارئ « دراستك » أن يقيس ما لم نشر إليه على
ما أشرنا إليه في هذه الصفحات .



ولقد زاد الطين بلة . وأسهم في إشاعة الأخطاء الصارخة وغير اللائقة
في « دراسة » الدكتور لويس : قلة بضاعة الرجل العلمية بالميدان الذي
تصدى للإفتاء فيه ! .. لقد دخل ميدان التاريخ - دون أن يمتلك أياماً من
أدواته .. بل واختار التاريخ للبعث الإسلامي وحركة الإصلاح الإسلامية
بالذات ١٩ ..

والناظر فيما كتبه الدكتور لويس يرى أخطاء تحدد قيمة بضاعته العلمية في هذا الميدان ..

● فالرجل الذى دفع إلى المكتبة العربية كتابا ، يحمل اسمه ، في « فقه اللغة العربية » .. هذا « العالم اللغوى » عندما ينسب إلى « المهدي » يقول : « المهدوية » (٣٢) ولا يقول « المهدية » !!! ..

● وهو يزعم أن جمال الدين الأفغانى قد قال عبارة : « .. والشيعية يقولون انى نصيبى » .. فلا يستطيع تمييز الخطأ ، لأن صحة الكلمة « ناصبى » !!! .. وبدلا من أن يسأل أهل الذكر عن معنى الكلمة ، فيصححها ، يتطوع ليفنى ويفسر ، فإذا « بعلمه الغزير » يثير الضحك والرتاء ! .. لقد فتح « قوسا » ليفسر كلمة « نصيبى » فقال : (من معركة نصيبين ، أى من أعداء على) بن أبى طالب !!! .. والرجل لا يدري أن الإشارة إنما هي إلى فرقة « النواصب » ، الذين ناصبوا على بن أبى طالب وبنيه العداء .. وأن المفرد منها « ناصب » ، والنسبة إليها « ناصبى » .. أما معركة « نصيبين » فلا علاقة لها بالموضوع - اللهم إلا أن تكون علاقتها به مثل علاقة الدكتور لويس بالموضوع الذى تصدى للكتابة فيه ١٤ - « فنصيبين » مدينة بالشام فتحت في زمن عمر بن الخطاب ! ..

● ونحن نعذر الدكتور لويس إذا لم يميز بين الآية القرآنية وبين الحديث النبوى الشريف .. لكنه إذا جاء فتحدث عن خطاب ، ثم زعم أن الأفغانى هو كاتبه .. ثم وجدنا الخطاب يتحدث عن الآية القرآنية [إنما المؤمنون إخوة] - الحجرات : ١٠ - على أنها « حديث » (٣٣) « .. كان من حقا أن

(٣٢) [التضمن] العدد ٣ ص ٦٩ .

(٣٣) أصل « الدراسة » ص ٩٩ .

نقول : إن هذا جهل إن جاز لغير الأفغانى فلا يجوز لإمام كجمال الدين ١٩...!

فهل مثل الأفغانى من لا يميز بين الآية وبين الحديث ١٩... وهل يلقى
« مؤرخ » ، ينظر فى نصوص مصادره نظرة نقدية ، ألا يكتشف ريف لسية
مثل هذا النص إلى مثل الأفغانى ١٩... وأيضاً ، فكاتب الخطاب يتحدث
عن نفسه فيقول : « إن كاتب هذا الخطاب رجل وضع المقام لا أهمية
له... » (٣٤) ١٩... فهل مثل الأفغانى من يقول هذا عن نفسه... وهو الذى
هابته الملوك والقيصرة... حتى لقد انزعج منه السلطان عبد الحميد
[١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] عندما طلب منه وقف الهجوم
على الشاه الايرانى ناصر الدين [١٢٤٦ - ١٣١٣ هـ ١٨٣١ - ١٨٩٦ م]
فجاءت استجابته فى عبارة : « الآن ، عفوت عن الشاه » !

إن الدكتور يكثر من الحديث عن « عنجهية » الأفغانى... ويتحدث عن
« عناده الذى جعله يرفض التبعية للباب العالى ، وأقصى ماينتصوره هو حالة
من « التعايش » بينه وبين السلطان (٣٥) »... فهل يلقى بمن هذا مقامه ،
ومن هذه مكانته ، أن يكتب لمن هو دون السلطان فيقول عن نفسه : « إنه
رجل وضع المقام ، لا أهمية له » ١٩...!

أين العلم بتقد النصوص... أخص خصائص من يتصدى لكتابة
التاريخ ١٩...!

● كذلك فنحن لا نعذر الدكتور لويس عندما لا يكلف نفسه مؤنة النظر
فى « أطلس جغرافية » البلاد التى يتحدث عنها... فى معرض افترائه على

(٣٤) أصل « الدراسة » ص ١٠٢.

(٣٥) أصل « الدراسة » ص ٢٢٤.

الأفغانى ، والتدليل على إيرانيته ، يسوق حكاية وعده لأمه ، وهو صغير .
بأن يجعلها حاكمة على خراسان !..

وإذا صرفنا النظر عن الوقوف عند ألفاظ السحرية التى صيها الدكتور
لويس على الأفغانى ، بسبب هذه الحكاية المزعومة .. فإننا نسأله :

لم لم يسأل نفسه - من باب نقد النص - : هل من المألوف فى البيئة
الشيوعية المحافظة مثل إيران - أن تكون المرأة حاكمة لخراسان ؟!..

ثم .. إن خراسان - بإعزينا الدكتور لويس - ليست فى إيران - حتى
تستدل بذلك على إيرانية الأفغانى .. وإنما هى فى أفغانستان ، ولو نظرت فى
معاجم البلدان القديمة - بل وفى [القاموس الإسلامى] للأستاذ أحمد
عطية الله - لعلمت أنها « اسم تاريخى يطلق على ما يعرف اليوم ، بصفة
عامة ، باسم أفغانستان ، وهو يطلق ، بصفة عامة ، على الإقليم الذى يحده
فى الشمال نهر جيحون ، وفى الشرق حوض السند ، ومن الغرب إقليم
فارس ، ويضم من المدن الشهيرة : كابل وغزنة وقندهار وترندوجوين
وفاراب ونساويورد وسرخس .. » !..

● كذلك لا عذر للدكتور لويس عندما يتطوع بالافتاء فيقع فيما لا يليق
من الأخطاء .. فهو ينقل عن « بلنت » أن « السيد أمير على » كان يتزعم -
فى كلكتا - بالهند - « طائفة مثقفة مجددة ، تدعو للأخذ بالحضارة
الغربية .. » .. فتراه يذكر اسم الرجل « الأمير على » بزيادة « آل - » لكن
هذا لا يهم .. وإنما المهم أنه يتطوع بالتفسير فيفتح قوسا ليقول لنا : إن السيد
الأمير على (هو السيد أحمد خان) ^(٣٦) .. ولورجع الدكتور لويس إلى أى
قاموس للأعلام ، أو إلى كتاب [زعماء الإصلاح فى العصر الحديث]

(٣٦) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦

للأستاذ أحمد أمين ، لعلم أن أحمد خان [١٢٣٣ - ١٣١٦ هـ ١٨١٧ - ١٨٩٨ م] غير السيد أمير علي [١٢٦٥ - ١٣٤٧ هـ ١٨٤٩ - ١٩٢٨ م] .. ولعلم أن الأول كان ينهج للإصلاح طريق التربية والتعليم فقط ، على حين أضاف الثاني إلى نهجه خطة سياسية تعالج مشكلات المسلمين ! ..

● وفي موطن آخر يستعين الدكتور لويس « بقلة العلم » على تشويه صورة جمال الدين الأفغاني ! ..

فحتى يلصق به تهمة التعاون مع الانجليز ، في مصر ، سنة ١٨٧٨ م . إبان الصراع بينهم وبين الخديوى اسماعيل ، يقول « إنهم سمحوا بانتخابه رئيساً لمحفل « كوكب الشرق » ، الذى كان فرعاً من المحفل الماسونى فى إنجلترا سنة ١٨٧٨ م » ثم يتحدث عن « طردهم » له من هذا المحفل بعد هذا التاريخ ، عندما وقع بينها الخلاف ، وانتهت « فترة التعاون الكامل » بينها ^(٣٧) . كما يقول ! ..

ولو رجع الدكتور لويس إلى أى مرجع محترم من المراجع التى تؤرخ للماسونية ، لعلم أن المحفل الذى انتخب الأفغاني رئيساً له سنة ١٨٧٨ م - إبان صراع الانجليز ضد الخديوى اسماعيل - وهو محفل « كوكب الشرق » - لم يكن هو التابع للمحفل الانجليزى .. بل كان تابعا للمحفل الفرنسى ^(٣٨) .. فهو المحفل الذى أنشأه الأفغاني ، كموقف ضد المحفل التابع للانجليز .. وهو الذى يسميه سليم العنحورى « جمعية (الماسون) العربية » ! ^(٣٩) .. فلم يكن الأفغاني متعاوناً مع الانجليز ، لا يومئذ .

(٣٧) [التضامن] العدد ١ ص ٥٦ .

(٣٨) صابر طعيمة [الماسونية ذلك العالم المجهول] ص ١٢٨ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

(٣٩) [تاريخ الأستاذ الإمام] ج ١ ص ٤٦ .

ولا قبل ذلك ولا بعده ، فلقد كانت كراهية استثمارهم طبعاً من طباعه لازمة
حتى انتقل إلى رحاب الله ! ..

ثم .. إن الانجليز ليسوا هم الذين « طردوا » الأفغانى من المخفل الذى
كان يتبع مخفلهم .. وإنما الرجل هو الذى استقال ، عندما اكتشف حين
هذا المخفل عن التصدى للاستعمار والاستبداد ، وعندما تبينت له علاقة هذا
المخفل - ولو بالصمت والمسايرة - بمخطط الانجليز فى مصر ، وخير دليل على
صدق هذا الذى نقول كلمته التى أدان فيها ماسونية ذلك المخفل ، التى
استقال منه بعد إلقاءها .. لقد قال فيها : « أول ما شوقنى للعمل فى بناية
الاحرار ، عنوان كبير خطير : [حرية ، مساواة ، إخاء] . غرض :
[منفعة الانسان ، سعى وراء ذلك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل
المطلق] .. فحصل لى من كل هذا وصف للماسونية ، وهو : همة للعمل ،
وغزة نفس وشمس ، واحتقار للحياة فى سبيل مقاومة من ظلم ..

كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت
لأنخيل أن الحين يمكنه أن يدخل بين اسطوانتى المخافل الماسونية ! ..

إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات
البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم ، ولتشيد معالم حرية صحيحة
وإخاء ومساواة ، وتلك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار
مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة ! ..

يؤلمنى أننى للآن ما عرفت لنفسى ، بصفتى ماسونيا ، ولا لمطلق الماسونية
تعريفا يجعل لها صورة فى الذهن ووصفا ينطبق على من ينخرط فى تلك
العشيرة ! .. ماسونيتكم ، أيها الإخوان ، اليوم لاتتجاوز : « كبس أعمال ،
وقبول أخ » ، يتلى عليه من أساطير الأولين مايمل ويخل فى عقيدة الداخلى ،
ويستقط مكانة الماسونية فى عينيه .. فالماسونية ، على شكلها هذا ،

وتقابلدها . ليست فقط قديمة العهد ، بل هي لا تزال في المهد ، وسوف -
إذا أصرت وأصر أبناؤها على الوقوف عند حدود رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها
ولا المواد من وضعها - أنها ستختنق في المهد ولا تدرج منه (٤٠) ! .. »

تلك هي قصة الأفغانى مع الماسونية .. إنها صفحة من صفحات صراعه
ضد الاستعمار ، والاستعمار الانجليزى على وجه الخصوص .. وليست إطارا
تعاون فيه الأفغانى مع الانجليز . كما ادعى الدكتور لويس ! ..

لكنها « قلة المعلومات » بميدان البحث وطبيعة مادته ومصطلحاته .
عندما أضيفت إلى « الغرض الثأرى المبيت » ، الذى حرك الدكتور لويس
للافتراء على الأفغانى والتشكيك فى حقائق حياته ونضاله وفكره .. أثمر كل
ذلك ما بلغتته هذه « الدراسة » من مستوى فى الشذوذ قل أن يكون له
نظير ! ..

هل كان الأفغانى ملحدًا .. وزنديقا ؟ !

من كان يتصور أن الدكتور لويس عوض « العلماني » ، الذي يكثر من الحديث عن المذهب الانساني - « الهيومанизم » - والمعادى للإحياء الديني ، والذي ترتعد فرائضه من التطرف والغلو الديني ... من كان يتصوره مستخدما لسلاح « التكفير » ، يحكم على عقيدة جمال الدين الأفغانى بالتجديف والزندقة والإلحاد ، وكأنه أحد غلاة جماعات التكفير في العصر الذي نعيش فيه ؟ ! ..

صورة مأساوية .. لكنها وقعت في « دراسته » عن جمال الدين ! ..

ولقد يحار المرء في تفسير هذا الغلو ، غير المؤلف ، من الدكتور لويس .. هل انتابته نوبة من « الكهنوت المسيحي » فنهض كي يعيد تمثيل مشاهد قارات « الحرمان » التي كانت تصدرها الكنيسة قديما ضد أحرار المفكرين ؟ ! .. لا أعتقد .. فالرجل منسوب إلى الكنيسة القبطية ، التي لم يشتهر في تاريخها هذا التجاوز والعدوان على ضماير المؤمنين وعقائدهم .. وأغلب الظن أن عدااء الدكتور لويس لرمز الإحياء الإسلامي والاستقلال الحضاري عن الغرب : جمال الدين الأفغانى ، هو الذي دفعه إلى هذا « الخروج » العصري ، الذي جعله يحارب بكل سلاح ، حتى ولو كان محرما إسلاميا ، وممنوع الاستخدام من قبل كل المستنيرين والانسانيين ! ..

لقد سبقت إشارتنا إلى نماذج من « التشكيك » و « الافتراء » التي أصابت سيرة الأفغانى وفكره فى « دراسة » الدكتور لويس . . . والآن نقف لننظر فى قمة هذا « الافتراء » . . . عندما أباح الدكتور لويس لقلمه أن يحكم على « العقيدة الدينية » للأفغانى . . . فيقول : « إنه غير متدين » . . . بل « مجدف » . . . و « ملحد » . . . و « زنديق » ؟ ! . . .

فى « دراسة » الدكتور لويس - وحتى عندما عرض له « تدبىء » الأفغانى و « عقيدته الدينية » لانهج أية إشارة إلى كتابات الأفغانى الدينية ، و « الكلامية » منها و « الصوفية » على وجه الخصوص . . . وبديهي أن من يكتب عن عقيدة إمام كجبال الدين ، لابد وأن يرجع لما كتبه الرجل فى « العقيدة » . . . من مثل [تعليقاته على شرح الدوائى للعقائد العضدية] و [رسالة الواردات فى سر التجليات] وما كتبه عن [القضاء والقدر] . . . الخ . . . الخ . . .

ونحن لاندري ، هل قرأ الدكتور لويس هذا الجانب من أعمال الأفغانى الفكرية ، أم لا ؟ . . . قد يكون قرأه ، ولم يجد سيلا لفقهه . يحكم تكوينه الدينى وقدراته الفكرية المحكومة بتخصصه الأكاديمى البعيد كل البعد عن هذا الميدان ! . . . المهم أننا لانجد أثرا لأعمال الأفغانى « العقيدية » فيما كتبه الدكتور لويس عن « عقيدته » . . . وهذا خلل منهجى يسقط أحكام الدكتور لويس من الأساس ! . . .

لقد وقف الدكتور لويس ، فى « دراسته » عن الأفغانى عند حدود الأوراق والكتب التى جمعها له الذين استضافوه فى جامعة « لويس أنجليس » . . . وما جمعه له من كتابات الأفغانى ذات العلاقة بالعقيدة : ترجمة انجليزية لرسالة [الرد على الدهريين] و [المقالات الجالية] التى كتبها بالهند عندما نفى إليها فى مطلع ثمانينات القرن الماضى . . . وكلا

المصدرين من الكتابات « الجمهورية » ، التي تعالج الجوانب السياسية والاجتماعية والحضارية ، ولاتفوض غوص المتخصص في ميدان العقيدة الدينية عندما يكتب للمتخصصين ! ..

ومع ذلك .. فلننظر لنرى كيف تعامل الدكتور لويس مع فكر الأفغانى ، الذى اطلع عليه ، ورجع إليه فى هذا الموضوع ..

لقد كتب الأفغانى رسالة [الرد على الدهرين] لتكون سلاحا فى الصراع ضد طائفة من مسلمى الهند ، يمكن أن نسميهم بـ « المتغربين » الذين تهادنوا مع الاستعمار الانجليزى هناك .. فهم قد تفرغوا فى الحضارة والفكر والسلوك ، ووقفوا عند « التنوير » بمضامينه الغربية ، ونفضوا أيديهم من مهام الوطنية والنضال ضد الاستعمار ... ولذلك ، فلقد تميزت هذه الرسالة بميزتين رئيسيتين :

الأولى : حديثها وعنفها .. لأنها حملت روح الثورة العنيفة التى حكمت موقف الأفغانى إزاء الاستعمار ..

والثانية : التركيز على « العائد » و « المردود » الاجتماعى والسياسى والثقافى ، الذى يصيب الأمة إن هى استمسكت بالإسلام كهوية حضارية تميزها عن الحضارة الغربية الغازية ... فحديث [الرد على الدهرين] عن الإسلام هو حديث عن « البديل الحضارى » الإسلامى لحضارة الغرب المادية العدوانية الاستعمارية .. وليس حديثا عن الإسلام كدين مجرد ، بعقائده وأركانه .. لأن [الرد على الدهرين] ليست ، فى الأساس ، كتابا من كتب « علم الكلام » ، الذى هو « فلسفة الإسلام » ! ..

أما الدكتور لويس ، فإنه - بعد أن أهمل كتابات الأفغانى « الكلامية »

و « الصوفية » - والتي منها يجب أن يستقى الدارس الأمين عقيدته ومذهبه الديني - قد اعتبر رسالة [الرد على الدهريين] هي التجسيد الفكري لحقيقة عقيدة جمال الدين .. فقال : « ... أما من هو الأفغانى الحقيقى فهو فى « الرد على الدهريين » ، فهو كتابه الخطير .. » ^(١)

لقد قرأ [الرد على الدهريين] فوجدتها تتحدث عن « العائد السياسى والاجتماعى والحضارى للإسلام الدين .. فبدلاً من أن يلتمس فكر الأفغانى عن الدين ، كعقيدة مجردة ، وأصول وقواعد وأركان وضعها الشارع سبحانه وتعالى .. بدلاً من أن يلتمس هذا من مواضعه فى أعمال الأفغانى الفكرية . أباح لنفسه ولقلمه أن يستبيح عقيدة الأفغانى . فيحكم عليه بالتجديف والزندقة والإلحاد ، بدعى أن الدين عنده ليس حقيقة موضوعية ، وإنما هو مجرد مؤسسة اجتماعية ضرورية لتنظيم حياة الجهلة من الناس .. فعنده « أن الأفغانى - فى [الرد على الدهريين] - لم يكن مهتماً بإثبات صحة العقيدة الدينية بقدر ما كان مهتماً بإثبات نفعها للوجود الاجتماعى والسياسى » ^(٢) .. لقد رفض الأفغانى المدرسة المادية فى كتابه [الرد على الدهريين] . ورفض موقف المدرسة المثالية فى مقاله [شرح أحوال الأغوريين] . ولكن الأفغانى فى رفضه للفلسفة المثالية بدلاً من أن يعتصم بالفهم التقليدى ، أو بالعقل العام فى فهم الدين ، أسس رفضه للمثالية على رأى لا يخلو من تجديف عن رأى المثاليين الأوربيين من الرومانسيين والمتصوفة وأصحاب العقل المتجاوز أو الحقيقة المتجاوزة . أسسه على أن زعزعة إيمان المسلمين بالمعجزات وبالعباقرة والثواب فى الدار الآخرة ، وهم « فى حال ضعفهم وشقاءهم الراهنة » كقيلة بأن تجعلهم

(١) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٥ .

(٢) [التضامن] العدد ١٧ ص ٦٧ .

يتخلون عن المقاومة القومية وينضمون إلى معسكر مستعمرهم ، بل وربما فرطوا في دينهم واعتنقوا دين جلادهم . ومعنى هذا بصرامة أن الأفغانى لم يكن ينظر إلى « المعجزات » وإلى « اليوم الآخر » على أنها مقولات دينية حقيقية .. وإنما هي عنده مجرد معتقدات نافعة لحفظ المجتمعات وصيانة الروح القومية فيها .. ومن هنا وجب النظر إلى الدين لاعلى أنه مجموعة من الحقائق الفكرية والروحية ، ولكن على أنه مؤسسة اجتماعية وقومية ... هذا هو جوهر رسالة الأفغانى فى [الرد على الدهريين] ... فالحق ، عند الأفغانى ، هو مايبنى المجتمع والباطل هو مايقوضه . ولاداعى بعد ذلك للبحث فى الميتافيزيقا ! ^(٣) .. إن الأفغانى لم يكن متدينا بالمعنى المفهوم . ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء الامبراطوريات .. ^(٤) « ؟ ! » ..

ذلك جانب من جوانب التحجى الصارخ الذى مارسه الدكتور لويس فى حديثه عن العقيدة الدينية لجمال الدين الأفغانى ..

وهنا نسأل : هل إذا حدثنا رجل عن « فوائد ظل الشجرة » . كان هذا الرجل ، بالضرورة ، منكرا لأصل الشجرة ، كحقيقة موضوعية ؟ ! .. وهل استمتاع الإنسان « بالثمرة » يعنى جحوده بالشجرة التى أثمرت هذه الثمرة ؟ ! .. وهل إذا تحدث الأفغانى عن العائد السياسى والحضارى والقومى للإسلام ، بالنسبة للمسلمين فى صراعهم ضد الحضارة الغربية التى جاءت فاقتحمت عليهم ديارهم وجاهدت لطمس معالم شخصيتهم القومية وتشويه ذاتيتهم الحضارية ... هل إذا تحدث الأفغانى عن هذا الجانب من الإسلام ، كان ، بالضرورة ، منكرا للدين

(٣) [التضمن] العدد ١٧ ص ٦٤

(٤) [التضمن] العدد ٣ ص ٧٠

إن تناول الإسلام ، كوضع إلهي ، والحديث عن عقائده ، كحقائق موضوعية ، والبحث الميتافيزيقي في هذه المقولات الدينية ، قد سبق للأفغاني وأفاها حقها قبل أن يكتب [الرد على الدهريين] بعشر سنوات ، ففي مصر كانت له « أمالي » في علم الكلام الإسلامي تضعه في مصاف كبار فلاسفة الإسلام ! .. فهل إذا تحدث عن الإسلام الحضاري والسياسي والاجتماعي ، في [الرد على الدهريين] ، يكون منكرا للإسلام « الدين » ؟ ! .. أم أن الدكتور لويس كان يود للأفغاني أن يقف عند حدود « المباحث الكلامية » و « الصوفية » ، ثم يدع دنيا المسلمين وسياساتهم وقوميتهم وحضارتهم فريسة سهلة للحضارة الغربية ، فلا يشهر في وجه « التغريب » الهوية الإسلامية للذين تدينوا بالإسلام ؟ ! ..

أعتقد أن هذا هو السبب الأساسي لتحامل الدكتور لويس .. لما يهجم ليس « تدين » الأفغاني ، الذي يضمن له الجنة يوم الحشر الأكبر ! .. وإنما الذي يهجمه أن لا يقف الإسلام الحضاري والثقافي والسياسي والاجتماعي في وجه الحضارة الغربية التي يدين لها بالولاء ؟ ! ..



إن الدكتور لويس مولع بتجزئة الأفغاني إلى مراحل .. مصرية .. وهندية .. وعروية وثني .. وتركية .. الخ .. ولذلك ، فنحن بحاجة لمنهجه ، سنقف أمام تقويمه لعقيدة الأفغاني في « المرحلة الهندية » ، لنرى رأينا في هذا التقويم ، قبل أن تعرض لفكر الأفغاني الديني ، والذي يتنقض اتهامات الدكتور لويس من الأساس ..

لقد رأينا تقويم الدكتور لويس لرسالة [الرد على الدهريين] - التي

رآها الممثلة لحقيقة الأفغانى ... ورأينا حكمه على الأفغانى ، من خلالها
وبسببها ، بأنه « مجدف » و « غير متدين » ، وما الدين عنده إلا « دافع
للسجائر الجاهلية لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء
الامبراطوريات .. » !

لكن .. يبدو أنه قد استمرأ منهج « التجزئة » .. فبعد أن جعل
للأفغانى « مرحلة هندية » ، مضى « ليجزئ » عقيدته فى ذات « المرحلة
الهندية » الواحدة ، بل وفى الكتاب الواحد - [الرد على
الدهريين] - ؟ ! .. لقد رأينا بحكم على الأفغانى ، من خلال [الرد على
الدهريين] .. بأنه « مجدف » .. ثم هاهو ، فى مكان آخر من
« دراسته » ، يحكم عليه ، من خلال ذات الكتاب ، بأنه « تقليدى
محافظ فى تفسير الإسلام » ؟ ! .. يقول : « لقد اختار الأفغانى فى سنة
١٨٨١ م ، نهائيا ، الدفاع عن الموقف التقليدى المحافظ فى تفسير
الإسلام ، وحمل حملة شديدة على تجديد الفكر الإسلامى بالفكر العلمى
والفلسفى الذى عده الطريق المختصر إلى الزندقة وإلى زعزعة الإيمان
الدينى . وقد عبر عن كل ذلك فى « الرد على الدهريين » وفى « مقالاته
الهندية » (٥) ؟ !

وهنا نسأل : كيف تكون رسالة [الرد على الدهريين] : « تجديديا -
أى كفرا وزندقة وزعزعة للإيمان - وتكون هى ذاتها : « تقليديا ومحافظة فى
تفسير الإسلام ، ومعاداة للتجديد والزندقة وزعزعة الإيمان » ؟ ! .. كيف
يتأتى ذلك التقويم لمن يحترم الحقيقة فيحترم عقول القراء ؟ ! ..
إن الدكتور لويس يمعن فى هذا التناقض الصارخ والغريب عندما

(٥) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦ .

يحكم على الأفغانى بأنه - من خلال [الرد على الدهريين] - قد أصبح « غيبيا في الفكر » كما هو « غيبى في السياسة »^(٦) - [بسبب دعوته للإسلام السياسى والجامعة الإسلامية ؟ !] - .. فكيف تكون « الغيبية في الفكر » « تحديفا » ، ياعزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..



نحن لازلنا في « المرحلة الهندية » للأفغانى ... وحتى الآن صدر على الرجل ، من الدكتور لويس ، حكمان متناقضان :

● فهو « مجدف » .. أى كافر بالله ... من خلال كتابه [الرد على الدهريين] ! ..

● وهو « تقليدى محافظ في تفسير الإسلام عدو للتجديد وللزندقة » .. من خلال [الرد على الدهريين] و [المقالات الهندية] ! ..

لكن الدكتور لويس لا يقف عند هذا القدر من « التناقضات » .. بل يمضى ليصدر على عقيدة الأفغانى - وفي ذات « المرحلة الهندية » - وبسبب ذات الأعمال الفكرية - أحكاما أخرى بينها وبين بعضها أشد التناقضات ! ..

● فبعد « التجديف » .. وبعد « المحافظة والتقليد » .. يذكر أن الأفغانى قد شق « طريقا وسطا » بين أهل الجمود وبين المتفرجين .. فيقول : « ... ويبدو أن الأفغانى حاول في كلكتا - [بالهند] - أن يفتح لمسلمى الهند طريق ثالثا .. » وهو ينقل هذا التقييم لموقع الأفغانى الفكرى عن « بلنت » ، الذى التقى بشاب هندى من أنصار الأفغانى - اسمه « مولاي أ. م » - تحدث إلى « بلنت » عن التيارات الفكرية بين

(٦) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦ .

مسلمى الهند ، وكيف « أن الأمير على وأصدقاءه قد وضعوا أنفسهم خارج إطار المجتمع الإسلامى ، بزعمهم الانجليزى وعاداتهم الانجليزية .. بينا عبد اللطيف وجماعة الموالى [علماء الدين] كانوا مسرفين فى المحافظة ... فجاء الأفغانى بفكرة قوامها : الجمع بين إصلاح الإسلام والوحدة الإسلامية . وهناك الآن كثيرون يفكرون على طريقته ، ويعتقدون فى موقف وسط بين هذين الحزبين المتنافسين .. »

إن الدكتور لويس ينقل هذا التقويم عن « بلنت » .. ويعترف « بتجمع الشباب المعتدل حول الأفغانى .. ورفضه طريق علماء الدين المحافظين ، ومدرسة السيد « أحمد خان » الليبرالية ، التى كانت تجد تناقضها الأول مع التخلف الداخلى وليس مع الاستعمار البريطانى ... »

لكن الدكتور لويس لا يركى هذه « الوسطية » ، لأنها تعنى - كما قال الشاب الذى تحدث إلى « بلنت » - « إصلاح الإسلام » أى تجديده ليكون البديل الحضارى للتغريب .. و « الوحدة الإسلامية » أى [الجامعة الإسلامية] التى تجمع أمم الإسلام فى رباط تضامنى يعينها على مواجهة الامبريالية والاستعمار ... لا يركى الدكتور لويس هذه الوسطية .. بل يراها « معادلة صعبة .. تريد قبول حضارة العصر ورفض الانجليز ^(٧) » ؟ !

ونحن نسأل الدكتور لويس : هل كان يريد لمسلمى الهند قبول الانجليز كشرط لقبولهم « حضارة العصر » ، حتى تكون المعادلة سهلة ؟ ! .. إنه واضح الانحياز لموقف « المتغربين » ، من أمثال « أحمد خان » ، الذين تفرغوا ، ورفضوا « الموروث » ، وتعلقوا بأذيال « الوافد الغربى » .. بل

(٧) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .

هو أشد حماسا وانحيازاً لهذا الموقف « الثغرى » ، لانعدام الصلات التي تربطه بهذا « الموروث » ؟ ! ..

● وبعد الحكم « بالتجديف » .. و « بالمحافظة والتقليد » .. و « بالوسطية » .. يأتي حكم رابع للدكتور لويس .. فيقول : عن الأفغانى - فى ذات المرحلة الهندية - إن فكره يمثل « الانسانية الإسلامية » - [الهيوماتزم الإسلامى] - ؟ ! ... فهو يورد فقرات من محاضرة ألقاها الأفغانى فى قاعة « البرت هول » ، انتقد فيها إحصام المسلمين عن الاستفادة من علوم العصر التي ازدهرت فى أوروبا ، على الرغم من استمرارهم ترديد مقولات أرسطو التي استعان بها أسلافهم .. فهم يقبلون على « أرسطو ، وكأنما هو قطب من أقطاب الإسلام » ومع ذلك فإذا جاء ذكر جاليليو ونيوتن وكبلر قالوا : هؤلاء كفار ! ...

والأفغانى هنا - وهذا ما لم يلحظه الدكتور لويس - يقول للمسلمين : إن ما نحتاجه من الغرب ليس الفلسفة .. وإنما العلوم الطبيعية وتطبيقاتها .. أما الفلسفة والثقافة والأحيات والانسانيات ، فسيبلىنا إليها هو الإسلام وتراثه الثقافى والحضارى ...

ثم يمتضى الأفغانى فى محاضرته ليقول : « إن أبا العلم وأمه هو الدليل . والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات ، والحقيقة تلمس حيث يوجد الدليل ، وأولئك الذين يحرمون العلم والمعرفة ، معتقدين بذلك أنهم يصونون الدين الإسلامى ، هم فى الواقع أعداء ذلك الدين . إن الدين الإسلامى هو أقرب الأديان إلى العلم والمعرفة ، وليس هناك أى تعارض بين العلم والمعرفة وبين أسس العقيدة الإسلامية .. » .

والدكتور لويس يعلق تعليقا إيجابيا على كلمات الأفغانى هذه ..

فيقول : « والحق أن المرء لا يستطيع أن يقرأ هذا المنطق المتناسك ، إلا ويقف باحترام عميق أمام فكر الأفغاني الساطع ، الذي كان يمكن أن يكون دعامة قوية من دعامات « الهيومانزم الإسلامي » ، واستكمالاً لتلك الثورة الثقافية التي بدأها رفاعة الطهطاوي ... »

وهنا .. وعند هذا الحد ، عز على الدكتور لويس أن يصمت ، فيكون قد قال في الأفغاني كلمة حق لم يفسدها بتشكيك ولم يطمسها بتشويه .. فعقب على كلماته هذه بقوله : إن الأفغاني قد أفسد فكره الإنساني هذا عندما « شغل نفسه بسفاسف السياسة وبسفاسف الفكر السياسي التي طمست في آثاره مبادئ الهيومانزم ، أو المذهب الإنساني ، ولم تبرز للأجيال التالية إلا دعوته السلفية ودعوته الشيوعية .. » (٨) « ١٢ !

فإذا ما بحثنا عن « سفاسف السياسة وسفاسف الفكر السياسي » ، التي لا تعجب الدكتور لويس ، وجدناها متمثلة في : تأسيس التمدن الحديث على أسس إسلامية ، وإحياء الجامعة الإسلامية ، كرابطة تجمع شعوب الشرق وعالم الإسلام في الصراع ضد الاستعمار ! ..

على كل ، لقد قال الدكتور لويس عن الأفغاني - في هذا الموضع من دراسته - وعن فكره في ذات المرحلة الهندية - إنه « إنساني » - [هيومانزم] - بعد أن حكم على عقيدته وفكره بـ « التجديف » .. وبـ « انحافضة والتقليد » .. وبـ « الوسطية » .. فإلى هنا ، وحتى الآن قد صدرت على الأفغاني ، من الدكتور لويس أربعة أحكام ! ..

● أما الحكم الخامس فهو إيجابي ، ومما يحمد للدكتور لويس ... فبعد أن رأينا يحكم على الأفغاني - من خلال مقالاته الهندية - « بالانحافضة

والتقليد» (٩) - هاهو يحكم عليه - من خلال إحدى هذه المقالات الهندية - مقال [فرائد الفلسفة] - بأنه : « إنساني - تقدمي - جدلي - وفيلسوف اجتماعي من طراز عظيم .. » ! ..

لقد تحدث الأفغانى إلى أهل الجمود من معاصريه ، الذين أضاعوا قدراتهم العقلية فيما لا يفيد الأمة في صراعها ضد التحديات التي تطبق على مستقبلها وتضيق على ذاتيتها الخناق .. تحدث إليهم فقال : « لم تستخدمون آراء هذه العقول الشائعة في حل سفاست المشكلات ؟ ومع ذلك فأنتم لا تفكرون لحظة في هذا الموضوع الخطير الذي ينبغي على كل إنسان ذكي أن يفكر فيه ، ألا وهو : ماسب الفقر والعجز واليأس بين المسلمين ؟ وهل هناك علاج لهذه الظاهرة ، ولهذا الخطب الويل ؟ أم أنه لا علاج لها ؟ ... لما من شك أوريب في أن امراء لا يتفق حياته كلها في حل هذه المشكلة ، ولا يجعل من هذه الظاهرة الخطيرة محور تفكيره إنما يضيع حياته هباء ويتلفها . ولا يصح أن يلقب بفيلسوف . فالفيلسوف هو من يعرف جوهر الأشياء .. »

هنا ، عقب الدكتور لويس فأنصف الأفغانى بقوله : « هذه المواقف الفكرية ، عند الأفغانى ، لاشك كانت مواقف تقدمية في عصره .. بل هي تقدمية حتى في عصرنا هذا ، لأنها تجعل غاية كل علم وكل فلسفة الرقي بالجنم البشري ، ولا سيما بإلغاء الفقر والجهل والمرض وضعف الإنسان أمام الطبيعة وأمام أخيه الإنسان ، فهي فلسفة اجتماعية من طراز عظيم ، بل هي فلسفة جدلية . ترفض للعالم الإسلامى مارفضه فلاسفة النهضة الرينسانس للعالم المسيحي من منطق العصور الوسطى .. » (١٠)

(٩) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦ .

(١٠) [التضامن] العدد ١٦ ص ٦٨ ، ٦٩ .

لقد قال الدكتور لويس كلمة إنصاف للأفغانى ، لكنها جاءت فى إطار التناقضات الصارخة التى اتسمت بها أحكامه على فكره وعقيدته فى السنوات الثلاث التى قضىها بالهند ، بعد نفيه من مصر سنة ١٨٧٩ م .. وهى الأحكام التى تراوحت ما بين « التجديف » .. و « المخافضة والتقليد » .. و « الوسطية » .. و « التقدمية » .. والانسانية - والجدلية - والفلسفة الاجتماعية ذات الطراز العظيم « .. ؟ !



لكن هذا التناقض ، الذى اتسم به تقوم الدكتور لويس لفكر الأفغانى فى « المرحلة الهندية » ، على ما رأيناه به من اجحاف وافتراء ، مما يهون عندما يقاس بالافتراء الذى وجهه الدكتور لويس إلى العقيدة الدينية للأفغانى فيما سماها « بالمرحلة المصرية » ... فلقد بلغ هنا قمة الافتراء عندما اتهم الرجل : بـ « الزندقة » .. وبـ « الإلحاد » ؟ ! ..

لقد نظر الدكتور لويس فيما كتبه ثلاثة من الذين ترجموا للأفغانى : محمد عبده .. وأديب اسحق .. وسليم العنحورى .. فوجد الأول يتحدث عن اعتقاد الأفغانى باعتباره « عالم الدين القيم الايمان » .. ووجد الثانى يصنفه مع « المفكرين الأحرار » .. أما الثالث - سليم العنحورى - فلقد قال عنه ما يعنى أنه « متفلسف ملحد » ! .. فتعلق الدكتور لويس بهذا الوصف الأخير ؟ ! .. وساق العبارة التى أوردها العنحورى وقال فيها عن جمال الدين : « .. إنه قد برز فى علم الأدبان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم ، زاعما أن الجرائم الحيوية المنتشرة فى الفضاء هى المكونة بترق وتخوير طبيعيين .. » ...

لقد كانت عبارة العنحورى هذه هى طلبة الدكتور لويس .. فدافع عن العنحورى ، ونفى عنه كل شبهة أو غرض يدعو إلى الافتراء على

الأفغانى .. ثم عقب قائلا : إن حديث الأفغانى عن تطور الفكر الدينى قبل ظهور أديان التوحيد هو مما يستقيم مع العلم والدين معا .. « وإنما يبدأ الإلحاد - [إلحاد الأفغانى] - حيث يبدأ الحديث « بقدمية العالم » ، وليس بخلقه ، وحيث تنسب الصورة المجردة لذات الله المطلقة فى الزمان والمكان والوجود والصفات إلى خيال الإنسان ، وليس إلى إدراكه للحقيقة ، سواء بالعقل أو من رسالات السماء ^(١١) .. !

ونحن - قبل أن نسوق من أعمال الأفغانى الفكرية ما ينبنى عنه هذا الافتراء - وقبل أن نعرض رأيه فى « قدم العالم وحدوثه » ، وفى « الذات الالهية » ، وفى « النبوة » ، وفى « الخلق أو التكوين الطبيعى والذائق للكائنات الحية » .. قبل أن نحلو للقارئ أولا . وللدكتور لويس ثانيا ! رأى الأفغانى وعقيدته ، من خلال كتاباته « الكلامية - الفلسفية » - نود أن نقوم آراء سليم العنحورى وقيمتها ومصداقيتها ، ليعرف القارئ وزنها ومقدار ما تستحقه من ثقة ، وخاصة إذا ما قورنت بآراء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، أو أديب إسحق عن جمال الدين .. وذلك حتى يعرف القارئ لماذا رجح الدكتور لويس قول العنحورى عن أقوال محمد عبده وأديب إسحق ! ..

لقد كتب العنحورى ترجمته للأفغانى ونشرها فى مقدمة ديوانه [سحر هاروت] .. ولقد أعاد رشيد رضا نشر هذه الترجمة فى الجزء الأول من [تاريخ الاستاذ الامام] .. ونحن إذا تأملنا ما كتبه العنحورى عن جمال الدين ملنا إلى إسقاط روايته ، كمصدر ثقة للتاريخ ، لأن روايته قد امتلأت بالأخطاء والأكاذيب والمفارقات ... فعلى سبيل المثال :

(١١) [التضمن] العدد ٦ ص ٦٩ ، ٧٠ .

١ - يقول العنحورى عن خطبة الأفغانى فى « دار الفنون » العثمانية ،
بالآستانة : إن الأفغانى قد « غالى فيها إلى حد أن أدمج النبوة فى عداد
الصنائع المنعوية .. » (١٢) .

والحقيقة غير ذلك .. وكلام الأفغانى منشور وموثق - وسيأتى إيراد
بعد قليل - والذين ادعوا ذلك هم خصوم الأفغانى من شيوخ الآستانة
الرجعيين .. فالعنحورى إما أنه قد نقل كلام هؤلاء الخصوم .. أو أنه فهم
كلام الأفغانى بمنطق اللاهوت المسيحى الذى تنقصه عقلانية
الإسلام ! ..

٢ - وهو يقول عن الأفغانى : إنه زار مكة ، لمدة عام ، بعد مغادرته
الآستانة ، عقب أزمة محاضرة « دار الفنون » .. وليس هذا بصحيح ..
فلقد غادر الآستانة إلى القاهرة .. كما يزعم العنحورى أن الأفغانى قد تعلم
اللغة العربية بمكة فى هذه الزيارة المزعومة ! .. والثابت المتواتر الشهير أنه
قد تعلمها فى صباه ، وأنه قد شرح للطلبة السوريين الذين كانوا يدرسون
بالأزهر بعض كتب النحو العربى فى زيارته الأولى لمصر سنة
١٨٦٩ م ١٢٠٠ ! ..

٣ - ويقول العنحورى إن رياض باشا [١٢٥٠ - ١٣٢٩ هـ ١٨٣٤ -
١٩١١ م] قد أنزل الأفغانى حجرة فى الجامع الأزهر - [أى أنه قد
سكن فى أروقة الجامع الأزهر] - وأنه - [أى رياض] - قد عين له
راتب مدرس بالأزهر .. والثابت تاريخياً أن الأفغانى لم يسكن بأروقة
الأزهر .. ولم يدرس فيه .. كما لم يكن لشيوخ الأزهر « رواتب » فى ذلك
التاريخ ؟ ! ..

(١٢) [تاريخ الاساتذ الامام] ج ١ ص ٤٤ .

٤ - ويقول العنحورى : إن الأفغانى قد غادر مسكنه بالأزهر إلى منزل « بحارة اليهود » .. والثابت أن مسكنه كان فى « خان الخليلى » . وليس فى « حارة اليهود » ! ..

٥ - ويزعم العنحورى أن الأفغانى قد أراد تحويل مصر إلى « جمهورية » يتولى زعامتها ! ... وفضلا عن تهافت هذا الزعم . فإن رأى الأفغانى فى « الحكم الجمهورى » معروف .. فلقد كان يرى أن بلاد الشرق لم تنهأ لمثل هذا اللون من الحكم فى ذلك التاريخ .. فهو القائل : « أما الحكم الجمهورى فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله .. » (١٣) !

٦ - ويقول العنحورى : إن نفى الأفغانى من مصر سنة ١٨٧٩ م كان عن طريق « بورسعيد » .. والصحيح أنه كان عن طريق « السويس » .. ويقول : إن لخادم الأفغانى « أبو تراب » قد سجن بمصر .. والثابت أنه قد نفى معه ! ..

٧ - ويقول عن الأفغانى : إنه عندما أصدر « العروة الوثقى » - بباريس - « عاود الاستمسك بالدين الحنيف » ! .. وكأنما كان الأفغانى فى بلاد المسلمين لا بتدين ، ثم يعاوده التدين فى باريس ؟ ! ..

٨ - ثم .. إن العنحورى هو أقل الثلاثة - محمد عبده ، وأديب اسحق ، وهو - صحبة لجمال الدين .. فمحمد عبده قد عاشره ولازمه وكان أقرب الناس إلى فكره وحياته اثنى عشر عاما .. أما أديب اسحق فلقد صحبه لسنوات ... على حين لم تزد صحبة العنحورى للأفغانى عن العام ، فلقد جاء إلى مصر سنة ١٨٧٨ م ولما لم يطق تبعات العمل السياسى والفكرى الذى كان يقوده جهال الدين عاد إلى قواعده فى الشام ! ..

(١٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٩ .

٩ - وأخيرا .. فلقد راجع العنحورى نفسه ، عندما لقيه الامام محمد عبده فى الشام ، وأوضح له خطأ قوله بإلحاد الأفغانى .. وبين له أن الأفغانى كان يورد حجج الماديين ليرد عليها ، فمن غير المقبول أن تنسب إليه هذه الحجج باعتبارها آراءه وعقيدته .. فافتنع العنحورى ، ورجع عن اتهامه للأفغانى بالالحاد ، وكتب نقدا لما سبق أن نشره خاصا بعقيدة الأفغانى ، وأذاع هذا النقد على الملأ ، حتى لقد نشره بالصحف السيارة - من مثل صحيفة [لسان الحال] وصحيفة [الجنة] - .. وذكر فى هذا التصحيح أن المصدر الذى جعله يقول ماقال هو ما تلقاه « عن بعض المصريين والسوريين .. » - فلم يكن الرجل كاتباً لما كتب أولاً بناء على السماع المباشر من جمال الدين .. كما هو حال محمد عبده ، الذى كتب ترجمته للأفغانى بناء على « طول العشرة وكمال الخبرة » .. فهو - بشهادة العنحورى ذاته ، بل وبألفاظه : « أعز أخلاء الحكيم » الأفغانى ! - .. ولقد أعلن العنحورى فى تصحيحه لما سبق وكتبه عن عقيدة الأفغانى .. أعلن : أنه « لم يبق محل للريبة فى كمال اعتقاد الأفغانى وجلاء بقيهته .. » (١٤)

لكن الدكتور لويس لا يقيم وزناً لكل هذه الحقائق الناصعة الوضوح .. إنه يتعلق بالرواية المعيبة ، المليئة بالأخطاء والمفارقات ، ويعتمد على أقل المصادر ثقة وخبرة وعشرة للأفغانى بل ويتشبث بالرأى الذى رجع عنه صاحبه ، وانتقد نفسه على ابدائه ، وأذاع نقده هذا على الملأ من الناس ! ؟ ..

ذلك هو الدكتور لويس فى الموقف من الأفغانى .. وفى أى

(١٤) [تاريخ الامتياز الامام] ج ١ ص ٤٢ - ٥١ .

القضايا ؟ .. في الأخطر منها .. في الحكم على الضائر والسرائر والعلاقة الخاصة بين العبد ومولاه ! ..

وإذا كان هذا هو مكان الرواية التي اعتمد عليها الدكتور لويس في اتهام الأفغانى بالزندقة وبالإلحاد .. فإن حظها الوافر من التهافت - ورجوع صاحبها عنها - لا يجعلنا نكتفى بما قدمناه .. إذ لابد من جلاء موقف الأفغانى - من خلال أعماله الفكرية وكتابات « الكلامية » - من القضايا التي اتهمه بسببها الدكتور لويس بالزندقة وبالإلحاد ..

فما هو موقف الأفغانى من : « قدم العالم أو حدوثه » ؟ .. ومن مقولة « التكون الذاتى والطبيعى للكائنات الحية » ؟ .. ومن « الدين ، كوضع إلهى وحقيقة موضوعية » ؟ .. ومن « النبوة .. وعلاقتها بالحكمة - [الفلسفة] - » .. ما رأى الأفغانى في هذه القضايا ، التي هي - في الفكر الدينى - أمهات في صدق التدبىر ، وركائز في سلامة الاعتقاد ؟ ؟ ..

● لم يقل الأفغانى « يقدم العالم » ، بل قال « بحدوثه » ! .. ورأيه هذا ثابت ومعلن وشهير .. أوضحه بجلاء في مجلس علمه الذى شرح فيه أمهات كتب المنطق والتصوف والكلام والأصول لتلاميذه ، في السنوات الأولى لإقامته بمصر .. والناظر في تعليقاته على [شرح الدوائى للعقائد العضدية] - وهى [التعليقات] التى تمثل نصا « كلاميا - فلسفيا » على المستوى ، يضع الأفغانى في مصاف عظماء فلاسفة الإسلام - إن الناظر في هذه [التعليقات] - التى فرغ الأفغانى من إتمامها أواخر ذى الحجة سنة ١٢٩٢ هـ - أوائل سنة ١٨٧٦ م - والتي دونها محمد عبده - يجد موقف الأفغانى المنحاز إلى « حدوث العالم » واضحا ومحددا وجليا وحاسما لا يحتمل اللبس أو الغموض أو التأويل .. فهو - بعد أن عرض آراء الفلاسفة والمتكلمين في هذه القضية - ص ٢٢٣ وما بعدها - أعلن انحياز

إلى جانب القائلين بحدوث العالم ، بما يستلزمه هذا القول من إيمان بالخالق ، الذى أحدث هذا العالم .. يقول الأفغانى : « واتفق أهل الحق على أن للعالم - الذى قد ثبت حدوثه - محدثاً أزلياً ، أبدياً ، لم ينقطع وجوده فى آن من الآتات الماضية ، ولا ينقطع فى آن من الآتات المستقبلية . واستدل أصحابنا على ذلك بأن العالم مُحدث - بالفتح - وقد سبق دليله - وكل مُحدث فله مُحدث - بالكسر - بالضرورة ، إذ من البديهي أن المعدوم لا يوجد إلا بموجد ، فوجوده إما أن يكون ذاته ، أو ينتهى إليه ، فيدور ، أولاً يكون ذاته ، ولا ينتهى إليه ، بل يذهب حادثاً عن مُحدث . لا إلى نهاية ، فيتسلسل ، أو ينتهى إلى ما ليس بحادث ، وهو القديم . والدور باطل ، بالضرورة ، والتسلسل ، بالبرهان ، ثبت الثالث . فالعالم ينتهى إلى مُحدث قديم ، فهو أزلى ، وما كان أزلياً . استحال أن لا يكون أبدياً .. » (١٥)

إنه ، هنا ، يقطع بحدوث العالم ومافيه . عن مُحدث أحدثه ومافيه . هو الله ، سبحانه ، الأزلى الأبدى ... فأين قوله المزعوم « بقدم العالم » . و « بالتكون الذاتى للكائنات الحية » ؟ .. الذى زعمه الدكتور لويس ؟ ! ..

ليس من حق الدكتور لويس أن يتعلل بأنه لم يقرأ [تعليقات] الأفغانى على شرح الدوائى للعقائد العضدية .. ولا بأنه قد قرأها فلم يستطع فقه مضامينها ، كنص إسلامى كلامى متخصص ! .. فالكتاب لديه . قد أهدبته نسخة منه منذ سنوات .. وكان عليه أن يسأل أهل الذكر إن استغلق عليه فقه هذه النصوص ! ... ثم ، ماعذره . وهو الذى رجع -

كما يشير في «دراسته» - إلى رسالة [الرد على الدهريين] - ماعذره .
 عندما يتهم الأفغانى بالقول « بقديم العالم » و « بالتكون الذاتى والطبيعى
 للكائنات الحية » . وفى [الرد على الدهريين] نصوص للأفغانى تنقض
 هذا الاتهام من الأساس ؟ ! .. فى [الرد على الدهريين] يعرض الأفغانى
 لآراء القائلين بقديم العالم ويتكون الجرائم بالترقى والتحوير الطبيعيين ..
 يعرض لها بالنقد والنقض والتفنيد ... فيقول : « وذهب فريق آخر إلى أن
 الأجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه من أزل الأزال
 ولا تزال . ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات ، وزعموا أن فى كل
 بذرة نباتا مندمجا فيها ، وفى كل نبات بذرة كامنة .. الخ ... »

ثم يمضى ليرد هذا الزعم بقوله : « وغفل أصحاب هذا الزعم عما
 يلزمه من وجود مقادير غير متناهية فى مقدار مثناه . وهو من الغلالات
 الأولية » .

وبصدد تكون الجرائم .. يعرض رأى الماديين فيقول : « ولما كشفت
 علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقديم الأنواع ، رجع
 المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث . ثم اختلفوا فى بحثين :

الأول : بحث تكون الجرائم النباتية والحيوانية . فذهب جماعة إلى أن
 جميع الجرائم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ التهاب الأرض فى
 التناقص ، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضى . وذهبت
 أخرى إلى أن الجرائم لم تزل تتكون إلى اليوم ، خصوصا فى خط الاستواء
 حيث تشتد الحرارة . وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك
 الجرائم حياة نباتية أو حيوانية » ! ..

ثم يمضى الأفغانى فيفند كل مذاهب الماديين والطبيعيين والدهريين .
 ناقضا « مزاعمهم » ، ساخرا من « أوهامهم » ومن « مذهبهم العاقل » ..

فيستغرق «تفنيده» هذا في أعماله الكاملة ست صفحات . بعد أن عرض
مذهبهم في صفحات ثلاث (١٦) ١٩

فلم لم تلتفت هذه النصوص - في [الرد على الدهريين] - نظر الدكتور
لويس ؟ أم ، ياترى ، قد حلت منها الطبعة الانجليزية التي أحضرها له
الأمريكان في جامعة «لوس أنجليس» ، ضمن ما أحضروا له من أوراق
ليكتب ما كتب عن جمال الدين ؟ .. أم تراه قد قرأ هذه النصوص .
ومع ذلك مضى في رمي الأفغانى بالزندقة وبالإلحاد ، متقولا عليه وناسبا
إليه عكس الذى كتبه الرجل في [الرد على الدهريين] ؟ ..

وإذا كانت هناك حاجة لمزيد من الوضوح لرأى الأفغانى بصدد هذه
القضية - قضية وجود الخالق ، واستناد الحياة والأحياء إلى «خلقه» لها ..
فإن في أعمال الأفغانى الفكرية المزيد من النصوص ، ففي نقضه لمذهب
الطبيين الماديين من أنصار دارون Darwin [١٨٠٩ - ١٨٨٢ م] ومذهب
النشوء والارتقاء ووحدة أصل الأنواع ، يقول الأفغانى : «إن الغاية من
مذهب الطبيعيين : إنكار الخالق . وإستناد الأعمال إلى الطبيعة ... ولقد
قال دارون بالنص الواحد : «إنى أرى أن الأحياء التى عاشت على هذه
الأرض جميعها من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة
الحياة ... ولكن قوله هذا لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين ... واتهموه
بالخوف من أهل دينه ، وقالوا : إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصا ، بل
ينقضه من أساسه ... فالنقطة الجوهرية هى (موجد نسمة الحياة) ..» (١٧)

هكذا حدد الأفغانى مواطن خلافه مع الماديين .. فالعالم عنده

(١٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٣٢ - ١٣٩ .

(١٧) المصدر السابق . ص ٢٥٢ .

مُحدَث ، صدر عن محدث ، أزلَى أبدي ، ولم تتكون الحياة فيه ولا الأحياء بالنشأة والتحويل الذاتيين الطبيعيين ، كما زعم الماديون ! ..
ورغم أن الأفغانى قد انحاز - كما أشرنا - إلى القول بحدوث العالم ، فإنه لم يحكم « بالكفر » ولا « بالزندقة » ولا « بالإلحاد » على الذين قالوا إن العالم قديم ... فالرجل كان متخلقا بأخلاق الفلاسفة والعلماء .. ولم يكن أسيرا لتعصب « الخوارج » ولعصبية « جماعات التكفير » ؟ ! .. ثم إنه ابن حضارة تميزت بالعقلانية ، حتى لقد تدينت فلسفتها ، كما تفلسف فيها الدين ، فلم تعرف الفصام الحاد بين علوم الشرع وعلوم العقل ... وهو وارث تراث فكرى قال كثير من أعلام فلاسفته ومتكلميه بقدم العالم وبخالق قديم ، أزلَى وأبدي ، لهذا العالم القديم ! ! .. إنها قضية معقدة وصعبة حقا .. لكنها مطروقة في فكرنا الاسلامى ، أفاض فيها ابن رشد .. وانحاز إليها المعتزلة ... ولمنطقها في تراثنا بناء شامخ يقصده الطالبون والراغبون ^(١٨) ! ..

لم يقل الأفغانى بكفر من ذهب إلى أن العالم قديم .. وافرأ ، معى ، كلامه - الذى يأتي درسا في أدب البحث والنظر والحوار ! .. يقول الأفغانى : « واعلم أنى وإن كنت برهنت على حدوث العالم ، وحققت القول فيه ، على حسب ما أدى إليه فكرى ، ووقفنى عليه نظرى ، فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا ، وأنكروا به ضروريا من الدين القويم . وإنما أقول إنهم أخطأوا في نظرهم ، ولم يسددوا مقدمات أفكارهم . ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ، ولم يعول على التقليد في الاعتقاد ، ولم تجب عصمته ، فهو معرض للخطأ ، ولكن

(١٨) انظر كتابنا [المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م

خطأه عند الله واقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ، ومقصده من تمحيص نظره ، أن يصل إلى الحق ، ويدرك مستقر اليقين ، وكل من اعتقد بالالوهية الثامة ، وتره الحق عن جميع النقائص ، واعتقد بنبيينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به ، ولم يكذب شيئا مما نقل عنه ، مع علمه بأنه قد نقل عنه ، فهو مؤمن ناج ، عدل رضى عند الله تعالى [لا يكلف الله نفسا إلا وسعها] ^(١٩) . وعلى المرء أن يسعى إلى الخير جهده ، فإياك أن تنهج نهج التعصب فتهلك ! ^(٢٠) ..

فأصول الدين ، عند الأفغانى ، هي : الألوهية .. والنبوة .. والمعاد .. وهو قد دعا إلى تزامن «العقل» و«النقل» وتعاونهما على تحصيل الإيمان اليقيني بهذه الأصول .. فكذب يقول - بعد أن عرض آراء الفرق المختلفة في سبيل تحصيل الإيمان - : « .. والحق الذى يرشد إليه الشرع والعقل : أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوات ، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكنه الألفاظ ، إلا فيما يتعلق بالأعمال ، على قدر الطاقة ، ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده ، بالبراهين الصحيحة ، كأن ما أدت إليه ما كان ، لكن بغاية التحرى والاجتهاد ، ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه ، فوجده بظاهره ملائما لما حققه ، فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليطرق عن التأويل ، ويقول [آمنا به كل من عند ربنا] فإنه لا يعلم مراد الله ونبيه إلا الله ونبيه ... ولا بد في كمال النجاة ، ونيل السعادة الأبدية من أن يتضم إلى ذلك : التخلي عن الرذائل ، والتحلى بالأخلاق الكاملة ، والأعمال

(١٩) البقرة : ٢٨٦ .

(٢٠) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ١ ص ٢٨٠ .

الفاضلة . ومن تلك الأخلاق والأعمال : تكميل قوة النظر . وارتكاب طريق العدل في كل شيء ، إذ لا ريب أن كل من خالف ما كان عليه النبي وأصحابه .. فهو في النار ..» (٢١)

ترى .. هل يمكن أن يكون هذا كلام من يرى أن الدين ليس إلا مجرد مؤسسة اجتماعية وقومية ، ينحصر نفعها في دفع الجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسي أو بناء الامبراطوريات ؟ .. كما قال الدكتور لويس عوض عن عقيدة جمال الدين ؟ .. !!

وهل يمكن أن يكون هذا كلام من لا يؤمن بالدين كحقيقة موضوعية ؟ .. !!
وهل يمكن أن يكون هذا فكر «محدف» و«ملحد» و«زنديق» ؟ .. !!

لكن .. ما بالناس نلجأ إلى التساؤل ، ونطلب من القارئ أن يلجأ إلى الاستنتاج .. وللأفغانى نصوص واضحة وحاسمة في أن «الدين : وضع إلهي» - وهو تعريفه الأخص عند المؤمنين - .. يقول الأفغانى ، في هذا الموضوع : « .. أقول كلمة حق في الدين . ولا أظن منكراً يحددها : الدين وضع إلهي ، ومعلمه والداعى إليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين ، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين . وهو عند جميع الأمم ، أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الأفتدة ويصغ النفوس بعقائده . وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الأبدان على ما ينشأ من الأعمال وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبره بدنها .

(٢١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

وكأنما الإنسان في نشأته لوح صقيل ، وأول ما يخط فيه رسم الدين ثم يبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده ، وما يطرأ على النفوس من غيره فإنما هو نادر شاذ ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات ، بل تبقى طبيعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال !...» (٢٢)

هكذا الدين ، عند جمال الدين ... وضع إلهي ... وليس مجرد مؤسسة اجتماعية ... وحقيقة موضوعية مجردة ... وليس مجرد غائد يفيض السعادة على الفرد والمجموع ... ولا بد من تزامن العقل والنقل في تحصيل الإيمان اليقيني بأصوله ، التي هي : الألوهية التامة المنزهة ... والنبوة ... والمعاد ... فهل بعد ذلك حاجة للمزيد من الإيضاح لفكر الأفغاني عن «الدين» ؟ .. وهل يوجد - مع هذا الفكر - مجال لاتهم الرجل بالتجديف والزندقة والإلحاد ؟ ! ..

غير أن هناك جزئية من جزئيات افتراء الدكتور لويس على عقيدة الأفغاني لا بد وأن نعرض لها فنجلو وجه الحق فيها .. فالدكتور لويس لم يهتم الأفغاني «بانكار» النبوة .. وإنما اتهمه بوضعها مع «الحكمة» - [الفلسفة] - على قدم المساواة ، أو التشابه على أقل تقدير .. وزعم أن الأفغاني يفترض وجود التناقض بين الشريعة الإلهية التي تأتي بها النبوة ، وبين العقل والحكمة المستفادين من قبل الحكماء .. واتهم الأفغاني - لذلك - بـ «الزندقة» .. بل وذهب إلى أن «هذا النوع من الزندقة ليس جديدا في الأفغاني ولا مستغربا منه» ! .. ثم مضى في الافتراء فادعى أن

(٢٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٨٣ .

« محمد عبده ، وسواه » قد قالوا إن هذا هو رأى جمال الدين ؟ ! ... (٢٣)

فما هو وجه الحق في هذا الموضوع ؟ ..

لقد بدأت القصة بمحاضرة الأفغانى عن « الصناعات ... وفلسفتها » فى « دار الفنون » العثمانية ، بالآستانة فى رمضان سنة ١٢٨٧ هـ - ديسمبر سنة ١٨٧٠ م .. وفى هذه المحاضرة تحدث الأفغانى عن دور كل من « النبوة » و « الحكمة » فى تحريك « جسم السعادة الإنسانية » ، بعد أن تحدث عن « الصناعات » باعتبارها الأعضاء لبدن المعيشة الإنسانية الحى .. ولكن الرجل لم يساو بين « النبوة » و « الحكمة » ، وإنما تحدث عن « الفروق » بينها ، فقال : « .. ويفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب ، يختص الله بها من يشاء من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . أما الحكمة فما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات .. وبأن النبى معصوم من الخطأ ، والحكيم يجوز عليه الخطأ ، بل يقع فيه .. وأن أحكام النبوات آتية على ما فى علم الله ، لا يأتيناها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فالأخذ بها من فروض الإيمان . أما آراء الحكماء فليس على الذم فرض اتباعها إلا من باب الأولى والأفضل ، على شريطة أن لا تخالف الشرع الإلهى .. » (٢٤)

لكن شيخ الإسلام العثماني ، حسن أفندى فهمى ، انتبهزها فرصة للتشنيع على الأفغانى ، فزعم أن الرجل قد تحدث عن « النبوة » كصنعة . لأنه عرض لها فى محاضرة عن « الصناعات » ؟ ! .. وحدثت ، لذلك تلك الأزرمة التى سبقت إشارتنا إليها ..

(٢٣) [التضامن] العدد ٥ ص ٦٩ .

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٤٨ .

أغلب شؤون الدنيا بشرع لها «العقل» الإنسانى . فى ضوء روحها ، وبما يحقق مصلحة مجموع الأمة . ويلائم الزمان والمكان ... فوجود «الشريعة» الصالحة لكل زمان ومكان . لا يغنى عن «العقل» اللازم لتطبيق روحها ، وللتشريع وفق مقاصدها ، وللإبداع فى الميادين والمشكلات التى لم تعرض لها نصوصها .. تلك بديهة إسلامية .. وهى واضحة كل الوضوح .. لكن . تعالوا لئرى تعليق الدكتور لويس على تلك البديهة الإسلامية التى تحدث بها الأفغانى فى محاضرته ... يقول فى تعليقه : «وهذا أيضا زندقة بالنسبة لمن يعتقد أن أصول الدين والشريعة صالحة لكل عصر ولكل بيئة ، لأنه قول يفترض تناقضها مع العقل فى بعض العصور وفى بعض البيئات» ١٢ ..

هكذا «فهم» الدكتور لويس !! .. ثم عقب ، فقال : «وعلى كل فهذا النوع من الزندقة ليس جديدا فى الأفغانى ولا مستغربا منه» ١٢ .. وفى اعتقاده أن المرء محتاج إلى «حلم الحكماء» ، بل وإلى «صبر أيوب» كى لا يغضب ويثور من هذا الذى «فهمه» وكتبه الدكتور لويس ! .. إذا كان الحديث عن «الشريعة الإلهية» وعلاقتها «بالعقل» ، كما يراها الاسلام ، من المباحث الصعبة على بعض الأفهام ، فسأضرب للدكتور لويس مثلا من حياتنا الحديثة والمعاصرة والمدنية ..

إذا كان وجود «الدستور» لا يغنى عن ضرورة وجود «الفقهاء الدستوريين» ، الذين يفقهونه ويقسرونه ويرعون تطبيقه .. فإن وجود «الشريعة الإلهية» لا يغنى عن ضرورة وجود «العقلاء الحكماء» الذين يفسرونها ويطبقونها على شؤون الحياة .. ولما كانت الشريعة قد وقفت عند «الكليات» وتناهت نصوصها على حين لم ولن تتناهى المشكلات المستحدثة فى الحياة ، فإن وجود «الحكماء» وضرورة «العقل» للتشريع

وللإبداع فيما لا نصوص فيه هو ضروري ، ومن ثم فلا تناقض بين « الشريعة » وبين « الحكمة » ، وضرورة « العقل » لا تنفي خلود الشريعة وصلاحياتها لكل زمان ومكان ! ..

كذلك .. فإن وجود « الدستور » - الذي هو أبق القوانين .. وقانون القوانين - لا يعني إنكار ضرورة وجود « المشرعين القانونيين » ، الذين يشرعون روح الدستور قوانين تحكم جزئيات الحياة ..

وبالمثل .. فإن وجود « الشريعة الإلهية » ، لا يعني إنكار ضرورة « العقل » و« الحكمة » ، فهما أداة المؤمنين بالشريعة إلى تطبيق روحها على جزئيات الحياة ! ..

والأفغاني ، عندما قال بضرورة « الشريعة » و« العقل » .. ولزوم « النبوة » و« الحكمة » ، إنما كان مسلماً يعي حقيقة الإسلام .. ومتديناً أعمق التدين .. بل ومتأسياً سنة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي قال : في تعريف « الحكمة » : إنها « الإصابة في غير النبوة »^(٢٦) ؟ ! .. كما قال : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »^(٢٧) ! .. صدق رسول الله ..

فهل بعد ذلك مجال لاتهام الأفغاني بـ « التجديف » .. و« الزندقة » .. و« الإلحاد » ؟ ! ! ..

هل ، بعد ذلك ، مجال - يا عزيزنا الدكتور لويس ؟ !

(٢٦) رواه البخاري .

(٢٧) رواه الترمذي وأبو داود .

هل كان الأفغانى

إيرانيا ؟ .. وشيعيا ؟ .. بل وبابيا ؟ ! ..

إذا شئنا الدقة فإن « وطن » جمال الدين الأفغانى هو كل « عالم الإسلام » ! .. فهو لا يشرف إلا إذا انتسب إليه جميعه ، لا إلى إقليم واحد من أقاليمه .. وبالمثل ، فليس هناك - فيما اعتقد - إقليم من أقاليم « عالم الإسلام » إلا ويشرفه أن يكون له من شرف الأفغانى وعظمته حظ ونصيب ! ..

ولقد كان للجدل والخلاف حول « وطن » جمال الدين ، وهل هو إيران ؟ أو أفغانستان ؟ .. وكذلك حول مذهبه ، هل هو الشيعة ؟ أم السنة ؟ .. لقد كان لمثل هذا الجدل أن يظل فى إطاره الطبيعى والمقبول والمألوف .. فعظماء الرجال ، عادة ، تتجادلهم وتدعيهم المذاهب والأجناس والأوطان ! .. وفى تراثنا العربى والإسلامى عشرات الشواهد والأمثلة فى هذا المقام ..

● فالإمام على بن أبى طالب [٢٣ ق. هـ - ٤٠ هـ - ٦٠٠ - ٦٦١ م] والأئمة من بنيه تتنازعهم الفرق - كلامية وصوفية - بل وطوائف الحرف والصناعات ؟ ! ..

● والحسن البصرى [٢١ - ١١٠ هـ - ٦٤٢ - ٧٢٨ م] يتنازعه المعتزلة والأشعرية والصوفية ، وعامة الزهاد ! ..

● وكثير من علمائنا وأعلامنا تجد لهم مكانا في معاجم أعلام المذاهب السنية .. في ذات الوقت الذي تختصهم وتزدان بهم كتب الأعلام عند الشيعة ! ..

ذلك أمر مألوف في تراثنا وتاريخنا .. وفي غيره من موارث الأمم والحضارات ..

ثم إن الإسلام قد غدا لأهله جنسية ووطنا .. وصار كل بلد تعلو فيه راية التوحيد جزءا لا يتجزأ من وطن الموحدين لله .. فهو قد أقام لأهله «أمية» ضمت الأجناس واللغات والأقاليم التي دانت لله بالوحدانية وصدقت بنبو محمد بن عبدالله ، عليه الصلاة والسلام .

والإيرانيون إذا تعلقوا بجمال الدين ، وقالوا إنه من مواليد «أسد آباد» ، طلبا لأن يشرفوا به .. فذلك مفهوم ، حتى وإن خالفهم آخرون .. وكذلك الأفغانيون ، إذا هم قالوا : بل هو من مواليد «أسعد آباد» الأفغانية ، فذلك مفهوم ، حتى وإن اختلف معهم الإيرانيون ! .. وكذلك «السنة» : إذا قالوا : إنه منا ... و«الشيعة» : إذا قالوا : لقد كان على مذهبتنا .. كل ذلك مفهوم .. والخلاف فيه مألوف ومشروع ! ..

أما الرجل ، فلن يعيه أن يكون إيرانيا أو أفغانيا .. ولن ينقص من قدره أن يكون شيعيا أو سنيا .. لأنه «مسلم» تشرف به كل أقاليم الإسلام وجميع مذاهبه .. كما شرف عالم الإسلام ويشرف بالأعلام البارزين من السنة والشيعة ، أفغانين وإيرانيين .. وفيما وراء إيران وأفغانستان ! ..

لكن الذي جعل قضية الخلاف حول «الموطن» الذي ولد فيه جمال الدين الأفغاني .. وحول «المذهب» الديني الذي تمذهب به تأخذ بعدا

آخر ، أخرجها من هذا الإطار المألوف ، هو أن الذين ادعوا إيرانيته وشيعيته قد أرادوا ، من وراء هذه الدعوى ، إثبات «كذب» الرجل .. فلقد قال عن نفسه إنه أفغانى .. ونطقت أفكاره وكتاباتاته بأنه سنى .. ثم جاء منشأ الادعاء بأنه إيرانى شيعى من خصومه وخصوم دعوته التجديدية التحريرية - فى السنوات الأخيرة من حياته - وهى تأتى اليوم - أساسا - من الذين يناصبونه العداء ، باعتباره الرمز والرائد لحركة «الصحة الإسلامية» التى يكرهون ؟ ! ..

فالمقصود الأساسى من وراء دعوى إيرانيته وشيعيته ليس إضافة محمده وشرفه لتختص بهما إيران والشيعة الاثنى عشرية - ولو كان الأمر كذلك لما استحقت القضية نقاشا - بل ولما كان هناك قضية للنقاش ! .. وإنما المقصد هو هدم «الرجل - الرمز» .. ومن ثم فإنها دعوى معادية لتراث إيران المسلمة ، ولمجد الشيعة الاثنى عشرية .. كما هى معادية لتراث أفغانستان المسلمة ولمجد المذهب السنى .. لأنها معادية ، فى الأساس ، «للرجل - الرمز» الذى يعتز به الجميع ! ..

تلك هى الوضعية التى جعلت وتجعل «جنسية» الأفغانى و«مذهبه» قضية تستحق البحث الذى يحلوجه الحقيقة فيها للقارئ العربى والمسلم ، من كل الأقاليم وجميع المذاهب وسائر القوميات ..

كذلك ، فإن موطن الخلاف وموضع الجدل محدد ومحصور فى «موطن» ميلاده .. وفى «المذهب» الكلامى الذى تمذهب به .. أما «الوطن» الذى تعلق به الرجل ، وناضل فى سبيله .. فهو - كما قلنا - كل عالم الإسلام .. فهو - كما يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق [١٣٠٢] - ١٣٦٦ هـ - ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] - : «لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن ، ولم تدخل فكرة الوطنية ، بهذا المعنى ، فى مذهب الاجتماعى ...

وللممالك الشرقية الإسلامية حب في نفسه ينظمها جميعا .. (١) .. وعندما تحدث الأفغاني عن «مواطن» اهتمامه ، التي وهب لها حياته النضالية ، تحدث عن الشرق كله . فقال : «الشرق ! الشرق ؟ ! .. لقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ونحوى دوائه ! ..» ثم أخذ يعدد بلاده ، فذكر أفغانستان .. والهند .. وإيران .. وجزيرة العرب .. وايمن .. ونجد .. والعراق .. والشام .. ومصر .. والأندلس «وكل صقع ودولة من دول الإسلام» .. (٢)



ومن الطبيعى - الذى استقر عليه الباحثون وتعارفت عليه مناهج التأريخ - أن المصدر الأول في «الترجمة» هو ما قال صاحب هذه «الترجمة» - إذا لم تقم الأدلة الوثائقية بالتشكيك فيما قال - .. ولحسن الحظ فإن جمال الدين الأفغاني ، ومعه كل الأئمة والأعلام والعلماء الذين عاصروه وجاءوا من بعده فأرخوا حياته . قد أجمعوا على أن «الموطن» الذى ولد فيه هو قرية «أسعد آباد» الأفغانية ، إحدى قرى مقاطعة «كنر» ، بالقرب من «كابل» ، عاصمة أفغانستان ..

● فجمال الدين ، عندما تحدث عن حياته النضالية ، وعن اهتماماته قال : «لقد نظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان . وهى أول أرض مس جسدى ترابها ، ثم الهند - وفيها تثقف عقلى - فايران ، بحكم الحوار والروابط ، وإليها كنت صرفت بعض همى ، فجزيرة العرب . من حجاز مهبط الوحي ومشرق أنوار الحضارة . ومن يمن وتباعتها وأقبال

(١) مقدمة طبعة مجموعة [العروة الوثقى] ص ١٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

حمير فيها ، ونجد ، وعراق وبغداد وهارونها ، ومأمونها ، والشام ودعاة
الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها .. ومصر روح الممالك الإسلامية وباب
الحرمين الشريفين .. وهكذا ، كل صقع ودولة من دول الإسلام في
الشرق .. »^(٣)

في هذا النص يحدد الأفغاني أن أفغانستان « هي أول أرض مس
جسمه ترابها » .. فهي « الموطن » الذي ولد فيه .. ومن ثم فهو « أفغاني »
بشهادته هو . كمرجع أول في الترجمة ، ومصدر أوثق في التأريخ ..
وفي نص آخر ، يتحدث جمال الدين عن سيرته الذاتية ، فيقول - في
معرض المسائل عن جدوى ومنفعة كتابته - أو إملائته - هذه السيرة
الذاتية - يقول : « وأي نفع لمن يذكر أنني ولدت سنة ١٢٥٤ هـ .
وعمرت أكثر من نصف عصر ، واضطرت لترك بلادي « الأفغان »
مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض ، وأكرهت على مبارحة الهند .
وأجبرت على الابتعاد عن مصر . أو إن شئت فقل نفيت منها . ومن
الآستانة ، ومن أكثر عواصم الأرض ! ... »^(٤)

في هذين النصين يقطع الرجل بأن أفغانستان هي موطنه الأصلي ،
وأن إيران هي جارة موطنه . تربط بينهما الروابط ..

● وكل الأعلام الذين أرخوا لحياته . المعاصرون له منهم
واللاحقون . عربا كانوا أو عجم ، مسلمين كانوا أم غير مسلمين - باستثناء
من جعل خصوم الرجل ، بدلا منه ، المصدر الثقة في التأريخ له - كما

(٣) المصدر السابق . ص ٢٩٥ . ٢٩٦ . ٢٤١ .

(٤) المصدر السابق . ص ٥٣٧ .

سنفصل القول فيه وفيهم بعد قليل - قد أجمعوا على أنه « أفغانى » المولد والنشأة .

فالإمام محمد عبده ، وهو العمدة والحجة الثقة فى التاريخ للجمال الدين ، يقول : « وإنا لنذكر مجملًا من خبره ، نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة : هذا هو السيد محمد جمال الدين .. من بيت عظيم فى بلاد الأفغان .. ولد السيد جمال الدين فى قرية « أسعد آباد » ، من قرى « كتر » .. من أعمال « كابل » ^(٥) »

ومع محمد عبده ، فى هذه القضية ، اتفق : رشيد رضا ، وحسن البنا ، وعبد الحميد بن باديس ، وعبد القادر المغرنى ، ومحمد باشا الخزومى ، وشكيب أرسلان ، وعبد الله التديم ، ومصطفى عبد الرازق ، وأديب اسحق ، ومحمد الفاضل بن عاشور ، وسليم نقاش ، وسليم العنحورى ، وجرجى زيدان ، ومحمد المويلحى ، وإبراهيم اللقانى ، وإبراهيم الملباوى ، وسعد زغلول ، ومحمد إقبال ، وعباس العقاد ، وأحمد أمين ، وعبد الرحمن الرافعى ، ومالك بن نبي ، والدكتور محمود قاسم ، والفيكونت فيليب دى طرازى .. وجمهرة علماء وأعلام العرب والمسلمين الذين أرحوا لجمال الدين أو عرضوا لسيرته فيما كتبوا عن تحديد الإسلام ..

وكذلك صنع أغلب المستشرقين .. من « بلنت » إلى « رينان » ، إلى « جولدمير » ، إلى « تشارلز آدمز » ، إلى « لوثروب ستودارد » ، الذى قال عنه : « إنه أفغانى الأرومة » ، لا فارسى .. ^(٦) إلى المستشرق

(٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٦) [حاضر العالم الإسلامى] جلد ١ ج ١ ص ٣٠٥ .

السوفيتي «لوتسكي» ، صاحب كتاب [تاريخ الأفطار العربية الحديث] .. الخ .. الخ ..

هذا هو الإجماع .. إجماع العلماء والمؤرخين والمفكرين على «أفغانية» جمال الدين ..

لكن الدكتور لويس عوض - كما هي العادة - جاء ليرفض هذا الإجماع لا لأن «إيرانية» الأفغاني - التي قال بها - أحب إليه من «أفغانيته» - التي أجمع عليها العلماء والمفكرون والمؤرخون .. وإنما ليظهر الرجل بمظهر «الكاذب» ، الذي خدع العالم أجمع عندما أخفى «إيرانيته» و«شيعيته» ، وأوهم الجميع أنه «سنى» من «أفغانستان» ! ..

ولقد كان لابد للدكتور لويس . وهو يرفض إجماع العلماء والمفكرين . من أن يتخذ لنفسه مراجع أخرى غير أعمالهم العلمية . فكان صريحاً عندما قال لنا إن مراجعته هي تقارير الجواسيس التي ضمتها الملفات السرية لأجهزة الأمن والاستخبارات في عواصم الاستعمار التي حاربت جمال الدين ؟ ! ..

قال الدكتور لويس في «دراسته» عن الأفغاني : «لقد أوهم كل من عرفهم . في مصر وأوروبا . أنه أفغاني بالمولد والنشأة . فلا نجد إشارة إلى إيرانيته إلا في الملفات السرية الأوروبية . وفي جوازات السفر التي كان يزوده بها قناصل إيران . وهي مصورة في الوثائق البريطانية ..»^(٧)

ورغم أن الدكتور لويس ناقل لوجهة النظر هذه عن الكتابات الاستشراقية الحديثة ، التي كتبها صهاينة وأشباه صهاينة . والتي أشرنا إلى

(٧) [التضامن] العدد ٦ ص ٦٨ .

قيمتها عند تقويمنا لقيمة «المصادر» التي استند إليها في «دراسته»... ورغم الشذوذ الذي يبدو في موقف من يأتي ليعارض المصادر التاريخية التي كتبها العلماء والمفكرون والمؤرخون بتقارير الجواسيس وملفات أجهزة الأمن والاستخبارات الاستعمارية.. رغم كل ذلك فإننا سنمضي لننظر فيما استند إليه الدين قالوا «بايرانية» جمال الدين.. لنرى هل هذه «الأوراق» حظ من الصدق يكسبها شيئا من الاحترام!..

في دراسة الدكتور لويس هناك تركيز على «أوراق» أربعة نقول إن جمال الدين ليس أفغانيا.. أو تشكك في أفغانيته.. فلننظر في هذه «الأوراق»..

١- «الورقة» الأولى هي ذلك «التقرير الذي كتبه موظف في حكومة كابول سنة ١٨٦٨ م كان يعمل جاسوسا لحساب الانجليز. والتقرير بعنوان [سجل بأوصاف السيد الرومي]...»^(٨).. وكما سبق وتحدثنا عن هذا التقرير.. فليس فيه ما يدل على أن المعنى به هو جمال الدين.. فهو يتحدث عن «سيد رومي».. أي «شريف تركي».. وهذا تناقض.. لأن «السيد» هو العربي من آل بيت الرسول.. عليه الصلاة والسلام.. ولا يمكن أن يكون «التركي» عربيا من آل بيت الرسول!.. ثم إن هذا التقرير يصف «السيد الرومي» سنة ١٨٦٨ م بأنه «يتكلم التركية بطلاقة».. ومعروف.. كما ذكر الدكتور لويس.. أن جمال الدين عندما زار الآستانة.. بعد ذلك التاريخ.. لم يكن باستطاعته أن يلقى محاضراته في «دار الفنون» باللغة التركية.. لأن معرفته باللغة التركية كانت ناقصة!.. فكتب هذه المحاضرة التي ألقاها في سنة ١٨٧٠ باللغة العربية^(٩).. ثم.. أليس من البديهي أن

(٨) [التضامن] العدد ١ ص ٥٤.

(٩) [التضامن] العدد ٥ ص ٦٧.

يكون كاتب التقرير - وهو أفغانى الجنسية - أقدر على اكتشاف «إيرانية» من يتحدث عنه - إذا كان إيرانيا - والأفغانيون والاييرانيون أبناء أرومة واحدة ، ومتجاورون ، يتكلمون لغة واحدة - من قدرته على اكتشاف «روميته» - عثمانيته وتركيتيه - ؟ ! ..

إن هذه الورقة ليس فيها ما يدل على أن المعنى منها هو الأفغانى .. وما بها من أوصاف لا ينطبق عليه .. ثم إنها تتحدث عن «رومى» .. وليس عن «إيرانى» .. فهي ساقطة - بكل المقاييس - من قائمة الأوراق التى يسوقها أصحابها للتدليل على «إيرانية» جمال الدين ..

٢- والورقة الثانية هى «تقرير لجاسوس آخر لحكومة الهند الانجليزية . يظن أنه أفغانى ، منشور فى «موجز وثائق كابول» .. وحظ هذه الورقة من الاختصاص بالأفغانى كحظ سابقتها .. فهى الأخرى تتحدث عن «الحاج السيد الرومى»^(١٠) .. وليس فيها ما يدل على أن المعنى هو جمال الدين ! ..

٣- أما الورقة الثالثة ، فيشير إليها الدكتور لويس بقوله : «إن قنصل إيران فى القاهرة زود الأفغانى فى يوليو سنة ١٨٧١ م بجواز سفر إيرانى ليزور به استانبول [والجواز مصور فى وثائق وزارة الخارجية البريطانية] .. مما يوحي بأن الأفغانى ، رغم انتحاله لقب الأفغانية ، كان محافظاً على جنسيته الايرانية»^(١١) ..

وهذه الورقة - جواز السفر - تستحق منا وقفة ، تكشف زيفها مثل باقى الأوراق التى تساق للدلالة على «إيرانية» جمال الدين ..

(١٠) [التضامن] العدد ٣ ص ٧١ .

(١١) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٤ .

وبادئ ذي بدء ، فنحن نقول : إن حمل الإنسان المفكر والمناضل لجواز سفر من دولة ما لا ينهض دليلا على أنه من مواليد تلك الدولة بأي حال من الأحوال ، فكثيرون من الذين تسوء علاقاتهم بمواطنهم الأصلي ، والذين يناضلون ضد النظم السياسية السائدة في مواطنهم الأصلية يحملون جوازات سفر مستخرجة من بلاد أخرى ، دون أن يكونوا مواطنين فيها ، فضلا عن أن يكونوا من مواليدها ١٤ .. ذلك أمر شهير .. وكثير ! ..

ثم إن لدينا على هذه « الورقة » - جواز السفر - الذي لم يقدم لنا الدكتور لويس صورته .. ولكننا نقلناها عن [دائرة المعارف الشيعة الإسلامية] (١٢) .. وألحقناها بدراستنا هذه ليرى فيها القراء ما رأيناه بها من أدلة التزييف ! - إن لدينا على هذه « الورقة » ما يثبت أنها « مزورة ومزيفة » . أو مقطوعة الصلة بحال الدين الأفغاني ؟ ! .. فهي :

(أ) مكتوبة بالفارسية ، ومطبوعة بالمطبعة ، والاسم المستخرجة له - وهو مكتوب بالقلم - هو : « السيد المحترم جمال الدين » .. وليس في التذكرة ما يثبت أن جمال الدين هذا هو جمال الدين الأفغاني ؟ ! .. ولقد كان الأفغاني أحرص ما يكون على ذكر لقب « الحسيني » عقب اسمه « جمال الدين الحسيني » .. فلقب « الحسيني » كان عنوان انتساب جمال الدين إلى آل البيت .. ولقد كان الرجل - كما يقول محمد عبده - : « فخورا بهذا النسب .. لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أرفع من كونه من سلالة ذلك البيت الطاهر .. » (١٣) .. فما الذي يثبت أن هذه الورقة مستخرجة لجمال الدين الأفغاني ؟ ! .. ولم لا تكون خاصة بآخر اسمه جمال الدين ١٤ ..

(١٢) صنفها الأستاذ حسن الأمين . انظر المجلد الثاني ج ٦ ص ١٤ .

(١٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

(ب) في هذه «الورقة» ، وأسفل الاسم ، عبارة : «متوجه إلى اسلامبول» .. الأمر الذى يعنى أنها قد استخرجت «جواز سفر» و«تذكرة مرور» لـ «جمال الدين» المتوجه إلى عاصمة الدولة العثمانية .. فإذا علمنا أن تاريخ استخراج هذه «التذكرة» - كما هو ثابت عليها - فى أسفلها - هو : «فى يوم السبت ١٣ جاد أول سنة ١٢٨٨ هـ» .. وبحثنا فى سيرة جمال الدين الأفغانى عن حاله فى ذلك التاريخ ، تأكد لنا أن لا علاقة للأفغانى بهذه «التذكرة» ، التى إما أن تكون «مزيفة» ، أو خاصة بآخر يحمل اسم «جمال الدين» ! .. فى ذلك التاريخ - ١٣ جاد أول سنة ١٢٨٨ هـ - وهو الذى يوافق ٣١ يوليو سنة ١٨٧١ م - كان الأفغانى قد استقر بمصر . التى جاءها فى أول محرم سنة ١٢٨٨ هـ (٢٣ مارس سنة ١٨٧١ م) .. وهو قد جاء مصر ، فى ذلك التاريخ ، منفياً بأمر صادر من الصدر الأعظم وبارادة سلطانية من السلطان عبدالعزیز .. والمعركة ضده كانت لا تزال قائمة فى الآستانة .. ولجنة من هيئة كبار العلماء لازالت تجتمع لتؤلف ضده الكتب ولتصدر الفتوى بأنه «مرتد يجب قتله إذا لم يتب» عن آرائه فى محاضرة «دار الفنون» ! .. فهل من المعقول أو المقبول أو المتصور أن يستخرج الأفغانى جواز سفر إيرانى ليذهب إلى «اسلامبول» فى ذلك التاريخ ، وفى ظل تلك الظروف والملايسات ؟ ! .. ثم إن الثابت ، فى سيرة الرجل ، أنه قد لازم مصر لم يغادرها ، لا إلى «اسلامبول» ولا إلى غيرها منذ جاءها منفياً من الآستانة حتى نفى منها سنة ١٨٧٩ م ..

(ج) ثم إن الرجوع إلى حسابات الشهور القمرية يوجه إلى هذه «التذكرة» طعناً جديداً «بالتزييف والتزوير» .. فهى تقول إن يوم الثالث عشر من جاد أول هو يوم السبت ، بينما كان هذا التاريخ موافقاً ليوم الاثنين ، فلقد بدأ شهر جاد أول ، ذلك العام ، يوم الأربعاء - ١٩ يوليو

سنة ١٨٧١ م - ١٣ أبيب سنة ١٥٨٧ قبطية^(١٤) - .. ووجود فارق يومين بين حسابات الشهر الثابتة وبين ما في « التذكرة » يقطع بزيفها وتهاافتها .. وهو ليس بالفرق الذى يمكن أن يعزى للاختلاف - بسبب الاعتماد على رؤية الهلال - بين « المواقع والمطالع » وبين « الحساب الفلكى » للشهور . فذلك الاختلاف لا يتعدى اليوم الواحد ، عادة ، عندما يحدث ، ثم يعود الاتفاق فى الشهر التالى ! ..

(د) وأيضاً .. فإن كل الذين قالوا ويقولون « إيرانية » جمال الدين ، قد عللوا انتسابه إلى أفغانستان ، واشتاراه بالأفغانى .. عللوا ذلك بأن الرجل كان حريصاً على إخفاء « إيرانيته » ليخفى « شيعيته » ، حتى يستطيع أن يلعب الدور الذى أراد فى إطار العالم السنى .. فإذا أخذنا منطقهم هذا ، كان من حقنا أن نسألهم : هل يتسق مع هذا المنطق أن يستخرج جمال الدين جواز سفر إيراني ليذهب به إلى اسلامبول ، عاصمة الإسلام السنى والخلافة السنية ، فى تاريخ كانت المعركة قائمة على أشدها بينه وبين مشيخة الإسلام السنى ؟ ! ..

هل هذا معقول ، يا عزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

(هـ) وأخيراً .. فإذا كان الأفغانى قد حمل فى سنة ١٨٧١ م جواز سفر يثبت إيرانيته .. وأنه كان فى ذلك التاريخ - وفق عبارة الدكتور لويس « محافظاً على جنسيته الإيرانية » .. فلم ظل الجميع ، فى الشرق والغرب ، يصدقون « أفغانيته » ؟ ! .. ولم لم تظهر دعوى « إيرانيته » إلا فى سنة ١٨٩٦ م ؟ ! ..

(١٤) انظر تقويم ذلك العام فى [كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالقبطية والافرنكية] ص ١٣٣٦ - وهو من تأليف محمد مختار باشا المصرى - الطبعة التى حققناها . بيروت سنة ١٩٨٠ م .

إن من «يحرص على جنسيته الإيرانية» .. ومن يحمل «جوازات سفر إيرانية» ، ليس هو الذي يخفي إيرانيته .. وليس هو الذي يجمع الناس على تصديق انتسابه إلى أفغانستان .. فهذه الأوراق - على فرض صحتها - ليست خاصة بجمال الدين ! ..

٤- أما الورقة الرابعة ، فيقول الدكتور لويس : إنها «رسالة في الصناعات» ، من تأليف الشيخ أحمد الأحسائي ، نسخها جمال الدين بيده أيام إقامته ببغداد ، ووقعها - كناسخ - بإمضائه : «جمال الدين الحسيني» .. ويذكر الدكتور لويس أن الأفغاني وضع كلمة «الاستانبول» بعد اسمه .. وأن هذه الكلمة قد شطبت ، ووضع عليها - بالحبر الأحمر - كلمة «الكابولي» - نسبة إلى «كابول» - عاصمة أفغانستان - كما أن كلمة «بغداد» قد شطبت هي الأخرى واستبدلت بكلمة أخرى غير مقروءة .. ثم يعلق الدكتور لويس على هذا الموضوع فيقول - بعد أن نسب عمليات الشطب والاستبدال إلى الأفغاني - : يقول : «وهكذا بدأ جمال الدين الأسدآبادي الإيراني ، لأمر ما ، يخفي منشأه الحقيقي ويتحلل جنسية غير جنسيته» .. (١٥)

ولو كان الدكتور لويس على دراية «بالمخطوطات» وما يصنع «النساخ» بها .. ولو استشار أهل الذكور من ذوي الدراية «بالمخطوط» لتثبت قبل أن يقول ما قال .. ذلك أن المتصور ، من خلال كلامه ، أن الأفغاني قد وقع على المخطوطة - كناسخ - باسمه : «جمال الدين الحسيني» - كما كانت عاداته في التوقيع - ثم جاء القراء للمخطوطة فتنازعوا ، كل منهم يريد أن يشرف موطنه بنسبة جمال الدين إليه .. فالبغدادى منهم قد كتب

«البغدادى» .. ثم جاء من شطب ما وجد وكتب «الاستانبولى» .. ثم جاء من شطبه وكتب «الكابولى» .. فهذه أمور مألوفة من القراء الذين يبيعون لأنفسهم العيب بالمخطوطات .. وحرام أن تتخذ هذا «العيب» سبيلا إلى ما هو أشد منه في تاريخ الرجال ؟ ! ..

تلك هي «الأوراق» الأربع التى ضمتها «الملفات السرية الأوربية» ، التى اعتمد عليها الذين ادعوا «إيرانية» جمال الدين .. وهم الذين تبعهم على درهم هذا ، الدكتور لويس ..

لكن هذه «الملفات السرية الأوربية» قد ضمت تقارير أخرى وأوراقا كثيرة ، كتبها ساسة وقناصل وصحفيون - وأيضاً جواسيس - قالت إن جمال الدين : «أفغانى بالمولد والمنشأ» .. ولقد جاء ذكر هذه التقارير والأوراق في دراسة الدكتور لويس .. فلم لم يقف عندها ؟ ولم لم يقارن بينها وبين «الأوراق» الساقطة المتهافنة التى اعتمد عليها في تقرير «إيرانية» جمال الدين ؟ ! .. على الأقل فإن التقارير والأوراق التى تقول إنه أفغانى ، كانت تتحدث صراحة عن الرجل - عن جمال الدين - ولم تكن تتحدث عن «السيد الرومى» ، ذلك المجهول ؟ ! .. ثم إنها محفوظة في ملفات المباحث وأجهزة الأمن والاستخبارات ووزارات المستعمرات في عواصم الاستعمار ، ومن ثم فإنها من النوع الذى يحظى باحترام الدكتور لويس حتى ليسميا «وثائق» ! .. فلم لم يعر انتباهه لهذه التقارير والأوراق .. من مثل :

(أ) تقرير «السير فرانك لاسيلز» ، قنصل إنجلترا العام في مصر ، الذى كتبه لوزير خارجيته اللورد سالسبورى ، عن جمال الدين الأفغانى ، بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٩ م ، بمناسبة نفي الأفغانى من مصر .. وفيه يقول : «أبلغنى الأمير توفيق أنه قد نيه ، منذ فترة ، إلى نشاط رجل أفغانى

اسمه جمال الدين ، يحرض الشعب على الثورة...» (١٦).

(ب) رسالة مراسل «التايمز» بالقاهرة لجريدته - التي كتبها في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧٩ م ، والتي نشرت في ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٩ م .. وهذا المراسل قد عرف الأفغانى عن قرب ، ولقيه ، وأجرى معه حديثا لجريدته .. وهو يتحدث عنه ، فى هذه الرسالة ، فيقول : «... فهو . بالميلاد ، أفغانى من كابول...» (١٧).

(ج) تقارير الجواسيس الانجليز عن تحركات جمال الدين سنة ١٨٨٧ م .. وهى تتحدث عنه كأفغانى ..

(د) تقرير حكومة الهند إلى الحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ م عن جمال الدين .. وهو يتحدث عنه ، أيضا ، كأفغانى (١٨).

إنها - هى الأخرى - تقارير وأوراق ، ضمتها «الملفات السرية الأوروبية» ، ولذلك كانت جذيرة بالاعتبار من الدكتور لويس ! ..



لقد كانت معركة الأفغانى الكبرى ضد الاستعمار ، الخطر الرئيسى الذى تهدد الشرق العربى والإسلامى فى ذلك التاريخ .. وكان تركيزه الأساسى ضد الاستعمار الانجليزى . لما كان يمثل كراس حرية للاستعمار الأوربى يومئذ .. ولذلك فإن صراع الأفغانى مع الانجليز ، فى أفغانستان ، والهند ، ومصر ، وإيران ، والسودان ، والعراق ، وتركيا .. قد جعل الانجليز أعرف الأوربيين بجمال الدين .. فإذا كانت تقاريرهم وكتاباتهم عنه حتى سنة ١٨٩٦ م - أى إلى ما قبل شهور من وفاته - تتحدث عنه

(١٦) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥ . (١٨) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٥ .

(١٧) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥ .

«كأفغانى المولد والنشأة» .. فمن أين ؟ .. ومتى ظهرت دعوى «إيرانية»
جمال الدين ؟؟ ..

لقد جاءت هذه الدعوى من خصوم الأفغانى فى إيران ، وبالتحديد
من الشاه الايرانى مظفر الدين [١٢٧٠ - ١٣٢٥ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٧ م] ..
أما متى ظهرت هذه الدعوى ، فبعد مقتل الشاه الايرانى ناصر الدين
[١٢٤٥ - ١٣١٣ هـ - ١٨٣١ - ١٨٩٦ م] ..

فى ١٧ ذى القعدة سنة ١٣١٣ هـ - ٣٠ إبريل سنة ١٨٩٦ م - تقدم
يدعى ميرزا رضا - قبل إته كان من تلاميذ الأفغانى - تقدم من
الشاه ناصر الدين ، وهو يزور «مشهد عبد العظيم» - المكان الذى طرد منه
هذا الشاه جمال الدين الأفغانى ، قبل سنوات ، على نحو مهين وبالغ
القسوة - تقدم ميرزا رضا من الشاه فصرعه بخنجره . وهو يصيح :
«خذها من يد جمال الدين» ؟ ! ..

وكان الأفغانى يعيش يومئذ بالآستانة .. فأراد الشاه الجديد ،
مظفر الدين ، استحضاره إلى إيران لحاكمته والقصاص منه . بتهمة
التحريض والتدبير لقتل الشاه ناصر الدين .. لكن ، كيف السبيل إليه ،
وهو بالآستانة ، فى ضيافة السلطان السنى عبد الحميد ؟ ! .. هنا تفقق
ذهن البلاط الايرانى عن حيلة الادعاء بأن جمال الدين ايرانى الأصل
والمولد .. بل وشيعى المذهب .. ومن ثم فمن حق إيران أن تطلب من
الدولة العثمانية تسليمه لها لحاكمته كمحرض ومدبر لاغتيال الشاه
ناصر الدين .. ولقد أوعز الشاه مظفر الدين إلى حاكم «أسد آباد»
الايرانية أن يكتب «عريضة» يوقع عليها نفر من أهل المدينة . تشهد
بإيرانية جمال الدين .. ثم أرسلت هذه «العريضة» إلى الآستانة . ورفعت

إلى السلطان عبد الحميد بواسطة «علاء الملك» . السفير الإيراني في تركيا ..

تلك كانت بداية الدعوى .. وهذا هو مصدرها .. ومنها بدأت عملية التلفيق والجمع لشهادات نفر من الناس ، بعضهم زعم أنه من أقارب جمال الدين القاطنين في «أسد آباد» الإيرانية ، ثم طبعت هذه الشهادات في الكتاب الذي حمل عنوان [جمال الدين الأسد آبادي- المعروف بالأفغانى] - وهو الكتاب الذى سبق وأشرنا إلى ما يحمله من تناقضات وقصص واهية تجعله أدخل في «العبث» وأبعد ما يكون عن ما يلزم المراجع والمصادر من تماسك يكسبها الاحترام ؟ ! ..

وكما كانت تلك هي بداية الدعوى .. فلقد كان هذا «الكتاب» عمدة الذين زعموا «إيرانية» جمال الدين ! .. أما قبل هذا التاريخ - الذى سبق وفاة الأفغانى بأقل من عام - فلم تكن هناك «ورقة» أو دعوى تتحدث عن «إيرانية» جمال الدين .. بل إن كتاب [جمال الدين الأسد آبادي] ذاته يحدد ويعلن أن مقتل الشاه ناصر الدين كان السبب الذى أدى - كما يقول - «إلى كشف حقيقة جمال الدين .. وأنه إيراني المولد والمنشأ .. شيعي العقيدة والمذهب ..» .. بل ويعترف أن هذه الدعوى قد مثلت أمضى أسلحة خصوم جمال الدين في صراعهم ضده .. ذلك «أن خصوم جمال الدين ، حينما أخذوا يناوئونه ويدسون له ، لم يجدوا شيئا يغمزونه به إلا كونه إيرانيا شيعيا ، وأنه يكذب ويدعى أنه أفغانى سنى حتى يجد له طريقا في تركيا والأقطار الإسلامية التركية ! ..» (١٩)

(١٩) [جمال الدين الأسد آبادي] ص ٢٥ ، ١٦ .

.. لقد أراد الشاه مظفر الدين ، بهذا الادعاء ، «إعدام جسد» جمال الدين الأفغانى ..

.. وأراد خصومه الفكريون ، من شيوخ الرجعية العثمانية ، وعلى رأسهم الشيخ أبوالهدى الصيادى [١٢٦٦ - ١٣٢٧ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٩ م] - بتلقفهم هذا الادعاء - «إعدام حركة البعث والتجديد الاسلامى» التى قادها وجسدها جمال الدين ..

.. ثم جاء الخصوم الألداء لتيار «الصحة الإسلامية» وحركة «الاحياء الاسلامى» ، فتلقفوا ، هم أيضا هذا الادعاء لتشويه هذه «الصحة» وهذا «الاحياء» بإهالة التراب على الرمز الذى ارتاد ميدانها .. وذلك بإظهاره فى صورة «الكاذب - الأفق» ! ..

لقد بدأ الشاه مظفر الدين القضية بالعريضة - التى تشبه «شهادة شيخ الحارة - تلك التى كتبها «عمدة» «أسد آباد» .. وتلقف أبوالهدى الصيادى الخط ، فكتب إلى رشيد رضا ، عقب وفاة الأفغانى ، يقول : «بأنى أرى جريدتك - [المنار] - طافحة بشقائق المنافق جمال الدين الملققة . وقد تدرجت به إلى الحسينية التى كان يزعمها . وقد ثبت فى دوائر الدولة رسميا أنه مازندرانى - [نسبة إلى مقاطعة مازندران الايرانية] - من أجلاف الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية ..» (٢٠) ! .. ثم جاء نفر من صبية المستشرقين - صهانية وأشباه صهانية - فساروا على درب الادعاء «بإيرانية» جمال الدين .. حتى كانت الطبعة العربية لدعاواهم هذه ، تلك التى خرج علينا بها الدكتور لويس عوض .. والتى جعل عنوانها : [الابراى الغامض فى مصر] ١٩ ..

(٢٠) [تاريخ الاستاذ الإمام] ج ١ ص ٩٠ .

تلك هي قصة «إيرانية» جمال الدين .. وذلك هو حظها العظيم من
التهافت والسقوط !



وكما أن «إيرانية» الأفغانى - لو كانت حقيقة - ما كانت لتعيبه
فكذلك «شيعيته» - لو كانت هي مذهبه - ما كان لها أن تنقص من قدره
في نظر المسلمين المستنيرين ! .. فتراث الإسلام الفكرى والعلمى
والخضارى يزدان بأعلام الشيعة ، في كل الميادين ، وعلى مر العصور ..
لكن .. كما كان الهدف من دعوى «إيرانية» هو إظهاره في صورة
«الكاذب» .. كذلك كان الهدف من دعوى «شيعيته» ! ..

ومن البداية ، نريد أن نؤكد أن جمال الدين لم يكن متمذبا بالمعنى
الضيق لمصطلح «المذهب» ، كما شاع ويشيع في حياتنا الفكرية
والعملية .. وإنما كان مسلما مجتهدا .. لقد كان يأخذ إسلامه من المصادر
الأصلية للإسلام . ولا يقلد في ذلك مذهبا من مذاهب المسلمين .. كان
«يشرب الماء من النهر» ، لا من الساقية ! .. لكن الرجل لم يكن شيعيا
بحال من الأحوال ، وإن ربطته بمجتهدى الشيعة علاقات كالتى ربطته
بعلماء السنة في العصر الذى عاش فيه .. كان مسلما مجتهدا .. لكن نشأته .
وتكوينه الفكرى . واختياره قد جعل «السنة» - بالمعنى العام - الإطار
الذى مارس فيه الاجتهاد ! ..

ولنا على هذا رأى أدلة كثيرة .. منها ما أخذناه من شهادات العلماء
العدول الذين عاشوا جمال الدين وزاملوه وشاركوه فكره وتضافه
وخبروه - ونموذجهم الذى نختاره هو الاستاذ الامام محمد عبده - ومنها
ما استقيناه من المصدر الأوثق والمرجع الأول ، وهو فكر جمال الدين
ذاته ، الذى يحدد الإطار المذهبي الذى عاش فيه ..

● [فالعروة الوثقى] - الجمعية السرية - كانت رئاستها للأفغانى .. وكان محمد عبده نائبه فى رئاستها .. وعندما سأل أحد أعضائها محمد عبده عن « مذهب » [الجمعية] كتب إليه يقول : « إننا سنيون ، أشعريون أو ما تريدون ، وإننا فى أعمال العبادات دائرون على المذاهب الأربعة ... وفى المعاملات على مذهب حاكم البلاد ، إن وافق واحدا منها ، فإن كان على غيرها توقينا المرافعة إليه ما أمكننا .. » (٢١)

فهى جمعية سنية المذاهب ، إن فى العبادات أو المعاملات ..

● وعندما ترجم الاستاذ الامام لأستاذه جمال الدين ، كتب - انطلاقا من « كمال الخبرة وطول العشرة » .. - حسب تعبيره - عن مذهب جمال الدين يقول : « ... أما مذهب الرجل فحنيفى - [أى مسلم موحد] حنفى - [والمذهب الحنفى هو السائد فى أفغانستان] - وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية .. » (٢٢)

● وحتى كتاب [جمال الدين الأسد آبادى] - الذى يزعم « إيرانية » جمال الدين .. نراه قد ضم « شهادة » لأحد الأحرار الايرانيين المشتغلين بالمعارف فى أذربيجان - وهو الميرزا السيد حسين خان عدالت - ثبت أن جمال الدين كان مجتهدا ، لم يضع نفسه فى الإطار المذهبي الضيق ... يقول صاحب هذه « الشهادة » : « وكان كل من يسأل عن مذهب السيد ، يحبه : « بأنى مسلم » ! - وحدث أن سأل أحد علماء السنة السيد قائلا : « ما عقيدتك ؟ فأجاب : « إني مسلم ! » . فسأله ثانية : « من أى المذاهب

(٢١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ١ ص ٦١٤ .

(٢٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٥١ .

أنت ؟ فأجاب السيد : إني لم أعرف في أئمة المذاهب شخصا أعظم مني حتى أسلك طريقته ! .. إني أوافق بعضهم في أمر ، وأخالفهم في أمور ! .. (٢٣)

فرغم اتسام الإجابة بحدة الجدل ، إلا أنها تتم عن الاجتهاد الذي يرفض التمسك بالمعنى الضيق - ويأبى التقليد ! ..

● وهناك الكتب التي شرحها الأفغانى لتلاميذه في سنوات إقامته بمصر ، وهي التي تعكس تكوينه الفكري واختياره المذهبي ، بالمعنى العام ... وهذه الكتب - التي ضمت مجموعة من عيون كتب المنطق والهيئة والتصوف والفقه وأصوله - هي من مصادر الفكر السني - وهي ، لذلك ، شاهد على أن « السنة » كانت « خياره الفكري والمذهبي » ، وليس الشيعة والتشيع ... فمن هذه الكتب :

١ - [الرسالة الزوراء] - في التصوف - للإمام السني جلال الدين الدواني .

٢ - [شرح القطب الرازي على الشمسية] - في المنطق - والشارح - وهو القطب الرازي - سني .. وصاحب « المتن » - [الرسالة الشمسية] - هو المفكر السني نجم الدين أبو الحسين علي بن عمر القزويني الكاتبي ، المعروف بدبيران ..

٣ - [مطالع الأنوار] - في المنطق - للمفكر السني سراج الدين أبو الثناء محمود بن أبي بكر الأرموي ..

٤ - [سلم العلوم] - في المنطق - للعالم السني محب الله بن عبد الشكور البهاري ..

(٢٣) جمال الدين الأسد آبادي [ص ١٦٢ .

- ٥ - [الهداية] - في المنطق - للعالم السني أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري ..
- ٦ - [الإشارات] لابن مينا ..
- ٧ - [حكمة العين] - في الإلهي والطبيعي - للعالم السني الكاتبي القزويني ..
- ٨ - [حكمة الاشراق] - في التصوف - للسهروردي المقتول ..
- ٩ - [شرح الدواني للعقائد العنصرية] - في علم الكلام - للإمام السني جلال الدين الدواني ..
- ١٠ - [التوضيح - بحاشية التفتازاني] - في فقه الأحناف - لصدر الشريعة الأصغر عبيد الله بن مسعود بن تاج الشريعة ..
- ١١ - [التلويح في كشف حقائق التنقيح] - في أصول الفقه - للعالم السني سعد الدين التفتازاني ..
- ١٢ - [متن الجعمني] - في الهيئة - للعالم السني أبو علي محمود بن محمد ابن عمر شرف الدين الجعمني ..
- ١٣ - [العقائد النسفية - بشرح التفتازاني] - وهو من أمهات كتب السنة (الأشعرية) في العقائد ..
- ١٤ - [تذكرة الطوسي] - في الهيئة - للعالم الشيعي نصير الدين الطوسي ... (٢٤)

(٢٤) [الأعمال الكاملة لحال الدين الأفغاني] ج ١ ص ٣٢. [معجم المطبوعات العربية والمعرية] لسركيس. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م. [كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون] لحاجي خليفة. طبعة استنبول سنة ١٩٤١ م. [والتفسير ورجاله] محمد الفاضل بن عاشور. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م. [والمقاموس الإسلامي] لأحمد عطيّة الله. طبعة القاهرة.

فهذه الكتب السنية ، في أغلبيتها الساحقة ، وفيها أمهات لكتب العقائد السنية - والأشعرية بالذات - دليل على التكوين الفكرى والخيار المذهبى - السنى - لجمال الدين الأفغانى ..

● وفى شرح الأفغانى وتعليقاته على أحد هذه الكتب [شرح الدوائى للعقائد العصبية] تشيع العبارات التى تقطع « بالخيار السنى » لجمال الدين .. من مثل قوله ، فى الحديث عن مشايخ « مذهبه » : « ... وهذا هو دأب مشايخنا ، كالشيخ الأشعرى . والشيخ أبى منصور - [الماترىدى] - ومن مائلهم . لا يأخذون قولاً حتى يسدوه ببراہينهم القوية ، على حسب طاقتهم ! .. » (٢٥) .

● وكذلك تعبيره ، الذى يتكرر كثيراً فى تعليقاته على [شرح الدوائى للعقائد العصبية] ، عندما يشير إلى أئمة السنة - والأشعرية بالذات - فيقول عنهم : « أصحابنا ! » ...

تلك بعض من الأدلة التى تزكى الرأى القائل بأن الخيار المذهبى لجمال الدين الأفغانى كان « السنة » .. وأن اجتهاده كان فى ميدانها ... وأن الرجل لم يكن شيعياً بحال من الأحوال ...

ثم .. إن هناك أدلة أخرى ، يمكن أن تضاف إلى هذه الأدلة ، وهى التى وردت فى فكر الأفغانى عندما عرض لفكر الشيعة وآرائهم .. فترة النقد فيها ، وموقف الرفض لها دليل ، هو الآخر ، على خياره السنى ..

● فالذين زعموا أن جمال الدين شيعى - قالوا عنه - كالدكتور لويس عوض - إنه باطنى .. يتخلق بخلق « التقية » ، الذى يجعل الانسان يظهر

(٢٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ١ ص ٢٢٢ .

غير ما يبطن ! .. لكننا واجدون للأفغانى فكرا واضحا وحاسما يرفض «التقية» ويستفد كثائن ما يجب أن يعلن من الآراء والأخلاق .. يقول : «إنى لا أرى فى هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانته لازما ، إلا ما كان فى علانيته شيئا ومعرفة ، ولا يكون الكمال النسبى فى البشر إلا إذا كثر إعلانهم وقل كتمانهم . فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها لا خير فيها ، ولا هى بالدولة الأمينة من أمانتها وحسن تصرفها . ورجل يرى كل شيء يقال له . أو يجب أن يقوله سرا مكتوما . لا يرجى إلا ثقافه . وما هو بالرجل الرجل ! ، ولا يشبه رجل . [ومن أحب فليعلن] والمحبة هنا على مطلق المعنى ، لكل شيء حق ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات . فمن أحب الصدق من القول لا يكتم به ، ولا يخشى بأسا من إعلانه ، بالعكس ، إذا أحب الكذب والكاذب فمخلىق به أن لا يعلن ذلك ! » (٢٦)

هذا عن رفضه «للتقية» - التى يعتبرها الشيعة ديناً يتدينون به .. ويقولون إن الإمام جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ - ٦٩٩ - ٧٦٥ م] قد قال عنها : «التقية دينى ودين آبائى» ! - لقد رفضها الأفغانى . بل ورفض فلسفتها ! ..

● وأى قلم يتحلى بالأمانة يتهم جمال الدين «الباطنية» ، ويزعم أنه «باطنى» .. وفى فكر الرجل إدانة صريحة ، بل وحادة «للباطنية» - وهى من فرق الشيعة - الاسماعيلية - ؟ ! .. لقد صنفهم فى عداد الماديين - الطبيعيين - وعد ظهورهم بالعالم الإسلامى من أسباب الانهيار الحضارى الذى أصاب حضارة المسلمين ، فكتب فى رسالة [الرد على الدهريين]

(٢٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٦ .

يقول : إنه « لما كان القرن الرابع بعد الهجرة ، ظهر النشيريون (الطبيعيون) بمصر تحت اسم الباطنية - [بشير إلى الشيعة الاسماعيلية ودولتهم الفاطمية بمصر] - وخزنة الأسرار الإلهية ، وانبثت دعائهم في سائر البلاد الإسلامية ، خصوصا بلاد إيران .. وكان إذا سقط الساقط من المغرورين في حباله مرشدهم الكامل فأول ما يلقنه المرشد قوله : إن الأعمال الشرعية الظاهرة (كالصلاة والصيام ونحوها) إنما فرضت على المحجوبين دون الوصول إلى الحق ، والحق هو المرشد الكامل ، فحيث أنك وصلت إلى الحق فأليك أن تلقى عن عاتقك ثقل الأعمال البدنية ! .. فإذا قرر المرشد أصول الإباحة في نفوس أتباعه التمس لهم سبيلا لإنكار الألوهية وتقرير مذهب النشيرية (الدهرين) ! .. »^(٢٧)

هذا هو رأى الأفغانى فى الباطنية .. فهم ، عنده ، إباحيون ، متحللون من تكاليف الإسلام ، بل ومنكرون للألوهية ، ماديون ، دهريون ! .. وهذا هو تسفيهه « لنظرية المرشد الكامل » ، التى لا يتورع الدكتور لويس عوض عن القول بأن الأفغانى قد اعتنقها فى « صدر شبابه »^(٢٨) .. دون أية إشارة إلى أى دليل أو مرجع ، حتى ولو كان « ورقة » من الأوراق التى كتبها الجواسيس والمخبرون ، والتى تحولت إلى « مصادر » ينقض بها إجماع العلماء فى « دراسته » عن جمال الدين ؟ ! ..

● أما نقد الأفغانى للشيعة ، بوجه عام ، ورأيه فى غلوها بآل البيت .. وفى بعض من أصولها الاعتقادية .. فنحن نسوق لإثباته نصوصا ثلاثة من كتاباته :

(٢٧) المصدر السابق ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢٨) [التضامن] العدد ١٤ ص ٧٨ .

أولها : ذلك الذى يلقى فيه نظرة تاريخية على نشأة التشيع ، ويستقد فيه غلو الشيعة ، ويشير إلى خطر الانقسام الذى شطر المسلمين إلى سنة وشيعة على صمود الأمة أمام ما يواجهها من تحديات .. وفى هذا النص يقول : «لقد ظهر لآل البيت النبوى ، فى أوقات وأزمنة مختلفة ، أحزاب وشيع . فمنهم من ضل [كالمؤفة] ، وهم قوم يقولون بألوهية على بن أبى طالب . ومنهم (المفضلة) و(الغلاة) فى محبة أهل البيت ، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال : «يهلك فينا أهل البيت : محب ، وغال ، وعدو قال» - [أى كاره] - .

أما المفضلة من الشيعة ، وهم يقلدون فى المذهب الامام جعفر الصادق .. فهذا الجمهور من المسلمين ، نجرد تقليدهم للإمام جعفر ، ومغالاتهم فى حب الآل ، وتفضيلهم للإمام على ، لا يجب أن تخرجهم من عداد المسلمين .

ولقد تجسم أمر هذه الفروق فى القروع ، وصارت واسطة للتفرقة والتزاع ، فللخصام فللاقتتال . تلك الأمور سهل وجودها جهل الأمة . وسفه الملوك الطامعين فى توسيع ممالكهم .

أما مسألة تفضيل الإمام على ، والانتصار له يوم قتال معاوية ، وخروجه عليه ، فلما سلمنا أنه كان فى ذلك الزمن مفيدا .. فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة ليس فيها إلا محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الاسلامية ..

يا قوم ! وعزة الحق ، إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يرضى عن العجم ، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة ، أو افترقوا عنهم نجرد تفضيله على أبى بكر ، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم . «والناس أبناء ما يحسنون» . وكذلك أبوبكر ، فلا يرضيه أن تدافع أهل

السنة عنه ، وأن تقابل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مرزمتها ، والتي تخالف روح القرآن الأمر أن يكونوا [كالبنيان المرصوص] . أما قضية التفضيل ، فلو استحققت البحث ، بعد تلك الأجيال ، لكفى أن يقال لحل إشكالاتها : « إن أقصر الخلفاء عمرا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرا ! » فلو تولى الخلافة ، بعد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، علي بن أبي طالب ، لمات أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام والمسلمين بما استطاعوا أن يخدموه به ، رضوان الله عليهم أجمعين . حكمة الله في خلقه ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم .. » (٢٩)

ففي هذا النص الهام نرى جمال الدين :

١- يضع الشيعة الاثني عشرية - الجعفرية - بسبب تفضيلهم الامام علي - ضمن الهالكين بالغلو في محبة آل البيت ... وإن كان ينهى عن إخراجهم من عداد جمهور المسلمين بسبب هذا الغلو وهذا التفضيل .

٢- ينتقد فكرة تفضيل الإمام علي في المقارنة بينه وبين الصحابة من الخلفاء الراشدين ، ويرأها « مخالفة لروح القرآن الكريم » .. بل وينتقد بقاء تفضيله حتى على معاوية بن أبي سفيان ، لمرور زمن هذا التفضيل وانقضاء مبرراته .. فهو اليوم « نكرة ليس فيها إلا محض الضرر وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية ... »

ونقد « مسألة التفضيل » هو نقد لصلب المذهبية الشيعية .. والدعوة إلى تجاوزها تعني الدعوة إلى إلغاء المبرر الذي يميز الشيعة عن السنة ويقسم

(٢٩) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

وحدة المسلمين في العصر الذي نعيش فيه ؟ !

فأين هي «شيعية» جمال الدين التي يزعمها الذين لا يفقهون ؟ !
وثانيها : أي ثائي النصوص التي نسوقها مثالا للنقد الأفغانى للشيعية وعقائدها - فهو ذلك النص الذي يرجع فيه «عقيدة الرجعة» - التي هي من عقائد الشيعة الاثني عشرية - مع عقيدة التناسخ - إلى فكر «الباطنية» - الذين سبق ورأينا حكمه عليهم بإنكار الألوهية وإسقاط التكليف ، وبأنهم طيبعيون دهيرون - يقول الأفغانى عن «عقيدة الرجعة» الشيعية : «ولما كانت الرجعة - أي رجوع بعض الأئمة السابقين وتابعيهم - من الأصول الثابتة في مذهب الإمامية ، والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة ، كان له بقايا في النفوس ..» (٣٠)

وهو يسوق هذا النقد في معرض نقده لعقائد «البابية» ، التي جاءت فحملت عقائدها الكثير من الموارث الباطنية والأفكار الإمامية !
وثالثها : ذلك النص الذي يدعو فيه جمال الدين إلى إلغاء «العقيدة الخورية» للمذهب الشيعى ، وهي «عقيدة الإمام المعصوم» ! - فن المعروف أن الفرق الإسلامية غير الشيعية قد رأت أن مصدر الدين هو الشرع ، وأن الحجة في إجماع الأمة ، على حين انفرد الشيعة بالقول إن المصدر هو الإمام المعصوم ، لأن الأمة من الممكن أن تجتمع على الضلال أو الشيان .. ولأن الشرع - بما فيه القرآن - لا بد له من «قيم» معصوم .

(٣٠) [دائرة المعارف] لبطرس البستاني . مادة «البابية» - وهي من تحرير جمال الدين الأفغانى .

وهو الإمام ١٩ .. (٣١)

وفي نقد هذه العقيدة الشيعية الجهرية . بل ورفضها . يقول الأفغانى : « كفى بالإيمان والشرع معلما . فيكفى ما نتقنه من القرآن . فلا حاجة إلى المعلم المخصوص . وهو الإمام المعصوم . ولنا محتاج إلى نائب عن الشرع إلا في مجرد التبليغ . ثم من الشرع نفسه يكون العلم والأخذ .. » (٣٢)

تلك هى بعض نصوص جمال الدين الأفغانى ، التى تنتقد عقائد الشيعة الإمامية ، والجعفرية الاثنى عشرية ، بل وتنقض بعض الأصول الجوهرية فى تلك المعتقدات .. وهى نصوص لو وعّاها وفقهها الذين زعموا أنه « شيعى » يتظاهر بأنه « سنى » . لأراحونا من نقد ما كتبوا وتفنيد ما زعموا وأشاعوا عن جمال الدين ! ..



بل ، لىّت أمر الدكتور لويس عوض قد وقف عند ترديد زعم الذين زعموا « شيعة » جمال الدين الأفغانى .. فلقد ذهب فزعم أنه كان « بابيا » فى فترة من فترات حياته (٣٣) .. وأنه قد « تعلم عند البهابيين .. كما تعلم عند الشيعة .. » وهو ينسب هذا الادعاء إلى « الوثائق » .. لكنه لا يشير - مجرد إشارة - إلى أى من هذه « الوثائق » (٣٤) .. ولذلك فليس أمامنا إلا أن نقدم للمقارئ فكر جمال الدين الذى ينتقد البابية والبهائية .. والذى يسفه

(٣١) الطوسى (أبو جعفر) [تلخيص الشافى] ج ١ ق ١ ص ١٩٤ . ١٩٥ « هامش » .

تحقيق السيد حسين بحر العلوم . طبعة النجف سنة ١٣٨٣ - ١٣٨٤ هـ .

(٣٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ١ ص ٣٠١ .

(٣٣) [التضامن] العدد ١٤ ص ٧٨ .

(٣٤) [التضامن] العدد ١ ص ٥٣ .

من آرائها وعقائدها .. والذي يرجع بعض هذه العقائد إلى فكر «الباطنية»
المادى الدهرى .. والذي ينتهى إلى نقض مذهبهم من الأساس ..

ونحن نعجب من إغفال الدكتور لويس الإشارة إلى فكر الأفغانى هذا
الذى جسد عداءه للباية .. ففى «دراسته» يورد اسم المستشرق المحرى
جولد سيهر ، فيرفض روايته عن الأفغانى ضمن ما رفض من روايات
العلماء والمؤرخين وكبار المستشرقين .. وذلك يعنى أنه قد اطلع على ما كتبه
جولد سيهر عن الأفغانى .. ومعروف أن هذا المستشرق قد كتب مادة
«جمال الدين الأفغانى» فى [دائرة المعارف الإسلامية] ، وفى هذه «المادة»
قال جولد سيهر : إن جمال الدين «هو صاحب مادة الباية فى دائرة معارف
البستانى» .. فلم لم يقرأ الدكتور لويس ما كتبه الأفغانى عن «الباية» فى
[دائرة المعارف] التى أصدرها «المعلم بطرس البستانى» ؟ ! .. إن الأفغانى
يقول فيها عن [الباية] إنها «دين ظهر فى بلاد العجم نحو سنة ١٨٤٣ م
بدعوة رجل من أهل شيراز يعرف بالسيد على محمد .. وهو خليط من
عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية وثنية .. وكتابتها (البيان) يحتوى على كثير
من العرى المسجع وبعض الفارسى ، إلا أن العرى منه كان ملحونا . فلما
سئل السيد على محمد عن سبب وقوع اللحن فى هذا الكتاب المتزل -
[بزعمه] - مع أن اللحن نقص ؟ أجاب بأن الحروف والكلمات كانت قد
عصت واقترفت خطيئة فى الزمن الأول ، فعوقبت على خطيئتها بأن قيدت
بسلسل الإعراب . وحيث أن بعثنا قد جاءت رحمة للعالمين ، فقد
حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين ، حتى الحروف والكلمات .
فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط ! ..
ولقد فشا بين البايين التعدى والغدر .. فسفكوا دماء كثيرة . وكانوا أشبه
الناس بالفداوية الذين اشتهر أمرهم على عهد الفاطميين .. ومن لوازم

مذهبهم أن كل من خالفهم قدمه هدر .. والباية تقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت في الناسوت .. ووحدة اللاهوت مؤلفة ، على زعمهم ، من ١٩ أقنوما .. ورئيسهم الباب ، عندهم ، أعظم من محمد ... عليه الصلاة والسلام .. (٣٥)

فهل هو «باني» ، ذلك الذي يراها «دينا» - أي أنها ليست مجرد فرقة في إطار الإسلام - وأن هذا الدين «خليط من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية» .. وأن المتدينين به أهل «عذر وتعد وسفك للدماء» .. وأنهم أقرب إلى عقيدة النصارى ، في الألوهية ، منهم إلى عقيدة الإسلام !؟ .. هل هو «باني» ذلك الذي يقول هذا القول في «دينهم» ، ويسخر كل السخرية من كتابهم (البيان) !؟ ..

وإذا جاز للدكتور لويس أن يعتذر بعدم إطلاعهم على ما كتب الأفغاني عن «الباية» في [دائرة معارف البستاني] - وهو عذر غير مقبول بالطبع - فهل يجوز له أن يحاول الاعتذار - مجرد المحاولة - عن تجاهله المتعمد الإشارة إلى ما كتبه الأفغاني ضد «الباية» و«البهاية» في ذلك الكتاب الذي هو «عمدة» مراجعته في القول بأن جمال الدين «إبراني» وليس «بأفغاني» .. كتاب [جمال الدين الأسد آبادي] !؟ ..

لقد جاء ذكر هذا الكتاب مرات عديدة في «دراسة» الدكتور لويس .. وهو في هذه «الدراسة» قد اتهم الأفغاني بـ «الباية» .. وصمت عن أن يقول لقرائه شيئا عن رأى الأفغاني في «الباية» وفي «البهاية» ، وهو الرأى الذي جاء بهذا الكتاب في صورة «شهادة» «السيد الفاضل ميرزا حسين خان دانش» ، الأصفهاني ، تزيل

(٣٥) [دائرة المعارف] - للمعلم بطرس البستاني - مادة «الباية» .

الآستانة .. يقول هذا «الشاهد» ، الذى عاش مع الأفغانى فى الآستانة :
 .. وعندما كان الحديث يدور حول الباب والبابية ، كان السيد - [جمال الدين] - ينرى لتجريح عقيدتهم علنا . ومع أنه كان يطالب بتيسير فهم الدين الإسلامى ، فلم يكن يرى فائدة أو مزية للبابية . فهو يقول : «ما مبلغ ما أبدى البابية من الهمة لتسهيل تكاليف الديانة المحمدية . وأى خدمة أدوها للمسلمين ، إلا إبداهم «القرآن» «بالبیان» ، وتغييرهم «مكة» «بعكة» ؟ ! ومثل هذا لا يمكن عده ، فى الحقيقة ، إصلاحا ، إذ لم يكن المسلمون بحاجة إلى دين جديد ، فالدين الإسلامى . بمقتضى الزمان والمكان . لم يكن بحاجة إلا إلى نوع من التبسيط والتيسير فحسب . ولم تؤد معتقدات البابية إلى هذا الهدف أبدا .. ينبغى أن تستشئ أحكام الإسلام وتتلاءم تعاليمه مع ظروف كل زمن وحاجته ، خوفا عليه من الزوال . وهذا معنى ما قيل من أن الله يبعث على رأس كل قرن رجلا ليصلح أمر هذه الأمة ..» (٣٦)

فكما لم يكن جمال الدين «إيرانيا» .. كذلك لم يكن «شيعيا» .. وهو . أيضا . لم يكن «بابيا» - كما زعم الزاعمون بغير دليل - .. وإنما كان الرجل : «مسلم» .. مجتهدا .. مجددا .. يسعى إلى تجديد «دنيا» المسلمين بواسطة تجديد «دينهم» . وذلك بتأسيس تمدنهم على أساس متين وأصيل من الإسلام ..

فالاتجاه والتجديد هو مفتاح شخصية هذا الرائد الذى ارتاد لأمنته ميدان البعث والإحياء الإسلامى .. وليست المذهبية الضيقة الأفق . كما زعم الزاعمون ..

(٣٦) [جمال الدين الأسد آبادى] ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

يقول الأفغانى عن الاجتهاد .. وضرورته .. وعن أهميته فى تجديد حياة الأمة : «يا سبحان الله ! إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضى عياض وغيره من الأئمة ؟ ! .. وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس - [هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم] - قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا ، وقالوا ، وأدلوأ دلوهم فى الدلاء فى ذلك البحر المحيط من العلم ، وأنوا بما ناسب زمانهم ، وتقارب مع عقول جيلهم ؟ . وتبدل الأحكام بتبدل الزمان .

ما معنى : «باب الاجتهاد مسدود» ؟ ! وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ ! وأى إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين ؟ ! أو أن يبتدى يهدى القرآن وصحيح الحديث ؟ ! أو أن يجتهد ويحتج لتوسيع مفهومه منها ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية . وحاجيات الزمان وأحكامه ؟ ! ولا ينافى جوهر النص ؟ ! ..

لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم . لداموا مجتدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث . وكلما زاد تعمقهم وتعمقهم ازدادوا فهماً وتدقيقاً .. لقد اجتهدوا وأحسنوا .. لكنهم لم يحيطوا بكل أسرار القرآن .. وما وصلنا من علمهم الباهر إن هو - بالنسبة إلى ما حواه القرآن والحديث ، إلا كقطرة من بحر ، وثانية من دهر [والفضل بيد الله يؤتية من يشاء من عباده] وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ..

لا بد من حركة دينية .. تهتم بقلع مارسخ فى عقول العوام ومعظم

الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها
الحقيقي . ويعت القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور ، وشرحها على
وجهها الثابت ، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم ، دنيا وأخرى .
ولا بد من تهذيب علومنا وتنقيح مكتبتنا ، ووضع مصنفات فيها قربية
المأخذ سهلة الفهم ، لنستعين بها على الوصول إلى الرقي والنجاح .. « (٣٧) »
ذلكم هو جمال الدين الأفغاني .. أكبر من أي إقليم من أقاليم عالم
الإسلام .. وأعظم من أن يأسره إطار المذهبية الضيقة الأفق ..

إنه حكيم الشرق ، وموقفه .. وفيلسوف الإسلام .. وداعية تجديد
« دنيا » المسلمين بواسطة تجديد « الدين » ! .

(٣٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٣٢٩ . ٣٣٠ . ٣٢٨ .

الجامعة الإسلامية

إذا كانت « الثورة الثقافية » - في الفكر الاسلامي - التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني ، هي التي جلبت عليه عداء أهل الجُمُود من المسلمين .. فإن دعوته إلى « الجامعة الإسلامية » كانت « الجريمة الكبرى » في نظر « المتغربين » من « الإقليميين » و « العلمانيين » ! ..

فدعوة « الجامعة الإسلامية » تعني : أن للإنسان المسلم انتماء إسلاميا يحدد هويته وهوية الكيان السياسي والحضاري الذي يمنحه الولاء .. وهذا الانتماء الاسلامي له مردود يتجسد في خيارات :

● فهو يعني رفض الوقوف بفكرة « الوطن » عند حدود دائرة « الاقليم » . بل ويتجاوز دائرة « الوطن القومي العربي » إلى « عالم الاسلام » ، الذي يضم الأقاليم « و القوميات » ..

● وهو يعني وجود « طابع حضاري » لهذا « الانتماء الاسلامي » . فعلاقات الأقاليم الاسلامية والقوميات التي يضمها عالم الاسلام لا تقف عند حدود حسن الحوار ، أو المصالح الأمنية والاقتصادية .. وإنما تعني . فوق ذلك . وجود « وحدة في الحضارة الاسلامية » ، تجعل من عالم الاسلام هذا . بأقاليمه وقومياته منظومة حضارية متميزة بين الحضارات

العريقة القائمة على ظهر الكوكب الأرضي في العصر الذي نعيش فيه . . .

● وهذا الانتماء الاسلامي . يعني أن « العلمانية » . بمعنى فصل الدين عن الدولة . هي خيار أوروبي لا يمكن قبوله في عالم الاسلام . . . ذلك لأن الاسلام . وإن رفض « الكهنوت » و« السلطة الدينية » . على النحو الذي عرفته أوروبا في عصرها الوسيط . إلا أنه دين ودنيا . بمعنى أنه لم يدر ظهوره لشئون الحياة المدنية وتنظيم المجتمع وسياسة الدولة وعمران الأرض . وإنما وضع لذلك الأطر والفلسفات والمثل والمقاصد والغايات . ثم ترك للأمة . بالعقل والتجربة . حرية الابداع في شئون دنياها . في حدود هذه الأطر وفي ضوء روح الشريعة التي سنّها الشارع سبحانه وتعالى . . .

● ومن ثم فإن هذا الانتماء الاسلامي يعني أن مشروعنا الحضاري المستقبلي وتمددنا المستهدف والنهضة التي نسعى لخروج بها من « التخلف الموروث » ومن « الغزوة الأوروبية » . لا يمكن أن يكون هو المشروع الحضاري الغربي . لا لأنه قد شاخ وشاعت في أوصاله الأمراض الحضارية . فقط . وإنما لتهايز أمتنا . بالاسلام . في القسّمات الحضارية والسمات الثابتة التي طبعت ولابد أن تظل طابعة لشخصية هذه الأمة الحضارية والقومية . ليس لمجرد التهايز . ولا لمجرد بعث الأصالة . ولا حبا في « الكبرياء القومي المشروع » . وإنما - فوق ذلك ومعه - لكي يبرأ مشروعنا الحضاري المتميز من هذه الأمراض الحضارية التي تقترب بالحضارة الغربية من هاوية الاحتضار . . . وأيضا . ليأتي هذا المشروع الحضاري المتميز . ملائما لطبيعة الأمة وقيمتها واعتدالها الذي جعلها أمة وسطا ترفض الجنوح والتطرف والظلم والغلو . وتسعى كي تؤلف - في حضارتها - بين ما هو عند الآخرين متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها .

فضلا عن التأليف والتوفيق ! ..

هذا بعض ما يعنيه « الانتماء الاسلامى » من رفض « للاقليمية »
والتمزق والتشرذم .. والوقوف - باسم « الوطنية » - عند حدود الكيانات
الصغيرة . فى عصر الدول الكبرى والتكتلات العملاقة ... ومن رفض
« للعلمانية » التى تفصل الدين عن الدولة ، فتقطع حاضرا الأمة عن تراثها
وإبداع سلفها فى التشريع والتقنين ... ومن رفض « للخيار الحضارى
القرنى » الذى يشر به الاستعمار والاستشراق . ولازال يبشر به
« المتغربون » ! ..

ولذلك ، فليس غريبا أن يصب العلمانيون مخزون حقدهم . بل وكل
أكاذيبهم ومفترياتهم على الرجل الذى ارتاد ميدان « الخيار الاسلامى » .
يدعوته إلى « الجامعة الاسلامية » : جمال الدين الأفغانى ! .. وهذا هو
ما فعله الدكتور لويس عوض - نموذج « الاقليمية » و « العلمانية »
و « التغريب » فى الثقافة المصرية المعاصرة - عندما خرج علينا « بدراسته »
عن جمال الدين ..



لقد كانت « الأهمية الاسلامية » التى بشر بها الأفغانى تحت شعار
« الجامعة الاسلامية » - وهى « أمة » لائغى « الوطنية » ولا « القومية » .
بل تبعها وتحببها ، وإن رفضت الوقوف عند تخومها وحدودها - كانت
هذه « الأهمية الاسلامية » ، بما تعنيه من « انتماء اسلامى » ، له تجسد فى
المشروع الحضارى المستهدف ، إن فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو
الفكر - « الايديولوجية » - كانت هذه « الأهمية الاسلامية » هى « الجربة
العظمى » للأفغانى ، بنظر الدكتور لويس وكل « الإقليميين » « العلمانيين »
« المتغربين » ..

فالدكتور لويس يتمنى أن لو كان الأفغانى - مع ثوريتته - إقلييميا .
يقف بانثائه وغاياته عند الحدود الاقليمية لمصر ، مثلاً ١٤! . فيقول : « آه
لو كان الأفغانى مصرياً ! اذن لحدد انماؤه غاياته فلم يخلق هكذا بين
النجوم والسحاب . ولربما وثبنا بقوة نحو التقدم والقوة والثبات . فقد كان
طريقه طريق الثورة الثقافية ، وليس طريق التطور الثقافى » كما هو الحال
عند « محمد عبده الجبان » (١) « !!! » [كذا] ١٥!

وكما رفض الدكتور لويس الانتماء القومى العربى لمصر ، ووصف
الدائرة القومية العربية والقومية العربية - فى مقالته التى هاجم فيها عروبة
مصر - بأنها « أسطورة من الأساطير » (٢) . فإنه يصف « الدائرة
الاسلامية » ، التى فتح آفاقها أمام الانسان المسلم شعار « الجامعة
الاسلامية » . بأنها « سفاضة » .! . وهو يتمنى « لو أن الأفغانى لم يشغل
نفسه بسفاسف السياسة وسفاسف الفكر السياسى التى طمست فى آثاره
مبادئ الهيومانزم . أو المذهب الانسانى . ولم تبرز للأجيال التالية إلا
دعوته السلفية ودعوته الشيوقراطية » (٣) .! . فدعوة « الجامعة
الاسلامية » ، بما تعنى من « انتماء اسلامى » . ومن « أسلمة المشروع
الحضارى » هى . ينظر الدكتور لويس . « سلفية وثيقراطية » . مع أن
« السلفية » - عند الأفغانى كانت ثورة تجديدية . لأنها تعنى رفض
« التخلف الموروث » . والعودة للمنابع . لا بهدف صب حاضرننا فى
قوالب السلف . وإنما بهدف استلهام « الأصول » و « الثوابت » . والنظر

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس ص ١٩٢ .

(٢) [الأهرام] أعداد ٧ - ٤ - ٢٠ - ١١ - ٥ سنة ١٩٧٨ م . و [السياسة الدولية]

غداد أكتوبر سنة ١٩٧٨ م .

(٣) [التضامن] العدد ١٦ ص ٦٨

فيها « بعقل معاصر » ، والمزاوجة بين الصالح منها وبين الجديد والعصرى لمواجهة التحديات والانطلاق إلى الأمام .. ومع أن « الثيوقراطية » هي مرض أوربي أفرزته الكهانة الكنسية الكاثوليكية في العصور الوسطى . ولا شبه لها في الاسلام . ولا علاقة بينها وبين فكر الأفغانى . اللهم إلا أن تكون علاقة الرفض والعداء !؟ ..

وبقدر ما عناء شعار « الجامعة الاسلامية » من إحياء « الانتماء الاسلامى » ، وتأسيس التمدن الحديث على الأصول الاسلامية ، بحيث تسعى الأمة إلى علوم العصر الطبيعية وتطبيقاتها . لأنها بنت الدليل - وفق تعبير الأفغانى - ولأنها مؤسسة على « قوانين » علمية تجعلها تتجاوز حدود الأوطان والقوميات والحضارات ، فهي ثمار إنسانية وميراث إنسانى .. وفى ذات الوقت تبعث الأمة من تراثها ونظورها . بالتجديد ، تلك العلوم والفنون والقيم والثقافات التى تتلون ، عادة ، فى كل بيئة حضارية بلون خاص أو متميز . مثل الفلسفات ، والعلوم الانسانية ، والقيم ، والفنون والآداب . والشائى والأخلاقيات .. بقدر ما عناء شعار « الجامعة الاسلامية » من هذا الموقف الاستقلالى فى الانتماء الحضارى . ومن هذا « الخيار الحضارى الاسلامى » .. كان غضب الدكتور لويس !.. فهو يرفض « تفتيت وحدة الحضارة » الغربية . ويدعو إلى احتوائها جميعها . فكراً وقيماً وعلوماً .. ويرى أن « نقطة الضعف » عند الأفغانى هي الدعوة إلى تفتيت وحدة هذه الحضارة . بحيث تأخذ منها « العلوم وتطبيقاتها » وتبعث من مخزونها الثقافى والحضارى الفكر والقيم والفلسفات (٤) ..

إن موقف الدكتور لويس - ومعه كل « العلمانيين المتغربين » - ضد

(٤) أصل « دراسة » الدكتور لويس : ص ١٨٢ .

دعوة « الجامعة الإسلامية » هو موقف « العلمانية والتغريب » ضد
« أسلمة » المشروع الحضارى للعرب والمسلمين ... هذا هو « الحذر
الفكرى » للخلاف !

لقد سعى الغرب الاستعماري . ولا يزال . إلى تفتيت وحدة المسلمين .
حتى ولو كانت شكلية ورمزية . ولم تكن إزالة الخلافة العثمانية سنة
١٩٢٤ م إلا مجرد إزالة رمز فقد كل المضامين . وذلك مخافة النهضة التي
يمكن أن تملأ هذا الوعاء وذلك الرباط بالمضامين من جديد . كان الخوف
من مجيء « التجديد » - الذي بدأه الأفغانى - هو الداعى لإزالة الرموز
الإسلامية وتغذية آثارها وإزالة ذكرها - بالعلمانية والافليمية والتغريب -
من أذهان المسلمين ! .. وفي هذا الضوء وحده يمكن فهم غضب الدكتور
لوبيس على الأفغانى « لأنه رأى أن لا منقذ للعالم الإسلامى إلا باتحاده في
جامعة إسلامية . داخل إطار خلافة تجعل الدين والدولة شيئا واحدا .
وتسير على نهج الخلفاء الراشدين .. »^(٥)

ولقد سعى الغرب الاستعماري . ولا يزال . وسعى « المنغريون » .
ولا يزالون . إلى أن يبدأ العرب والمسلمون من حيث انتهى الأوروبيون . إن
مرادهم هو أن تنسخ الحضارة الغربية موروثنا الحضارى .. هذا الموروث
الذى يمثل الإسلام السياسى والحضارى والفكرى فيه دور الحكم والمعمار
والمشروعية .. ومن هنا باتى عداؤهم لأسلمة نهضتنا الحديثة وصيغ
مشروعنا الحضارى بصيغة الإسلام .. وفي هذا الضوء وحده يمكن فهم
غضب الدكتور لوبيس على الأفغانى . الذى دعا إلى استقلال حضارى
مؤسس على أصول الإسلام .. وقوله : « إن الأفغانى كان مفكرا ذنبيا

(٥) أصل « دراسة » الدكتور لوبيس . ص ١٨٣ .

يشتغل بالسياسة بقدر ما كان مفكراً سياسياً يشتغل بالدين .. لقد كان يريد كل شيء ، الدين والدنيا جميعاً .. « .. ولما كانت « العلمانية » ترفض الجمع بين السياسة والدين ، فلقد اعتبر الدكتور لويس أن « مأساة » الأفغان قد تمثلت في هذا الجمع بين السياسة والدين ! .. ولذلك فهو - في نظره - « رجعى في السياسة » ، لم يوفق إلى حل ذلك الصراع الرهيب داخل نفسه بين شخصية المصلح الديني ، الذي يسعى لتجديد الاسلام بالفكر الحديث . وبين شخصية الزعيم السياسي الذي يسعى لإنقاذ المسلمين من براثن الاستعمار الأوربي .. لقد كان على الأفغان أن يختار بين شخصية المصلح الديني والثائر الاجتماعي الذي يقود معسكر الثوار .. (٦)

فبالمنطق العلماني ، هنا « تناقض » يقضى إلى « مأساة » .. لكن « المنطق الاسلامي » يرى في هذا الجمع الأمر الطبيعي المنسق مع طبيعة الاسلام وعلاقته بشؤون الدنيا .. فابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] كان المصلح الديني ، والمقاتل لتحرير الأرض من التتار .. وكذلك كان « المهدي » في السودان .. « والسوسني » في ليبيا .. و« ابن باديس » في الجزائر .. وكذلك جمال الدين ! ..

إن هذه الثنائية ، وذلك الفصل بين « الدين » و« السياسة » .. بين الإصلاح والتجديد الديني « وبين قيادة الأمة في معركة التحرر والنهضة الحضارية - وهما من لوازم « العقلية العلمانية » - هما اللذان جعلاً الدكتور لويس يخطئ الخطأ المحوري في تقديره وتقويمه لعلاقة دعوة جمال الدين الأفغان وحركته الثورية والإصلاحية بالدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد

(٦) أصل « دراسة » الدكتور لويس .. ص ١٠٦ . [انظر التفاضل] العدد ٦ ص ٦٨ ، والعدد ١٧ ص ٦٧ .

الثاني [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ - ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] فحكم تلك الأحكام الظلمة والعشوائية على دعوة « الجامعة الإسلامية » عندما قال : « لقد كانت رسالة الأفغانى فى (العروة الوثقى) هى نفس الشعور القومى ، وتدعيم الشعور الدينى كأساس لمقاومة الاستعمار ولاخرواف الحكام ، ولم يكن هناك مستفيد ، مباشرة ، من هذا التيار يومئذ إلا الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد . أما المستفيد ، بطريق غير مباشر ، فقد كان الاستعمار فى الخارج وأصحاب الحكم المطلق فى الداخل . كذلك كانت سياسة الأفغانى لمصر والسودان قائمة على إعادة مصر والسودان إلى حظيرة الدولة العثمانية ، والقضاء على كل حركة استقلالية فيها عن الباب العالى ! » (٧)

فهذه « الثنائية العلمانية » - التى لا ترى علاقة ما بين الدين والسياسة - هى التى جعلته يتوهم أن « تدعيم الشعور الدينى » لابد وأن يستلزم « نفس الشعور القومى » وأن « الحفاظ على الانتماء الإسلامى » - الذى مثلته دعوة « الجامعة الإسلامية » - إنما « يعنى » القضاء على الحركات الاستقلالية . فالمنطق العلمانى ، ومعاييره أعجزت الدكتور لويس عن أن يبصر ، فى فكر الأفغانى ، كيف كان الرجل داعية إلى « الوطنية » وإلى « القومية » وإلى « الجامعة الإسلامية » ، فى ذات الوقت ، وكيف وضح توالى وتأزر هذه « الدوائر » فى فكره ، دونما تناقض أو تعارض . وكيف ، أيضا ، كان الرجل داعية « للاستقلال » الذى تتدعم إمكاناته وبشدة عوده بتنمية روابط الانتماء الأوسع ، لابقطع هذه الروابط - الذى - كما قد ثبت - كان عامل ضعف لهذا « الاستقلال » !

هنا يمكن « جذر الخطأ الفكرى » فى تقوم دعوة « الجامعة الإسلامية »

(٧) أصل « دراسة » الدكتور لويس : ص ١٧٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ .

عند جمال الدين .. وهى قضية تستحق المعالجة الصبورة والموضوعية . لا
لاقتناع الدكتور لويس ، وإنما بهدف الحوار الفكرى الخلاق مع تيار
العلمانية فى وطن العروبة وعالم الاسلام .



أنا لست مع الدولة العثمانية ، ورأى أن استيلاءها على مصر والعالم
العربى فى العقد الثانى من القرن السادس عشر الميلادى قد مثل عاملا
سلبيا ، أطل ليل التخلف المملوكى ، وزاد فوضى الإدارة ، وأخر تكوين
« الدولة » بالمعنى الحديث ، وأنقل الانسان العربى بالمظالم الاجتماعية .
وأطل مباتنا الحضارى ، بينما كان العدو الأوربى ينهض ، حتى فوجئنا
به - فى صورة بونايرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] وحملته الفرنسية سنة
١٧٩٨ م يقتحم علينا عالم العصور الوسطى !..

وعواطفى الكاملة والحارة مع « الغورى » [٨٥٠ - ٩٢٢ هـ ١٤٤٦ -
١٥١٦ م] وطومان باى [٨٧٩ - ٩٢٣ هـ ١٤٧٤ - ١٥١٧ م]
والفرسان الذين قاتلوا جيش السلطان سليم [٨٧٥ - ٩٢٦ هـ ١٤٨٠ -
١٥٢٠ م] وهى كذلك مع ابن إياس [٨٥٢ - ٩٣٠ هـ ١٤٤٨ -
١٥٢٤ م] الذى رثى مصر والوطن العربى - بسبب الفتح العثمانى - فى
رائعته [بدائع الزهور] ؟!..

وكذلك ، فأنا لست مع أية رابطة تجعل من مصر « ولاية تابعة » - لا
لأنى ، فقط ، مصرى عاشق لمصر - وإنما لأنى أو من أن نهضة وطن
العروبة وعالم الاسلام رهن بأن تلعب مصر دورها « القائد - الطبيعى » فى
محيطها العربى وعالمها الاسلامى .. وأوقن أن أعداء العروبة والاسلام .
١٦٩

تاريخيا وفي الحاضر ، قد كان ولا يزال سبيلهم لإضعاف العرب والمسلمين هو عزل مصر أو إضعافها ، أو العزل والإضعاف كليهما ، فهذا مترابطان ..!

وفي رأيي أن هذا الدور « القائد » لمصر هو « طبعي » . بقدر ما هو « رسالة » .. وعاء .. ومسئولية .. وليس فخرا قبلها ولا نعمة إقليمية ولا تعصبا وطنيا بأي حال من الأحوال .. وهو أيضا ليس طارئا ولا حديثا .. فحقبة الخلافة الراشدة .. والأموية .. وشطر من خلافة بني العباس - عندما كانت مصر « ولاية » تابعة « للمدينة فدمشق فبغداد » .. في هذه الحقبة كانت مصر تعيش « فترة النقاها » بعد مأساة القهر البيزنطي . الذي لم ينقذها من سحقه القومي ومسحه الحضاري إلا جيش عمرو بن العاص ..! .. وبعد فترة النقاها هذه التي قنعت فيها بمركز « الولاية - المتميزة » - عادت إلى دورها « الطبعي - القائد » : « دار خلافة » .. فسلطنة » .. حتى فأجأها غزو العثمانيين سنة ١٥١٧ م ..

ذلك هو رأيي في دور مصر .. وطبيعة علاقتها بقوميتها العربية وعالمها الاسلامي .. وفي أثر السلطنة العثمانية وتسلطها على تطور مصر والوطن العربي وعالم الاسلام .. وهو رأي يختلف فيه وبسببه مع إخوة وأصدقاء من الإسلاميين الذين أكن لهم كل التقدير والاحترام ..

لكن .. هل من الحق ومن المنطق أن نضع الفتح التركي والتسلط العثماني ، مع الاستعمارين الانجليزى والفرنسى على قدم المساواة - كما يصنع الدكتور لويس عوض - ١٩ .. أم أن الموضوعية والانصاف - خصوصا إذا أخذنا ملائسات العصر الذى تم فيه هذا الفتح في الاعتبار - تجعلنا نرى في الدولة العثمانية :

● رابطة ظالمة . شدتنا إلى سلطة فقيرة في الحضارة والابداع الحضارى إلى حد العدم !.. فرادت تخلفنا في الكم والكيف .. وأخرت بقطتنا وتقدمنا وبعثنا الحضارى عدة قرون ..

● وهى فى ذات الوقت ، بما مثلته من قوة عسكرية كاسحة . قد أخافت الغرب الاستعمارى - عدونا الأول والرئيسى - فكانت جدارا من القوة أخر غزوه لبلادنا حينما طويلا من الدهر ..

● وأيضا فهى قد حفظت للأمة هويتها . وإن فى صورتها الجامدة والمحافظة ..

● ثم ظلت حاملة « لرمز الوحدة » - الخلافة - .. الأمر الذى حفظ الإطار والوعاء ، فأعطى الأمل للمصلحين والثوار فى إنجاز مشاريعهم الإصلاحية مع الحفاظ على « الوحدة » ، التى كان أعداؤنا . ولايزالون . أحرص الناس على تفكيك عراها . ليلتهموا عالمنا الإسلامى إقليما بعد إقليم !..

ذلكم هو تقويمى لدور الدولة العثمانية فى تاريخنا العربى والإسلامى الوسيط .. ومنه - كمدخل - ننتقل إلى مضمون شعار « الجامعة الإسلامية » عند جمال الدين الأفغانى ، لتساءل :

هل كان الأفغانى يريد . « بالجامعة الإسلامية » ، إحكام قبضة السلطنة العثمانية على رقاب العرب والمسلمين - بما يعنيه ذلك من كبت الحركات القومية والاستقلالية - والتخلى عن دعوة الثورة والتجديد . لتجاوز التخلف القائم - كى لا تغضب السلطة العثمانية أو تفكك رابطتها - لأن الخطر الرئيسى ، المتمثل فى الغزوة الاستعمارية الغربية كان يتطلب

تسخير كل الجهود وجميع الطاقات للحرب على هذه الجبهة وحدها ؟ ١ ..
هل كان هذا هو مفهوم ومضمون « الجامعة الاسلامية » عند جمال
الدين الأفغاني - كما يقول الدكتور لويس - ٢ ؟

أم أن الأفغاني - مع تركيزه على خطر الاستعمار الغربي - لم يتخل عن
ثورته الاصلاحية التجديدية ؟ .. ومع دعوته « للوحدة » وراء الخلافة
الواحدة .. لم يغفل « الصراع » ضد عوامل التخلف والرجعية والضعف
والجمود ، التي كانت تحرسها وتمثلها هذه الخلافة ؟ ١ ..

هل كانت « الجامعة الاسلامية » ، عنده ، تعني « الوحدة » التي
تغض الطرف عن التناقضات ، وتدير الظهر للثورة والإصلاح والتجديد ،
كي لا تتبدد الجهود فتضعف المقاومة للخطر الرئيسي : الاستعمار ؟ ٢ ..
أم أن هذه « الوحدة » كانت تتطلب - في فكر الأفغاني - الدعم
« بالصراع » ضد عوامل التخلف ، وبالثورة والتجديد لتنمية طاقات الأمة
في صراعها ضد الاستعمار ؟ ٢ ..

إننا مع التصور الثاني والتفسير الثاني لمفهوم « الجامعة الاسلامية » عند
الأفغاني .. ولسنا مع المفهوم الأول الذي تصوره الدكتور لويس ..

إن أهمية هذه القضية تتعدى حدود إنصاف الأفغاني من خصومه ! ..
فنطاقها يتجاوز تقويم دعوة « الجامعة الاسلامية » في النصف الثاني من
القرن الماضي ، إلى مضمون هذه الدعوة ومفهومها اليوم وغدا ؟ ١ ..
.. « جامعة إسلامية » لماذا ؟ ٢ .. ولأية أهداف ؟ ٣ .. وبأي مضمون ؟ ٤ ..
ولحساب من من القوى الاجتماعية والسياسية في واقعنا الراهن ؟ ٥ ..
ومعلاقتها بالخائز القومي في المحيط الاسلامي ؟ ٦ .. وماهى « طبيعة » السلطة
السياسية في « الدولة » عند دعاة « الجامعة الاسلامية » ؟ ٧ .. الخ .. الخ ..

إنه مبحث هام وضروري ، تتجاوز أهميته وضرورته نطاق التاريخ !
والآن .. لنبدأ بأولى الخطوات التي تجيب على هذا السؤال :

هل كان مضمون شعار « الجامعة الاسلامية » واحدا عند كل الدعاة
الذين رفعوا هذا الشعار ؟ .. بحيث يمكن تصور قيام الاتفاق ، حول هذا
المضمون ، بين كل من الأفغانى والسلطان عبد الحميد ، لجرد أنها قد رفعا
معا شعار « الجامعة الاسلامية » ؟ ! ..



إن « الجامعة الاسلامية » قد عنت وتعنى - فى الأساس - ذلك التيار
الفكرى والسياسى العريض ، الذى أبصر قاداته وأنصاره أن هناك عددا
من التحديات التى تواجه الفكر الإسلامى والشعوب والأمم الاسلامية ،
سواء أكانت تلك التحديات آتية من داخل الأوطان الاسلامية ،
كالتخلف الفكرى والروحى والاعتدار الحضارى والسياسى والصراعات
الاقليمية والقبلية ، أو آتية من الخارج فى شكل المد الاستعمارى والامبريالى
الذى زحف من أوروبا على الشرق ، وخاصة فى القرن التاسع عشر .. تيار
الجامعة الاسلامية هو الذى أبصر أصحابه هذه التحديات ، ثم آمنوا بأن
تشخيصها ، فى مختلف هذه البلاد ، له كذلك طريق واحد يؤدى إلى تلك
الغاية الواحدة المنشودة ، وهى التغلب على هذه التحديات ، والعودة
بالمسلمين ، ثانية ، إلى دائرة التأثير الانسانى والعطاء الحضارى ، كما كانوا
قبل أن تقهرهم هذه التحديات ..

ذلك هو الوصف العام لتيار « الجامعة الاسلامية » ، الفكرى
والسياسى ، كما عرفه الشرق فى ذلك التاريخ ..

ولكن وحدة هذا الشعار لم تحف ، فى يوم من الأيام ، عن عين
الباحث المتأمل تلك الفروق الجوهرية التى جعلت ، فى الحقيقة والواقع من

تيار « الجامعة الإسلامية » عددا من « المدارس » و« الفصائل » ، بينها من عوامل الاختلاف والتنازع ، أحيانا ، الشيء الكثير ، بل والخطير !... ومن هنا كانت ضرورة إلقاء نظرة على « خريطة » « الجامعة الإسلامية » ، لتمييز أهم ماضم هذا التيار من « المدارس » و« الفصائل » التي رفعت هذا الشعار ..

● فتحن نستطيع أن نذكر الحركة الوهابية ، التي أسسها إمامها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] كأقدم تيار فكري وسياسي يمكن أن يتدرج تحت شعار « الجامعة الإسلامية » في عصرنا الحديث .. فلقد كانت الوهابية - في الفكر - حركة ودعوة ترمي إلى تجديد سبيل الإسلام والمسلمين عن طريق طرح ركाम البدع والخرافات التي دخلت في عقائد المسلمين ، وهي البدع والخرافات التي كونت الجزء الأساسي من تصور السلطنة العثمانية ومؤسساتها الفكرية عن عقائد الإسلام ، ومن ثم كانت الوهابية - سياسيا - حركة مناهضة للعثمانيين (٨)

● ولقد كانت الحركة السنوسية ، التي أسسها بالمغرب العربي إمامها محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م] هي الامتداد الوهابي إلى بلاد الشمال الأفريقي ، بعد أن أدخلت في بنيتها الفكرية ونشاطها العملي خصائص المكان وتحديات الاستعمار الغربي . وخاصة الفرنسي ، التي كانت تزحف على تلك المنطقة في ذلك الحين .. ومن ثم فإن السنوسية ، كذلك ، يطابعها الصوفي تميزت به عن الوهابية ،

(٨) [حاصر العالم الإسلامي] مجلد ١ ج ١ ص ٢٩١ .

كانت هي الأخرى تياراً يعمل ويتناضل تحت شعار « الجامعة الإسلامية »^(٩) ..

● وكذلك الدعوة والحركة المهدية ، التي أسسها ، بالسودان ، إمامها محمد أحمد « المهدي » [١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ - ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م] بما مثلت - في الفكر - من تجديد .. وفي السياسة من تصد للغرب وللأفكار .. ومن دعوة لتحرير عالم الاسلام « من غانة إلى فرغانة » - كما قال المهدي - كانت هي الأخرى فصيلة من فصائل « الجامعة الإسلامية » ، تلاءمت مع ظروف السودان وواقعه في ذلك التاريخ^(١٠) ..

● ثم .. هناك التيار الذي قاده الأفغانى ، والذي كان ، بحق ، أبرز تيارات « الجامعة الإسلامية » في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .. والذي تميز بامتداده إلى مختلف بقاع عالم الاسلام ، على عكس الوهابية والسنوسية والمهدية .. كما تميز عنها بعدد من الخصائص في مقدماتها ..

١ - الإصلاح الدينى من منطلق العقلانية ، إيماناً بأن الشرق لن ينتصر في صراعه مع الغرب إلا إذا تسلح بسلاح العقل ، ذلك السلاح الذى ضمن للغرب تفوقه في هذا الصراع .

٢ - تجديد الصلات الحضارية مع الغرب ، واقتباس المناسب من حضارته - كما صنع العرب والمسلمون في العصر العباسى - حتى يتمكن الشرق من العودة إلى التأثير والعطاء الحضارى مرة أخرى .

٣ - المحافظة على بقاء السلطنة العثمانية ، وتنمية جوانبها الإيجابية .

(٩) المصدر السابق . مجلداً ج ١ ص ٢٩٠ .

(١٠) انظر دراستنا عنها في كتابنا [العرب والتحدى] ص ١٧٥ - ١٩٩ . طبعة الكويت

سنة ١٩٨٠ م .

والعمل على تجديد شبابها ، لا من منطلق الايمان بها كخلافة اسلامية وإمارة للمؤمنين ، وإنما من منطلق الضرورات التي يحتمها التصدي للعدو الرئيسي وهو الاستعمار الغربى الزاحف على ديار الاسلام .. فهو يحافظ عليها سياسيا ، ويحاول تنمية قواها السياسية ، ويهاجم فكرتها الرجعية المتخلفة بهدف تطويرها وتجديد شبابها . ومن أجل ذلك لم ينصر هذا التيار حركات الانفصال القومى العربى عن الامبراطورية العثمانية ، لأنه كان يبصر تربص الاستعمار الأوربى كى يكون هو الفائز الأول . وربما الوحيد ، من وراء الصراع القومى وحركات الاستقلال القومية ضد العثمانيين ..

لقد كتب الأفغانى فى ١١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م - فى صحيفة « الانتراسيجان » الفرنسية - ليكشف المخطط الانجليزى - الذى استطاعت انجلترا تنفيذه - مستخدمة الشريف حسين سنة ١٩١٦ م .. أى بعد كتابة الأفغانى لما كتب بأربعة وثلاثين عاما ١٩ - كتب الأفغانى يقول : « إن بريطانيا لديها مخطط لإقامة خلافة صغيرة فى مكة لصالح أسرة بنى عون . التى يتقلد أحد أفرادها حاليا منصب شريف مكة . وغرض بريطانيا من ذلك هو التخلص ، من خلاله ، من وجود قوة عظمى - [الخلافة الاسلامية الواحدة] - للسيطرة على جميع المسلمين ^(١١) » ! ..

و« بلنت » يحكى أن الأفغانى ، حتى فى لحظات يأسه من إصلاح القيادة التركية للسلطنة العثمانية ، كان يفكر فى تغيير هذه القيادة . « بتعريب الخلافة ، مع المحافظة على وحدتها ، بل وعلى عاصمتها » .. فهو « الصراع » فى إطار « الوحدة » ، الذى جعله يفكر فى إحلال « مهدي السودان » أو « الشريف حسين » أو « إمام صنعاء » محل السلطان

(١١) [التضامن] العدد ١٨ ص ٦٤

عبد الحميد ، مع بقاء وحدة الخلافة ، وفتح الطريق - بإزالة عقبة التخلف التركي - لتجديد شبابها ! .. يقول « بلنت » - فيما دونه بيومياته في ٨ أكتوبر سنة ١٨٨٥ م - : « .. حديث طويل مع جمال الدين حول آمال المستقبل في استانبول . إنه يؤيد فكرة أن المهدي ، أو خلف المهدي يحتل مكان السلطان . أو أن يفعل ذلك الشريف عون . أو إمام صنعاء . فأى من هؤلاء - كان في رأيه - يمكن الآن أن يتولى القيادة ، ولكن استانبول يجب أن تبقى مقر الخلافة .. » (١٢)

وعندما عرض « بلنت » الفكرة الانجليزية حول استقلال شبه الجزيرة العربية عن الدولة العثمانية ، غارضها محمد عبده ، قائلا : « إن العرب أهل لذلك الاستقلال . ولكن الترك لا يمكنهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة الواقعة لها بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما . وهذان الشعبان - (العرب والترك) - هما أقوى شعوب الاسلام . فتكون العاقبة إضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته ! .. » (١٣)

إن بصيرة الأفغانى ومحمد عبده - وتيار « الجامعة الاسلامية » - كانت تبصر حتى تفاصيل المخطط الذى نفذته الاستعمار بعد سنوات طويلة من وفاة هذين الامامين - [اللذين يصف الدكتور لويس غوض فكرهم السياسى هذا بأنه « مفاسد » و« هنكرة » ١٤] - .. ومن هنا كان حرص هذا التيار على « وحدة » الخلافة ، ومحاولة « الاصلاح » داخل إطارها ، حتى

(١٢) أصل « دراسة » الدكتور لويس . ص ٢٢٩ . وهو ينقل عن كتاب « بلنت »

[جوردهون فى الخرطوم] ص ٤٩٢ .

(١٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ١ ص ٧٣٥ .

لو تطلب الإصلاح تعريبها . واستبدال خليفة عربي بالخليفة العثماني !
 إن الخيار أمام تيار « الجامعة الإسلامية » لم يكن بين طريقين
 منفصلين - كما يرى الدكتور لويس عوض - طريق : « نسف الدولة
 العثمانية » أو طريق « مواجهة العدو الخارجي ، الأكثر خطرا من العدو
 الداخلي » .. والأفغانى لم يختَر الطريق الثانى وحده ^(١٤) .. ذلك أن
 الأفغانى وتياره قد ركز على مواجهة الخطر الخارجى ، وسعى : « بالثورة
 التجديدية » إلى إصلاح الدولة العثمانية ، لتعريض التخلف ، وتحقيق
 التقدم ، ولضمان النصر فى مواجهة العدو الخارجى أيضا ! ..

لقد كانت المحافظة على وحدة الدولة موقفا سياسيا يميله الانتماء
 الإسلامى ويدعو إليه الصراع مع الاستعمار .. وكان « تعاون » تيار
 « الجامعة الإسلامية » - كما تمثل فى الأفغانى وحركته - مع الدولة العثمانية
 فى إطار سعى هذا التيار « لإصلاح » هذه الدولة .. لقد كان - إذا جاز
 التعبير - « تعاوننا مخططا وهادفا ومشروطا » ! ..

● كان الأفغانى واضحا تماما فى إدراكه وإعلانه عن أن « التخلف
 الحضارى » الذى يعانى منه العثمانيون ، قد أضرب بالميزة التى مثلوها تاريخيا ،
 وهى كونهم قوة عسكرية أفضت مضاجع الغرب الاستعمارى وأخرت غزوه
 لوطن العروبة وعالم الإسلام .. فهذا « الجدار العسكرى » ، الذى مثله
 العثمانيون أمام الغرب قد افتقر إلى « الإبداع الحضارى » الذى يدعمه
 ويطوره ويرمم ما يظهر فى ثنياه من ثغرات ، الأمر الذى فتح فى هذا
 « الجدار العسكرى » للغرب أبوابا أخذ ينفذ منها لالتهام ثروات المسلمين ،
 بالامتيازات أولا ، ثم لالتهام الأوطان بما فيها من ثروات ! ..

(١٤) [التضامن] العدد ١٧ ص ٦٧ .

كانت عين الأفغانى على هذا « التخلّف الحضارى » ، يسعى لتجاوزه بالنهضة - لا على النمط الغربى - وإنما بالمشروع الحضارى الاسلامى الخاص ، الذى يستفيد من عناصر القوة فى حضارة الغرب بإضافتها إلى المميزات الحضارية للإسلام والمسلمين .. لقد أعلن الرجل أن « الدولة العثمانية .. قد بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية فى مدنيّتها وعلومها وصناعاتها .. » (١٥) .. ومن هنا كان « مشروعه » لإصلاح الدولة ، بتجديد فكريّتها وإدارتها وتنظيماتها وفلسفة الحكم فيها ، كى تتاح الفرصة للشعوب التى تحكمها فتأخذ بأسباب المدنية والعلوم والصناعات لتفلت من شرك الاستعمار ..

● والتعاون الذى قام بين الأفغانى وبين السلطان العثمانى عبد الحميد ، والذى وجه الأفغانى ، فى إطاره ، رسائله إلى قادة الأمة للتضامن والتعاقد - تحت رايات « الجامعة الاسلامية » - خلف السلطان .. هذا التعاون لم يكن بلا شروط ولا تحفظات .. ومن ثم فلم يكن مؤسسا على مفهوم السلطان الخاص لمضمون « الجامعة الاسلامية » . ولا قائما على « أرض السلطان » وحدها ! .. وإنما كان تعاونا هادفا إلى تحقيق ..

- ١ - فعالية أكبر فى مواجهة الخطر الرئيسى : الاستعمار ..
- ٢ - الإصلاح الدستورى لنظام الحكم وفلسفته فى الدولة ..
- ٣ - تجهيز أجهزة الدولة القيادية من الخونة والعجزة والمتخلفين ..
- ٤ - استبدال « اللامركزية » - التى تتيح فرص النمو والازدهار للخصائص القومية والامكانيات الوطنية والمادية - فى أقاليم الدولة وولاياتها ،

(١٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

« بالمركزية » القائلة للخصائص الذاتية للأقاليم والولايات ..

٥- تعريب « الدولة » - بل وتعريب « الشعب التركي » ، لتصبح الدولة تجسيدا « لأمة عربية » ، حتى تستفيد من فعاليات العرب والعروبة في مواجهة مايفرضه عليها خصومها من تحديات .. وليعود للأمة العربية دورها القائد في المحيط الاسلامى . الأمر الذى يحقق للرابطة الاسلامية قيادة « الترك » مؤهلة ولا جديرة بأن تجذبهم فى هذا الطريق ..

٦- الإلحاح على ما لمصر- تاريخيا وحضاريا وواقعيا - من دور متميز فى المحيط العربى والاسلامى .. هو- دونمالبس - دور القائد فى هذا المحيط

تلك هى أبرز ملامح « مشروع الأفغانى » لـ « تأييد الدولة العثمانية - وإصلاحها » .. لـ « جمع المسلمين حولها .. ولتجاوز السلبات التى كانت تمثلها فى واقع المسلمين » ! ..

● إن الأفغانى يحدثنا عن « مواهب » السلطان عبد الحميد .. وكيف سعى إلى تسخير هذه المواهب جميعها فى الصراع ضد الاستعمار .. وكيف دعا السلطان إلى الإصلاح الدستورى وتطهير دولته من العناصر المعوقة عن النجاح فى هذا السبيل المقترح لتحقيق هذا « المشروع » .. يقول الأفغانى : « إن الممالك الاسلامية فى الشرق لاتسلم من شركاء أوروبا ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى ، إلا ببقطة وانتباه عمومى ، وانصواء تحت راية الخليفة الأعظم » ..

فهو هنا يحدد ، بوضوح ، أن مواجهة الاستعمار - الخطر الأعظم - لاتتحقق بتأييد الدولة العثمانية فقط ، بل لابد مع ذلك ، وقبلة ، من

« البقطة العامة » .. أى النهضة التى تحققها خطوات الإصلاح فى مشروع جمال الدين ! ..

ثم يواصل الأفغانى حديثه فيقول : « إن السلطان عبد الحميد ، لو وزن مع أربعة من نوابغ العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة .. ولا عجب إذا رأيناه يذلل مايقام لملكه من الصعاب من دول الغرب .. رأيت يعلم دقائق الأمور السياسية ، ومرامى الدول الغربية .. وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجاً وسلاً .. وأعظم ما أدهشتى ، ما أعد من خفي الوسائل ، وأمضى العوامل ، كى لا تنفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ، ويربها ، عياناً محسوساً ، أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها ..

ولقد رأيت من السلطان ارتياحاً لقبول كل ماذكرته له من محاسن الحكم الدستورى ، وأن الاسلام أول من عمل به فى سلطانه ..

إن مارأيت من بقطة السلطان وشدة حذرى وإعدادة العدة اللازمة لإبطال مكاييد أوروبا ، وحسن نواياه واستعدادة للنهوض بالدولة (الذى فيه نهضة المسلمين عموماً) هو الذى دفعنى إلى مد يدى له ، فبإيعته بالخلافة والمملك ! .. (١٦٦) »

ذلك هو « إطار التعاون » بين الأفغانى وبين السلطان عبد الحميد ! ..

ولم يكن الأفغانى « حالماً » ولا هو « بالغافل » عن عيوب السلطان عبد الحميد ذاته ، ولا عن العقبات التى يمثلها أركان الدولة أمام نجاح مشروعه « لايقاظ الدولة والأمة » لمواجهة خطر الاستعمار .. لقد كان يبلح على السلطان كى يظهر جهاز حكم الدولة .. ويشكو من تردد السلطان فى

(١٦٦) المصدر السابق . ص ٢٤٥ . ٢٤٦ .

انجاز هذا الأمر .. حتى لقد تحدث إلى السلطان يوما فقال : « يا جلالة السلطان .. مللت من تعاطينا الشكاية ١٤ .. ومن غيرك صاحب الأمر ١٥ .. نخذ بحزم جدك محمود ، واقص الخائنين من خاصتك (الذين يعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات ، وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة ١٦) .. خفف الحجاب عنك ، واظهر للملا ظهورا يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نعم الحارس الأجل ! (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ١٧ .. » ١٨

● أما فيما يتعلق بفك « المركزية المستبدة » التي كانت تحكم الدولة بها قبضة الآستانة على الأقاليم والولايات ، فلقد تحدث الأفغانى إلى السلطان عنها ، وقدم إليه « مشروع اللامركزية » ، الذى يجعل الولايات الإسلامية المرتبطة بالدولة أشبه ماتكون « بالكومنولث الإسلامى » ، الذى يحفظ رباط الوحدة - وحدة الانتماء الإسلامى ، ومواجهة التحديات الواحدة - داخلية كانت أو خارجية - والذى يتيح - فى ذات الوقت - كل الفرص ويفتح كل الأبواب لتنمية السمات القومية والامكانيات المادية بهذه الولايات ، التى يتاح لها ، فى ظل هذه « اللامركزية » ، استقلال حقيقى يعتمدها من سلبيات « المركزية » التى كانت سائدة فى أغلب تلك الولايات ..

إن هذه « اللامركزية » ، التى أسس العرب العثمانيون - عرب الولايات العثمانية - حزبا يدعو إليها أواخر سنة ١٩١٢ م قد دعا إليها الأفغانى قبل ذلك بنحو عشرين عاما ، كطريق يجمع بين « الوحدة - والاستقلال » لشعوب هذه البلاد وطاقتها .. فتحدث إلى السلطان

(١٧) النحل : ٦١ .

(١٨) الأعمال الكاملة لحال الدين الأفغانى [ص ٢٤٧ .

عبد الحميد عن تصويره لها في حوار طويل دار بينه وبين السلطان . سجله الأفغاني .. يقول فيه :

« .. قلت للسلطان عبد الحميد : أأذن في تقديم لائحة في تصوراتي لتحسين حالة المملكة ؟ والتحوط بصورتها من مطامع الأعداء ؟ ..
قال : بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة ، فأنا لك من السامعين ..

قلت : أعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ، ترسل إليها الولاة من الآستانة - مثل باكير باشا ، ومحمد باشا اليكشي ، وأمثالهما : - لجمع الأموال من غير وجه ، وتوزيعها على رجال الدولة هنا - « الآستانة » - فقط ، على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتهم ، هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة ؟ أم جعلها خديوية ، كما هي قبل الانجليز ؟ ! ..

- فتفكر السلطان مليا ، وحول وجهه نحو النافذة عني ، حتى ظننت أن الحديث قد ساء ، وأنه لا يجب الخوض فيه ، ولا العودة إليه ، وإذا هو بغتة قد التفت ، وتوجه بكليته إلى ، وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا ، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحا بالقوة ! -

وقال : لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية . ثم ماذا ؟ ! ..

قلت : يا مولاي ، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية ، فتبدأ فتجعلها عشر خديويات

قرأت السلطان - وهو على تمام الإصغاء لما أقول - قد تقطع وجهه
وعلته كآبة امتعاض وحزن -

قلت : يا مولاي ، وعزة الحق ، وبولائي لأمر المؤمنين ، ونصحي
للمسلمين ، إن ما ساقني إلى ما قلته إلا الإخلاص والحرص على ملكك ،
والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية ، التي ليس لجمع شتاتها
وتوحيد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة . وجلالتك ترى
أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك الجزء بعد الآخر . فصار من الواجب
نظم الممالك وأجزائها بسلك من النظام أوثق وأشد وأحكم . وما وجدت
ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته .

- ولما انتهيت .. هز السلطان رأسه ، وتناول لفاقة من التبغ ، وأسرع
في تدخينها -

وقال : ماذا تركت ، يا حضرة السيد ، للسلطان ؟ ! وما أبقيت
لنحت - [عرش وعاصمة] - آل عثمان ؟ ! ..

قلت : يبقى مولاي جلالة السلطان : ملك أولئك الملوك ، وينضم إلى
العرش العثماني عشرة عروش ، غير عرش مصر ، ثم متى نهضت هذه
المقاطعات والحدويات ، وأخذت نصيبها من الرق والعمران .. لاشك
أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى ، للاتحاد معها ، إذ هي في أمس
الحاجة لشد الأزر ، ولصون كيائها من مطامع الغرب ، الموجهة نحو عموم
دول الشرق . ثم ما أسرع الأفغان للانتظام في ذلك السلك . سلك
اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة
الكبرى . ثم ، ومتى تم ذلك ، هل تقعد أهل الهند عن نصره الخليفة
الأعظم واللاحق لشد ساعد إخوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول

الإسلامية في الشرق ، وعن هندهم أيضا ؟ ! أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربكة الاستعمار والمستعمرين . ويرجع الشرق للشرقيين ؟ ! .. » (١٩)

ذلك هو «مشروع اللامركزية» الذي سعى إليه الأفغانى ، والذي عرضه على السلطان عبدالحميد.. وهو الذى يزكى ما كتبه فى [العروة الوثقى] عن أن «الدولة» الإسلامية هى «اتحاد» يشبه «الكومنولث» . وليست رابطة مركزية تقهر ما فى إطارها من تمايزات .. لقد كتب فى [العروة] عن هذا التصور «اللامركزى- التضامنى» يقول : «لا ألتصص بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا ، فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته وبقائه ببقائه .. » (٢٠)

ذلك هو تصور الأفغانى «لمشروع اللامركزية» . كسبيل للإصلاح الإدارى فى الدولة العثمانية . وكسبيل «لكومنولث إسلامى» وشرق تواجه به الأمم والشعوب الخطر الأعظم ، وهو الاستعمار .. وتسلكه سبيلا يعينها على تنمية خصائصها وإمكاناتها الأدبية والمادية ..

ولقد أبصر الأفغانى للأمة العربية- بالمعنى القومى- دورا متميزا ، بل ورائدا ، فى محيط «الكومنولث الإسلامى» ، الذى دعا شعوب الشرق إلى الارتباط «بجماعته الإسلامية» .. فهو القائل : «إنه لاسبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلفتها .. وإن الأمة العربية هى «عرب» قبل كل دين

(١٩) المصدر السابق - ص ٢٣٧ - ٢٤٠ .

(٢٠) المصدر السابق - ص ٣٤٥ .

ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للبيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان ! ... فالمسلم أو المسيحي أو اليهودي ، في مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم ، قبل كل شيء على نسبه العربية ، فيقول : «عربي» ، ثم يذكر جامعته الدينية ؟ ! ...» (٢١)

وكما دعا الأتراك - في «مشروعه الإصلاحى» - إلى «اللامركزية» ، التى تبرز وتنمى السمات الخاصة للأمم الداخلة فى إطار الدولة العثمانية ، فلقد دعاهم إلى أن «يتعربوا» ، كسبيل لتحضرهم التحضر الحقيقى بحضارة الإسلام ! .. وكسبيل لئى النعرة القومية التى كانت قد شرعت تطل برأسها لتفتت وحدة الدولة فى مواجهة الاستعمار .. وللأفغانى فى هذا الموضوع كتابات ، منها ذلك النص الذى يقول فيه : «لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما ، وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة ، ولانفتحت من بين الأمتين النعرة القومية . وزال داعى النفور والانقسام . وصاروا أمة عربية .. ولكنها فعلت العكس . إذ فكرت بتترك العرب . وما أسفها سياسة وأسقمه من رأى .. لقد كاشفت السلطان عبد الحميد بهذا الموضوع .. ولكنه كان قليل الاحتفاء بما قلته له ! ...» (٢٢)

ولم يكن إِبصار الأفغانى للدور المتميز للأمة العربية فى المحيط الإسلامى يحمل أى انتقاص لحق أى من شعوب الشرق وقومياته فى التمسك والاعتزاز والتنمية لسماته وقيماته القومية ومميزاته الوطنية فى الإطار الإسلامى العام .. فهو الذى شن الحملة تلو الحملة على «المتفرجين» -

(٢١) المصدر السابق - ص ٢٣٧ - ٢٢٣ .

(٢٢) المصدر السابق - ص ٢٢٤ - ٢٣٦ . ٢٣٧ .

المتغربين» ، الذى خدعوا فوقوا بشراك الاستعمار الفكرى ، فأعانوا الغزاة على أن يذروا فى تربتنا الفكرية «عوامل غريبة مهلكة . تبدو فى أول مظهرها . خفيفة الوطأة . سهلة المأخذ . لا ضرر من التسامح بها . وهى أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم . والتدرج بقتل التعليم القومى . وتشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس فى لسانهم العربى أو الفارسى أو الأوردى والهندى .. الخ . آداباً تؤثر ولا فى تاريخهم محداً يذكر ، وأن المحد كل المحد لذلك الشرق الخامل أن ينفر من سماع لغته ، وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها ، وأن ما تعلمه من الرطانة الأعجمية هى منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية ؟ ! ... » .

أدان الأفغانى هذا «السقوط» الذى ابتلى به «المتفرجة» المتغربون .. ودعا إلى حفاظ أُم الشرق على خصائصها القومية . عربية . وفارسية . وأوردية وهندية .. الخ . وأعلن أنه «لا جامعة لقوم لا لسان هم . ولا لسان لقوم لا آداب هم . ولا عز لقوم لا تاريخ هم . ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحبى آثار رجال تاريخها ، فتعمل عملهم ، وتنسج على منوالهم . وهذا كله يتوقف على تعليم وطنى . تكون بدايته «الوطن» . ووسطه «الوطن» . وغايته «الوطن» ! ... فيجب أن يكون الوطن فى مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية : اثنان فائتان يعملان : أربعة . فلا تستطيع المذاهب أو الطوائف أن تدعيها خاصة . ولا أن تحاول نقضها ؟ ! ... » (٢٣)

فى تصور الأفغانى . تأخت وتآزرت وتوالت الدوائر والروابط : «الوطنية» و«القومية» و«الإسلامية» . دونما تعارض أو تضاد ! ...

● وكما أبصر الأفغانى «للأمة العربية» دورا متميزا فى المحيط الإسلامى .. كذلك أبصر «لمصر» دورا متميزا وطييعا وقائدا فى مشروع النهضة الذى ناضل فى سبيله .

لقد كانت مصر- قبل احتلال الانجليز لها- هى «النموذج» الذى سعى الأفغانى إلى تنمية نهضته ، ليكون مركز الجذب والاحتذاء لشعوب الشرق جمعاء .. إنها هى التى عنها الإمام محمد عبده ، عندما تحدث عن أن «مقصد» [الأفغانى] - السياسى كان هو : إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتبنيها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العريزة والدولة بالدول القوية ..» (٢٤)

وفى مصر كان الانجاز الحقيقى والأعظم لدعوة الأفغانى وحركته .. فتربنتها كانت الأكثر قبولاً لما بذر من بذور .. وتلك هى دلالة عبارة رشيد رضا ، التى تقول : «سمعت الاستاذ الإمام يقول : «إن السيد (جمال الدين) لم يعمل عملاً حقيقياً إلا فى مصر ! ..» (٢٥)

وتقوم الأفغانى لدور مصر القائد فى محيطها العربى والإسلامى يؤكد هذا الذى نقول ... فهو القائل عن دورها هذا : «إن المتأمل فى سير مصر ، يحكم حكماً ربما لا يكون بعيداً عن الواقع ، أن عاصمتها لا بد أن تصير ، فى وقت قريب أو بعيد ، كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية ، بل ربما كان ذلك أمراً مقوراً فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها . وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر ؟ ! ..» (٢٦)

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٢٥) [تاريخ الاستاذ الإمام] ج ١ ص ٧٩ .

(٢٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٦٧ .

بل إن [جمعية العروة الوثقى السرية] ومجلتها - التي حملت ذات الاسم - والتي يقول الدكتور لويس عوض : إن مهمتها كانت «نسف الشعور القومي ، وتدعيم الشعور الديني .. لحساب الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد .. بل والاستعمار وأنصار الحكم المطلق ١٢٧» (٢٧) .. إن هذه الجمعية ما قامت ، ولا صدرت مجلتها إلا لتعمل على تحرير مصر من قبضة الاستعمار الإنجليزي ، ولتعود مصر إلى مكانها الرائد والقائد في إطار «الجامعة الإسلامية» .. وعن تلك الحقيقة الهامة يقول الأفغانى : في الحديث عن سبب تكوين تنظيم [العروة الوثقى] : «إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتلالها على نفوس المسلمين عموما ، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها ، نظرا لموقعها من البلاد الإسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين ، فإن كان هذا الباب آمينا ، كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية .. إن الرزايا التي حلت بأهم مواقع الشرق (مصر) جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء .. فتألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار .. وطفقوا بتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع ، لا ينون في السعى ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته ١٢٨» (٢٨)

فإذا كان الأفغانى قد خلاص ، في حياته ، تجربة «التنظيم» مرتين :

(٢٧) أصل «دراسة» الدكتور لويس - ص ١٨٦ .

(٢٨) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

أولاهما في [الحزب الوطني الحر] والثانية في [العروة الوثقى] ، فلقد كان الغرض والمهدف منها معا هو استخلاص مصر من أعدائها ، وتثبيتها لتكون « النموذج » لمشروعه الحضارى الذى يجذب محيطها العربى والإسلامى إلى هذا الطريق ! ..

وفى [العروة الوثقى] - المجلة - يهيب الأفغانى بالدولة العثمانية أن تنهض ، وتضغط بكل ما بيدها من «أوراق إسلامية» ومصادر قوة إسلامية - بما فى ذلك الثورة الكامنة لدى مسلمى الهند وما يتأخمها - فى محاولة استخلاص مصر من الإنجليز .. ويحذر العثمانيين من إضاعة الفرصة كى لا تثبت إنجلترا أقدام استعمارها على ضفاف النيل ! .. (٢٩)

فأين هى إذن دعوى الدكتور لويس التى تقول : «إن سياسة الأفغانى لمصر والسودان كانت تقوم على إعادة مصر والسودان إلى حظيرة الدولة العثمانية ، والقضاء على كل حركة استقلالية فيها .. ! ..» (٣٠)

لقد رأينا أن حقيقة سياسة الرجل هى تحريك عالم الإسلام ، بما فيه الدولة العثمانية ، لتحرير مصر من الاستعمار .. وكذلك كانت سياسته تجاه السودان .. فهو الذى - بنص ما ينقله الدكتور لويس نفسه عن «بلنت» - قد اشترط فى مفاوضاته مع الإنجليز حول السودان ، اشترط : «أن أية تسوية لا بد أن تعيد مصر للمصريين ! » و«إخلاء السودان» من الجيش الذى كان يقوده غوردون الإنجليزي ! .. بل و«إعادة عراقى من المنق» إلى مصر من جديد ؟ ! .. (٣١)

(٢٩) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣٠) أميل «دراسة» الدكتور لويس . ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٣١) أميل «دراسة» الدكتور لويس . ص ١٩٤ . و[التضامن] العدد ٢١ ص ٦٢ .

ثم إن «إخلاء السودان» ، الذى اشترطه الأفغانى ، لم يكن هو ذلك «الإخلاء» الذى نفذه الانجليز بعد ذلك ليعيدوا فتحه فاستعماره .. وإنما كان الأفغانى يستلزم قتال الجند المصريين للثورة المهدية تحت قيادة غوردون ، وببصرهم بأن عدوهم الحقيقى هو الانجليز ، فكتب - متعجبا - فى [العروة الوثقى] - يقول : «لعمرك الله إنا لنى عجب من الذين يحفظون قلاع السودان ، ومن المصريين الذين يزحفون لمقاتلة السودانين ؟ ! هل يعلمون أى أمة يخدمون ؟ ! ..» (٣٢) .. لقد كان الأفغانى واضحا وصريحا فى نضاله من أجل تحرير مصر والسودان .. وهو القائل للانجليز ، فى مفاوضاتهم حول السودان ، كلماته الحاسمة : «مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها ..» (٣٣) ولقد كانت «العلاقة القانونية» التى تربط هذه البلاد بالدولة العثمانية «ورقة قانونية» ، بيد الحركة الوطنية ، للضغط على الاستعمار الانجليزى من أجل استخلاص هذه البلاد من براثن احتلاله . ولم تكن قيدا على استقلال هذه البلاد ! ..

إننا نسأل الدكتور لويس : أى «استقلال» ذلك الذى وقف الأفغانى ضده ؟ ! .. و«استقلالاً» عن من . كان ذلك «الاستقلال» ؟ ! ..

إن «مأساة» الدولة العثمانية - كما هو معروف وشهير - فى ذلك التاريخ . لم تكن نابعة من «قوتها المستبدة» التى تحرم ولاياتها حقيقة الاستقلال .. وإنما كانت مأساتها فى «ضعفها» الذى أعجزها عن حفظ استقلال هذه الولايات ، والذى أخذت تفتاله أوروبا الاستعمارية .. فمعركة الاستقلال الحقيقية كانت ضد الغرب ، والاستقلال كان استقلالاً عن استعمارها . وهو ما كان المعركة الكبرى والأولى والدائمة لجمال الدين ! ..

(٣٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ٢ ص ١٧١ .

(٣٣) المصدر السابق . ص ٥٠٥ . (طبعة القاهرة) .

لقد كان نضال مصر في سبعينات القرن الماضي . زمن الخديوى اسماعيل - وهو الذى أسهم فيه الأفغانى إسهاما رائدا وبارزا - موجها في الأساس ضد الزحف الاستعمارى الغربى .. وهذا النضال هو الذى عبر عنه شعار «مصر للمصريين» ! .. فلم تكن القضية يومئذ متخذة شكل «السيطرة العثمانية» بحال من الأحوال .. وكذلك كان الحال في الثورة العربية . التى قامت لاستخلاص مصر من النفوذ الاستعمارى الغربى . إلى حد الحرب المسلحة ضد جيش الاحتلال الانجليزى .. ولم يكن تناقض الحركة الوطنية - في مصر أو السودان - مع العثمانيين إلا بمقدار عجز العثمانيين عن الوقوف في وجه الغرب الاستعمارى ، وبحاج الغرب في اتخاذ الضعف العثمانى سبيلا يتسلل منه إلى السيطرة والاحتلال ! .. تلك كانت حقيقة المعركة .. وذلك هو جوهر الصراع الوطنى في ذلك التاريخ ! ..

لقد كان الأفغانى مناضلا صلبا من أجل استقلال كل شعوب الشرق عن الاستعمار .. وكانت «الجامعة الإسلامية» . المرتكزة إلى «وحدة الائتلاء الإسلامى» . واحدة من الأسلحة «الطبيعية» - والضرورية - التى رأى الأفغانى لزومها في مواجهة العاصفة الاستعمارية التى هبت من الغرب على بلادنا في ذلك التاريخ ! .. فالتناقض الرئيسى كان بين كل شعوب الشرق وبين الاستعمار الغربى .. وحتى التناقض غير الرئيسى ، وغير العدائى الذى كان قائما بين هذه الشعوب وبين «التخلف والضعف العثمانيين» . فإن الأفغانى لم يهمله ولم يغفل عنه . فلقد كان مضمون «الجامعة الإسلامية» عنده متميزا .. كان دعوة للنهضة وللتقدم . بالتجديد والثورة الثقافية والتقدم الإسلامى . و«صراعا» ضد الرجعية .. وفي ذات الوقت «وحدة» لكل الذين تتناقض مصالحهم وهويتهم الحضرية مع الغرب الاستعمارى .. وفي هذا المضمون ، تأخت وتراملت وتضافرت المشاعر

والقسمات والدوائر « الوطنية » و « القومية » و « الإسلامية » ، دونما تناقض أو تعارض أو تضاد ! ..



لكن .. هل كان الأفغانى « حالما » عندما علق بعضا من آماله على الدولة العثمانية ، وعلى السلطان عبد الحميد ؟ ! ..
وهل حقا ما يقوله الدكتور لويس عنه : إنه كان حالما يخلق في السحاب ؟ ! ..

نحن لا نعتقد بذلك ..

لقد كان الأفغانى مدركا أن هناك ظروفًا موضوعية معاكسة لمشروعه الساعى لتجديد حياة الأمة وإنقاذها من عاصفة الاستعمار الغربى . منها ما هو داخلى ، باقى التخلف العثمانى والرجعية والجمود والضعف الموروث فى مقدمتها .. ومنها ما هو خارجى ، على رأسها تسليح الهجمة الاستعمارية بأسلحة القوة والجبروت التى هبأتها لها النهضة الأوربية الحديثة والثورة الصناعية العملاقة .. لكن الأفغانى حاول :

(أ) تقليل خسائر هذا « السقوط » ، الذى بدا قدرا مقدورا .. !
(ب) وتقصير المدى الذى ترزح فيه الأمة تحت عوامل هذا « السقوط » ! ..

(جـ) وأن يحدد بمشروعه فى النهضة معالم الطريق للقوى الإسلامية التى ستحمل على عاتقها ، فى المستقبل ، الخروج بالشرق من حقبة هذا « السقوط » ! ..

إن الأفغانى عندما تأكد أن سلبات الواقع العثمانى قد شددت السلطان عبد الحميد بعيدا عن الطريق الذى حاول جمال الدين أن يجذبه إليه . لم

يتردد في مهاجمة «جين» هذا السلطان ، الذي كان يسمى الظن
بالتناصحين المخلصين .. فقال الأفغانى عن «جين» عبد الحميد : «يا
للأسف ! .. إن عيب الكبير كبير ! والجين من أكبر عيوب
الملوك ؟ ! ..» (٣٤)

وكما سبق وباع الأفغانى السلطان بالخلافة ، عندما علق على دهاقه
وحنكته بعض الآمال ، فإنه لم يتردد ، عندما تبددت هذه الآمال ، في
مصارحة السلطان برغبته أن «يقيله» من هذه البيعة ؟ ! .. فقال
للسلطان ، مواجهة : «أتيت لأستريح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك ،
لأنى رجعت عنها ، نعم .. بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصلح أن يكون
غير صادق الوعد .. بيد جلالتك الحل والعقد .. وإذا وعدت وجب
عليك الوفاء ؟ ! ..» (٣٥)

كذلك ، كان الرجل واضحا ومحددا - أمام الظروف الموضوعية
المعاكسة لمشروعه «التهضوى» - في أن السعى لا بد وأن يستمر لتقليل
خسائر هذا «السقوط» القادم ، ولتقصير أمده التاريخى ، ولانقاذ ما يمكن
إنقاذه من عموم بلواه ! .. وهو فى ذلك يقول : «إنتى ما قرعت آذان
المسلمين ، والشرقيين عموما ، بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار الطامعين
بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسا ، إلا
لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، وأقصر طيات المسافة فى الذل والمهانة
لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية ، وله من الزمن ما يؤجل معه

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

سقوطه . ويلم شعته . ويمجد بعضهم لبعض يدا . عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم ! ... » (٣٦)

وعندما لاح « السقوط » قدرا مقدورا ، لعوامل التخلف والضعف الداخلية ، ولطغيان الهجمة الاستعمارية .. لم يأس الأفغانى . وإنما - مع اعترافه باستحالة تفادى هذا المصير - ناضل - كما قلنا - لتقصير أمدّه . وتقليل خسائره . ورسم الطريق للخلاص من بلواه .. وعبرت عن هذه القضية كلماته التى يقول فيها : « إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين فى الشرق كان من شاهق عظيم . لا يمكن للحكم الوقوف فى سبيل سقوطه وهو فى وسط الانحدار . أو بقرية من نقطة المركز . ذلك الشاهق العظيم . شاهق حكمة الدين ؟ ! .. وإذا كان انحطاط الأمم مرضا ، وله سير معلوم . فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير ، بل غاية ما يمكنه الإتيان بالملطافات والمسكنات ، حتى ينتهى السير . ويبل العليل ، ويدخل فى دور النقاهاة .. نعم .. لو استقلت قدرة البشر بالتأثير . ما انحط رفيع . ولا ضعف قوى . ولا انهدم مجد . ولا تقوض سلطان ! ... » (٣٧)

إن غلبة « التخلف الموروث » و « الوافد التغريبى » . اللذين حرصتهما حراب الاستعمار .. إن تغلبهما على دعوة الأفغانى وحركته . لم تكن بالغلبة الثامة ولا النهائية .. لقد ظلت دعوته الجذوة التى تومض بالتجديد الرفض « للتخلف الموروث » ، والمشير إلى « البديل » ، البديل الحضارى الخاص بالأمة . والكفيل بإفقاذاها من مسخ « التغريب » والتشويه الذى تحمله للشخصية القومية سيادة حضارة الغزاة ! ..

(٣٦) المصدر السابق . ص ٢٤١ .

(٣٧) المصدر السابق . ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

كذلك ظلت دعوة الأفغانى وحركته المثل والنموذج الذى استلهمته فصائل تيار [الصحوة الإسلامية] ، منذ عصر الأفغانى وحتى الآن .. هذه «الصحوة» التى علق الأفغانى عليها آمال إنقاذ الأمة من آثار «السقوط» الذى رآه قادرا مقدورا إيان سيادة الجمود وعنفوان هجمة الاستعمار .. فلقد تحدث عنها ، وعن دورها المرتقب هذا ، وهو يتطلع إلى المستقبل . فقال : «.. إننا نحتاج إلى عمل جديد . نرى به جيلا جديدا ، بعلم صحيح ، وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الأول على الأجساد والأرواح ، وهو «الدين» ، وجمع ما تشتت من الكلمة من أهل الأديان . وتوطيد العزم على قبول الموت فى سبيل حياة الوطن . يقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأمانة عهدا «ألا يقرعوا بابا لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثنى عزمهم الوعيد ، ولا يعزهم الوعد بالمنتصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب . بل قوم يرون فى المتاعب والمكاره ، بنجاة الوطن من الاستعباد ، غاية المغنم ، وفى عكسه المغم ! ..»

ثم استطرد الأفغانى ، وهو يستشرف آفاق المستقبل ، ويرسم ملامح تيار [الصحوة الإسلامية] ، الشعبى .. المسلح بسلطان الدين ، بعد فهم حقيقته ، وبسلطان العلم .. والسالك إلى غايته طريق الشهداء ! .. يستطرد لينشر بختمية انتصار هذا التيار على «السقوط» الذى ساد عالم الإسلام .. فلقد قال القدماء : «الحاجة أم الاختراع» ، وقال المصطفى ، صلى الله عليه وسلم : «اشتد أزمه تنفرجى» ! . فالأزمة تلد الهمة ، ولا رجاء من المستضعف إلا إذا بنس ؟ ! ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الخالك . وعلى ما أرى ، قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادهمت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا

الضيق إلا الفرج .. سنة الله في خلقه :

ومهما ادلهم الخطب لا بد ينجلي

وأظلمت الدنيا فلا بد من فجر! ...» (٣٨٧)

هكذا تنبأ جمال الدين ..

والآن نسأل : ألم تصدق نبوءته هذه ؟ ! .. وألا تتعلق الآمال الصادقة ، اليوم ، بنبأ [الصحوة الإسلامية] ، الذى يواصل المسيرة على الدرب الذى ارتاده الأفغانى ، لينقذ الأمة ، «بالنهضة الإسلامية» ، من آثار «السقوط» الذى حال بين مشروع الأفغانى وبين الانتصار فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؟ ! .. إن ضراوة الحملة على جمال الدين ، من أعداء [الصحوة الإسلامية] ، تؤكد هذا الذى نقول ؟ ! ..



لقد سار على درب الأفغانى - درب «الجامعة الإسلامية» - كل الذين أبصروا أن نجاة الأمة من «السقوط» فى شرك الاستعمار ، إنما تكمن فى نهضتها المؤسسة على التمدن الإسلامى ، تلك النهضة التى تجلو الوجه الإسلامى والقومى للأمة ، ولا تقطع روابط انتمائها القومى والإسلامى «بالإقليمية» و «العلمانية» و «التغريب» ..

● فأحمد عرابى [١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ - ١٨٤١ - ١٩١١ م] قائد الثورة التى ذهب شعار «مصر للمصريين» علما عليها ..

هو الذى استنكر - فى رسالته إلى جورجى زيدان - أن يكون هدف الثورة العربية إسقاط الدائرة الإسلامية من «محيط الانتماء» .. وقال :

(٣٨) المصدر السابق . ص ٤٥٦ . ٤٥٧

«إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين .. لأنى أرى فى ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه ! ..» (٣٩)

● ومصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] الذى اتهمه أعداء «الجامعة الإسلامية» - زورا وبهتانا - بأنه «لم يرفع شعار استقلال مصر التام ، بل ناضل لإعادة البلاد إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية .. بتبشيره بفكرة الجامعة الإسلامية !» (٤٠) ... وهو الاتهام الذى يوجهه الدكتور لويس عوض إلى الأفغانى ! - .. مصطفى كامل هذا هو الذى جمع فى فكره وحركته بين كونه «شاعر الوطنية المصرية .. وشهيد الاستقلال المصرى» وبين دعوته إلى «الجامعة الإسلامية» ، باعتبارها إطار الانتماء الفكرى والسياسى والحضارى - الاوسع - لمصر ! .. فهو يقول : «إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا .. ولا نمتنعنا هذا من النظر إلى الوجهة الدولية للمسألة المصرية .. فصر للمصريين .. ومحال أن نطلب مالكا أجنبيا عنا .. لكننا نود أن نكون قوة محالفة للدولة العلية (العثمانية) .. فن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون .. ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها .. بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع .. فبيل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعى ، يزكيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسبابا واحدة .. وهذا هو معنى حركة الجامعة الإسلامية ! ..» (٤١)

(٣٩) انظر كتابنا [العروبة فى العصر الحديث] ص ٢٤٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م

[والرسالة منشورة بترجمة جورجى زيدان لعراى فى كتابه [تراجم مشاهير الشرق]

(٤٠) لوتسكى [تاريخ الأقطار العربية الحديث] ص ٢٩٠ . طبعة موسكو سنة ١٩٧١ م

(٤١) عبد الرحمن الرافعى [مصطفى كامل] ص ٣٦٧ . ٢٢٧ . ٢٤٨ . ٢٤٩ . ٤٨٢ .

و [الواء] عدد ٢ مايو سنة ١٩٠٦ م .

● وحسن البناء [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] الذى مثل أحد رموز [الصحوة الإسلامية] التى ارتاد الأفغانى طريقها .. هو الذى يؤكد « العروة الوثقى » بين دوائر « الوطنية » و « القومية » و « الإسلامية » .. بل و « العالمية » .. بالنسبة لمصر وشعبها ، فينبغى التناقض بين هذه الدوائر ، ويبدد شبهات « الاقليميين » و « العلمانيين » و « المتغربين » حول دعوة « الجامعة الإسلامية » وحركتها .. وذلك عندما يقول : « إن مصر هى قطعة من أرض الإسلام ، وزعيمة أمة ، وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه .. والمصرية لها فى دعوتنا مكانها ومترلتها وحققها فى الكفاح والنضال .. إنا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له ، مجاهدون فى سبيل خيره ، وسنظل كذلك ما حيينا ، معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة . وإنها - [أى مصر] - جزء من الوطن العربى العام ، وإنا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام .. والعروبة - [وهى الحلقة والدائرة الثانية والتالية] - لها فى دعوتنا - كذلك - مكانها البارز وحظها الوافر ، فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتخير ، وبحق ما قاله صلى الله عليه وسلم : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ! ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها .. إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط كلها عربية .. تجمعها العقيدة ، ويوحد بينها اللسان ، وتؤلفها الوضعية المتناسقة فى رقعة من الأرض متصلة متشابهة ، لا يحول بين أجزائها حائل ، ولا يفرق بين حدودها فارق .. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ، ولخير العالم كله .. ودعوتنا ذات مراحل ، ونرجوا أن تتحقق تباعا ، نرجو أن تقوم فى مصر دولة مسلمة ، تحتضن الإسلام ، وتجمع كلمة العرب ، وتعمل لخيرهم ، وتحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان .. فواجب أن يعمل الإنسان لوطنه ، وأن يقدمه فى العمل على

سواء .. وواجب أن نعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها .. باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض .. وواجب أن نعمل للجامعة الإسلامية . باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام .. ولا تعارض بين هذه الوحدات . بهذا الاعتبار . فكل منها يشد أزر الأخرى . ويحقق الغاية منها ! .. (٤٢)

* * *

تلك هي حقيقة دعوة [الجامعة الإسلامية] وحركتها .. عند رائدها جمال الدين الأفغاني .. وعند الذين ساروا على الدرب . من الوطنيين .. القوميين .. الإسلاميين ! ..

إن « وطنية » الإسلاميين . دعاة « الجامعة الإسلامية » . هي الأنقى والأرقى والأعمق من مثلتها عند « الأقليميين .. العلمانيين .. المتغربين » بما لا يقاس ! .. تاهلك أن ولاء الإسلاميين - بعد دائرة « الوطن » - إنما هو لقوميتهم وحضارتهم .. أما « الأقليميون .. العلمانيون .. المتغربون » . فإن ولاءهم - بعد دائرة « الوطن » - منصرف ومتوجه إلى حضارة الأعداء الغزاة ! ..

(٤٢) حسن البنا [مجموعة الرسائل] ص ٨٨ . ٩٩ . ١١٢ . ١١٥ . ١٧٦ . ١٧٨ .

طبعة دار الشهاب . القاهرة .

خرافة المستبد العادل !

إن أبوة جمال الدين الأفغانى لنزعة « الحرية » ، وريادته فى الدعوة إلى أن تكون الأمة هى مصدر السلطات . وأن يكون الحكم للإرادة الشعبية ، فى السياسة وتنظيم المجتمع وقيادة الدولة : إن أبوة جمال الدين وريادته للدعوات والحركات التى نزعته هذا المنزع فى عصرنا الحديث .. هى مما شهدت عليها وقائع هذا العصر ، وصدق عليها الذين أرحوا له فى فكرنا الحديث ..

ومع ذلك ، يشذ الدكتور لويس ، فيصادم حقائق الواقع التاريخى . ويضرب عرض الحائط - دونما دليل أو قرينة - بل ولا شبهة ؟ ! - بما كتبه المفكرون والعلماء والمؤرخون عن عشق الأفغانى للحرية ، ونضاله فى سبيل تحرير الأمة من الاستبداد ! ..

إن الشيخ مصطفى عبدالرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ - ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] - وهو من هو إمامة وعلم واستنارة وأمانة - يحدثنا عن أن «أساس النهوض للممالك الشرقية» عند جمال الدين الأفغانى قد تبلور فى أسس ثلاثة :

١ - خلاص هذه الأمم من سلطان الأجنبي .

٢ - وخلاصها من الحكم الاستبدادى ..

٣ - ثم تلاؤمها بنوع من الوحدة يقوى التناصر بينها ويكفل لها الغلب ..

ويستطرد الشيخ مصطفى عبدالرازق ليقول : « وحسب جمال الدين من عظمة ومجد ، أنه ، فى تاريخ الشرق الحديث : أول داع إلى الحرية ، وأول شهيد فى سبيل الحرية »^(١) ؟ !

هذا ما قاله الإمام مصطفى عبدالرازق .. وسبقه إليه ، وتبعه فيه العلماء والأعلام الذين كتبوا عن موقف الأفغانى من « الحرية » ومن « الاستبداد » ..

فإذا يقول الدكتور لويس فى هذا المقام ؟ ! ..

إنه يذهب - فى بساطة لا تعرف المسئولية الفكرية - ليفترى على الأفغانى عندما يتهمه بمناصرة الاستبداد ؟ ! .. ويأنه قد عاش يبشر بحكم « المستبد العادل » ؟ ! .. ويأنه لم يكن أبدا داعية للحكم الدستورى والديمقراطى ؟ ! .. « لما كان يدعو إليه الأفغانى - [بنظر الدكتور لويس] - هو حكم « المستبد العادل » . فليس فى كلامه أثناء مرحلته المصرية أى برنامج للحكم الدستورى بالمعنى المتعارف عليه ! .. »

وعندما يواجه الدكتور لويس تراث الأفغانى - مقالات ومحاضرات -

الذى هاجم فيه الاستبداد والمستبدين .. يسعى لتفريغ هذا التراث من مضمونه الواضح الحاسم الناصع ، حتى ولو كلفه ذلك تجريح مبدأ « الشورى » ومضمونها كفلسفة للحكم فى الإسلام .. فيقول الدكتور لويس ، عن تراث الأفغانى فى هذه القضية : « أما حله لمشكلة الاستبداد ، التى كان يكثر من الكلام فيها ، فيقف عند نظام

(١) مقدمة مجموعة [العروة الوثقى] ص ١٤ .

«الشورى» ، أى «حكومة الحكماء» . أهل الرأى والعلم والخبرة ، كفرقة مشورة للحاكم أيا كان هذا الحاكم !...»^(٢)

ونحن لن نقف - فى هذا المقام - لتناقش افتراء الدكتور لويس على «الشورى» الإسلامية . ففى هذا الفن أبحاث ودراسات كنا نتمنى أن يقرأ بعضها منها قبل أن يكتب هذا الكلام .. فقط نريد أن تنبه إلى أن :

● «الشورى» الإسلامية ، كما جاءت فى القرآن والسنة ، هى «فلسفة حكم» .. وليست «نظاما» مفصلا وجاهزا لكل زمان ومكان .. فأى سبيل يسلكه المسلمون لتحقيق الحد الأقصى من سيادة إرادة الأمة ، هو أقرب السبل إلى روح فلسفة «الشورى» التى دعا إليها الإسلام ..

● وهذا التصور الذى رأى به الدكتور لويس «الشورى» الإسلامية مجرد «غرفة مشورة للحاكم» ، أيا كان هذا الحاكم ، هو ذات التصور الذى يقدمه لها غلاة أهل الجمود والرجعية والتخلف من الإسلاميين ! .. فهيننا له هذا الاختيار ، وذلك المعسكر الذى وضع نفسه فيه ؟ ! .. أما ما هى حقيقة موقف الأفغانى من «الحرية» ومن «الاستبداد» ؟ .. فإننا لو وقفنا عند حدود «الوقائع» و«النصوص» التى أوردها الدكتور لويس فى «دراسته» ، لكان ذلك كافيا فى نقض دعوى الدكتور لويس ؟ ! ..

● فهو فى حديثه عن خطبة الأفغانى بقاعة «زيزينيا» - الاسكندرية - يذكر ، ضمن نقاط البرنامج الذى طرحه ودعا إليه :

(أ) «إدانتة استبداد الحكام» ..

(٢) [التصاميم] العدد ٨ ص ٦١ . والعدد ٩ ص ٦٠ .

(ب) «ودعوته لإنشاء تنظيم سياسي . هو الحزب الوطني . ليحمي النظام
النيابي» ..

(ج) «ودعوته لحرية الاجتماع وحرية الصحافة» ..

وهنا نسأل : أليست هذه الأهداف داخلة . بشكل مباشر ، في نصرة
الحرية ومعاداة الاستبداد ؟ ! .. وأين هي الدعوة إلى حكم «المستبد
العادل» عند من يدعو إلى «إنشاء تنظيم حزبي سياسي ، هو الحزب
الوطني ، ليحمي النظام النيابي» ؟ ! .. هل النضال لحماية «النظام النيابي»
هو- في رأي الدكتور لويس- من مقومات حكم «المستبد العادل» ؟ ! ..
فإذا أضفنا إلى أهداف الأفغاني هذه ، دعوته- كما جاء في «دراسة»
الدكتور لويس عن ذات الخطبة- خطبة مسرح «زيرينيا»- دعوته إلى
«إبراز دور القوميات» .. و«إدانة التعصب الديني» و«دعوته لتعليم
المرأة»^(٣) .. الخ .. زاد التساؤل : أليست جميع هذه الأهداف لبنات في
صرح الحرية . ومعاول في صرح الاستبداد ؟ ! ..

● وغير محاضرة «زيرينيا» .. فإن الدكتور لويس يقتبس لنا من مقال
الأفغاني [البيان في الانكليز والأفغان]- الذي نشرته جريدة [مصر] في
خريف سنة ١٨٧٨م- فقرات منها كلمات الأفغاني التي تقول : « ..
فالشرق الآن قد قسمه الأجنبي بسبب تخلفه . ولهذا التخلف سببان :

الأول : التعصب ..

والثاني : الاستبداد ..

أما التعصب فهو : إساءة استعمال الدين ، والخروج عن سنة الأنبياء

(٣) [التضامن] العدد ٩ ص ٥٩ .

مؤسسى الأديان .. أما الاستبداد فهو تقييد الأمة بإرادة رجل واحد . وقد انتهت هذه المحنة منذ أن حقق المصريون الحكم البرلماني الذي لا مناص من تأييده إذا أردنا الاستمرار .. »

لكن الدكتور لويس ، بعد أن أورد هذه الكلمات ، التي يدب فيها الأفغاني الاستبداد ، ويؤيد «الحكم البرلماني» ويدعو إلى تأييده لضمان الاستمرار على طريق الحرية .. بعد أن يورد هذه الكلمات ، يسعى ليحرم الأفغاني من هذا الشرف ! .. فيقول : إن الأفغاني كان مضطرا إلى هذا القول ، حتى لا يظهر « في صورة الخائن » ، فيفقد كل قواعد بين المصريين » إن هو لم يؤيد وزارة « شريف باشا » الدستورية التي تشكلت في ٧ إبريل سنة ١٨٧٩ م ؟ !^(٤) .. ولم يسأل الدكتور لويس نفسه هذا السؤال البسيط : كيف « يضطر » الأفغاني إلى كتابة كلام في خريف سنة ١٨٧٨ م نفاقا لحكومة تألفت في ٧ إبريل سنة ١٩٧٩ م ؟ ! ! .. هل هو « نفاق متنبئ » يا عزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

● ومقالة أخرى من مقالات الأفغاني في « الحرية » و « الاستبداد » ، يورد لنا الدكتور لويس بعضا من تخصصها .. فنجد في مقاله عن [الحكومة الاستبدادية] - الذي نشرته جريدة [مصر] في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٩ م - أي قبل تأليف وزارة شريف ؟ ! - نجد قول الأفغاني : « إن من يأسون بالحكومة الدستورية تستيقظ فيهم الفطرة الإنسانية السليمة التي تحفزهم للخروج من حياتهم البهيمية الوضيعة لبلوغ أقصى درجات الكمال والتخلص من نير الحكومة الاستبدادية التي تثقل

(٤) [التضامن] العدد ٩ ص ٥٩ .

كواهلهم...»^(٥) .. فالحديث هنا ، صراحة ، عن التخلص من « نير الحكومة الاستبدادية » .

وعن « الحكومة الدستورية » .. وليس عن « حكومة الحكماء » .
« غرفة مشورة الحاكم أيا كان هذا الحاكم » .. فمن أين جاء الدكتور لويس بهذه الأحكام ؟ ! وما حيثيات قوله إن الأفغانى لم يكن له « أى برنامج للحكم الدستورى » فى سنوات إقامته بمصر ؟ ! ! ..

• أما النص الثالث الذى أورد الدكتور لويس فقرات منه ، فهو مقال الأفغانى المعنون : [العلة الحقيقية لسعادة الإنسان] - وهو الذى نشرته جريده [مصر] فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٨ م - وهو الآخر مكتوب ومنشور قبل تأليف وزارة شريف باشا سنة ١٨٧٩ م - وفى هذا المقال يقول جمال الدين : « إنه لا طاعة للحكام إلا إذا قاموا بحماية شعوبهم وحكموا بالقوانين العادلة ، أما الحكام الجشعون أو الظالمون فلا تجب لهم طاعة .. ولا نجاة للناس من شقائهم إلا بالاحتكام إلى العقل فى كل شىء ، وبتحرير أعناقهم من استعباد السلاطين الأنانيين والخروج عن طاعتهم .. » ؟ ! ..
هذا ما كتبه الأفغانى ، منذ أكثر من قرن من الزمان .. والدكتور لويس يعترف بما فى هذه الأفكار من « حض على الثورة ودعوة إليها .. » لكنه ، لا ينسى أن يقول عنها : « إنها لا تأتى بمجديد .. فالأفغانى لا يقدم للناس الحلول الديمقراطية المألوفة ، بل يجد الحل فى نظرية « المستبد العادل » ! ! »^(٦)

أى ، والله ، هذا هو تقوم الدكتور لويس لآراء الأفغانى المعادية

(٥) [التضمين] العدد ١٤ ص ٧٨ .

(٦) [التضمين] العدد ٩ ص ٦٠ .

للاستبداد ، والداعية إلى الثورة عليه ! ... وبنص كلمات الدكتور
لويس ؟ ! ..



ونحن إذا تجاوزنا ما اقتبسه الدكتور لويس من كتابات الأفغانى عن
« الحرية » وعن « الاستبداد » - وهو كاف ليضع الأفغانى فى مكانته « كأول
داع للحرية ، وأول شهيد للحرية ، فى تاريخ الشرق الحديث » - كما قال
الشيخ مصطفى عبد الرازق - .. إذا تجاوزنا ذلك إلى أعمال الأفغانى
الفكرية ، فسنجد بها الكثير من الشواهد على صدق ما كتبه العلماء
المنصفون عن هذا الجانب من فكره ونضاله .. وعلى سبيل المثال :

● فإن الأفغانى لا يدع مجالاً للشك - عند المنصف الأمين - فى اتجاذه
إلى مبدأ : « أن الأمة هى مصدر السلطات » فى سياسة المجتمع ، بما يعنيه
ذلك من ضرورة « استمداد السلطة الزمنية قوتها من الأمة » ، والتزامها
بتحقيق مصالح الأمة وحقوقها ، وخاصة « فى الأمن .. والعدل » ..
وذلك بالمبدأ القائل - وفق ألفاظ الأفغانى - : « إن الإرادة الحرة للشعب
الحر هى القانون » ! .. وفى هذه المعانى المحددة والواضحة يقول جمال
الدين : « إن السلطة الزمنية ، بمليكتها أو سلطانها ، إنما استمدت قوتها من
الأمة لأجل قمع أهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة
للمجموع بالسهر على الأمن ، وتوزيع العدالة المطلقة ، إلى آخر ما فى
الوازع والسلطان من المنافع العامة .

أما إذا أودعت هذه السلطة رجل غر جاهل عات ، اكتنفه قوم من
فاسدى الأخلاق ، مجهولى الأعراق ، يبلغون بالسلط كيف يشاءون ، ثم
يحتجون على الشعب بقولهم : « مشيئة الملك قانون المملكة ! ! » .. هذا
القول ، على تلك الحالة ، مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه ، وأن تقاومه

بكل ما لديها من قوة ، لأن الحق في هذا : إن إرادة الشعب ، غير المكره وغير المسلوب حريته. ، قولا وعملا ، هي قانون ذلك الشعب المتبع . والقانون الذى يجب على كل حاكم أن يكون خادما له . أمينا على تنفيذه (٧) .

● وانحياز الأفغانى إلى مبدأ : « الأمة هي مصدر السلطات » .. «إرادة الشعب الحر هي القانون» .. لم يخل من التصورات المحددة التى تضع هذا المبدأ فى التطبيق .. فلقد انحاز الرجل إلى صف «الحكم النيابى» ، ودعا إلى أن يكون «النواب» ممثلين حقيقيين للشعب الذى يتحدثون باسمه ، وأدان «الأشكال النيابية» التى يصنعها المستعمرون والمستبدون .. وفى ذلك كتب يقول : «إن القوة النيابية لأى أمة كانت ، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى ، إلا إذا كانت من نفس الأمة . وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها ! ...» (٨) .

● ولقد سعى الأفغانى - أثناء مقامه بمصر - وعندما تولى الحكم الخديوى توفيق سنة ١٨٧٩ م - سعى إلى هذا الخديوى ليشل تردده إزاء الحكم الدستورى والنيابى - وكانت «حجة» الخديوى أن الشعب لم ينضج إلى الحد الذى يحسن فيه اختيار النواب الأكفاء ! .. فتحدث الأفغانى إليه قائلا : «ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصرى ، كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادها ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به إلى سموكم . وإن قبلتم نصيح هذا

(٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٣٢٣ .

(٨) المصدر السابق . ص ٤٧٣ .

المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى .
فنامرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم
وبإرادتكم . فيكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .. »^(٩)

فالشورى هنا - برأى الأفغانى - هى الحكم النيابى ، التابع من
الشعب ، والذي يتولى فيه ممثلو الأمة سلطات التشريع والتقنين والتنفيذ ..
وليست « حكومة الحكماء » و« غرفة المشورة للحاكم ، أيا كان هذا
الحاكم » .. كما ادعى الدكتور لويس ؟ ! ..

● بل إن الأفغانى ليذهب في إيمانه « بالحكم الدستورى - النيابى » ،
وانحياز به ، إلى الحد الذى يرى فيه « حياة مصر والشرق » .. وفي فقدته
« الموت » ؟ ! .. فيقول : « لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق . بدوله
واماراته ، إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا . يحكمه بأهله .
على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان ، لأن بالقوة المطلقة : الاستبداد .
ولا عدل إلا مع القوة المقيدة . وحكم مصر بأهلها إنما أعنى به : الاشتراك
الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح . وإذا صح أن من الأشياء ما ليس
يوهب ، فأهم هذه الأشياء : (الحرية) و(الاستقلال) . لأن الحرية
الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر . والاستقلال
كذلك . بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذا بقوة
واقتماد . بجبل - [أى يخلط ويطبع] - التراب منها بدماء أبناء الأمة
الأمناء . أوى النفوس الأبية والهمم العالية . أما تغيير شكل الحكم المطلق
بالشكل النيابى الشورى فهو أيسر مطلبا وأقرب متالا ؟ ! .. »^(١٠)

(٩) المصدر السابق . ص ٤٧٣ .

(١٠) المصدر السابق . ص ٤٧٧ . ٤٧٨ .

فالمطلوب هو تجاوز «الشكل» الخادع ، إلى «المضمون» الحقيقي ،
الذى يحقق «الاشتراك الأهلـى» - [أى اشتراك الشعب فى حكم نفسه] -
«بالحكم الدستورى الصحيح» ! .. وتلك غاية لا بد من أن يدفع الشعب
لها «الثمن الغالى» ، حتى من دماء أبنائه الأمتاء ! ..

● وكما أن الحصول على (الحرية) والحكم النيابى الدستورى ، قد
يتطلب القوة والثورة وإراقة الدماء الزكية .. فإن الحفاظ عليه وصيـاته ،
قد يتطلب هذا الثمن «الغالى» والطبيعى «أيضاً» ! .. إذ «لا يسلم» على
الغالب ، الشكل الدستورى الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد
بالسلطان ، ويعظم الأمر عليه كلما صادمه مجلس الأمة بإرادته وغلبه على
هواه . ولذلك قلت - [والقائل هو جمال الدين !] - : «إذا أتاح الله
رجلاً قوياً عادلاً لمصر وللشرق بحكمه بأهله» .. ذلك الرجل ، إما أن يكون
موجوداً ، أو تأتى به الأمة فتتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها
الأساسى - [أى الدستور] - وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه له : يبقى
التاج على رأسه ما بقى محافظاً أميناً على صون الدستور ، وأنه إذا حث
بقسمه ، وخان دستور الأمة ، إما أن يبقى رأسه بلا تاج ، أو تاجه بلا
رأس !!؟؟ ..

هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هى خشيت من أمرائها وملوكها عدم
الاخلاص لقانونها الأساسى ، أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستورى
قلبا وقالبا ! .. «^(١١)» ..

تلك هى أفكار الأفغانى ، التى صاغها فى هذه النماذج التى اختبرناها
من فكره السياسى والدستورى .. والتى ناضل كى يضعها فى التطبيق أيضاً

(١١) المصدر السابق ، ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

حل أو ارتحل ، ومنذ أن انخرط في موكب نضال الشرق في سبيل (الحرية)
(والتجديد) و (الاستقلال) إلى أن عادت نفسه الزكية إلى بارئها ..

قأين هي ، إذن ، « الأفكار » أو « الممارسات » .. بل أين « الشبهات »
التي تبيح لقلم يستشعر حامله الأمانة أن يكتب إلى قرائه فيقول : إن
الأفغانى كان داعية لحكم « المستبد العادل » ؟ !

أين مبررات هذا الادعاء الظالم والشاذ والغريب ؟ ! ..

وأين الأمانة في تناول إمام أضحي - بفكره ونضاله - جزءاً من ضمير
الأمة ، على هذا النحو الظالم والشاذ والغريب ؟ ! ..



وبعد ...

فلقد أشرت في بعض صفحات هذه الدراسة إلى أنى قد ترددت ،
لبعض الوقت ، في أن أتناول « بالنقد » و « التنفيذ » ما كتبه الدكتور لويس
عوض عن جبال الدين الأفغانى .. لما تميز به هذا الذى كتبه من مستوى في
الغاية والشذوذ لم يسبق له - فيما قرأت - مثيل .. اللهم إلا تلك الكتابات
التي خطها جهلاء المبشرين وغلاتهم عن الإسلام ونبيه ، صلى الله عليه
وسلم ، قيل أن تشيع المدنية والحضارة في مجتمعات هؤلاء المبشرين ؟ ! ..

لكننى قد عدلت عن التردد ، واخترت أن أكتب هذه الصفحات ،
نقدًا وتنفيذًا ، لما كتبه الدكتور لويس ، لا سعيًا وراء إقناعه بخطأ هذا
الذى افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ! .. وإنما لأقيم حواراً مع القارئ
العربي والمسلم حول القضايا التي عرض لها فيما كتب عن جبال الدين ..
ذلك أنى أعلم أن القراء ، جبال الدكتور لويس ، فريقان :

أولهما : أولئك الذين لا يحسّون الظن به - أو يسيئون به الظنون -

وهؤلاء لا يقيمون وزنا لما يكتب .. وإن استفرهم هذا المستوى الذى بلغه
فما كتب عن الأفغانى ! ..

وثانيهما : أولئك الذين كانوا يحسنون الظن بالدكتور لويس - ولقد
كنت ممن يحسنون الظن بما يكتب الرجل فى نطاق تخصصه عن الآداب
والفنون الغربية - .. ولقد « صدم » هذا الذى كتبه عن الأفغانى ثقة هذا
الفريق فيه ، وزلزل حسن ظنهم به زلزالا شديدا ، كما بلبلهم بليلة
كبرى ! .. وإلى هذا الفريق - بالدرجة الأولى - قصدت عندما كتبت
هذه الصفحات ! ..

ولست أشك فى أن « طلاب الحقيقة » ، من قراء الدكتور لويس ،
الذين كانوا يحسنون به الظن ، سيرددون معنا - وهم آسفون - : [عليه
العوض ، فى الدكتور لويس عوض] ؟؟ ! ! ..

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى وللقراء .. ولقد هممت أن أستغفر الله
للدكتور لويس على ما افتراه على جبال الدين الأفغانى .. ولكنى تذكرت
قول ربى ، سبحانه وتعالى : [الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى
الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم
ولهم عذاب أليم - استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة
فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله - والله لا يهدي القوم
الضالين] (١٢) ! .. صدق الله العظيم .

المراجع

- أحمد بن بلا : [المنتقى] مجلة فضلية - العدد الأول . باريس سنة ١٩٨٣ م .
- أحمد عطية الله : [القاموس الإسلامى] . طبعة القاهرة .
- الأفغانى (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- : [البابية] فى [دائرة المعارف] تحرير : بطرس البستاني . طبعة بيروت .
- الحيرى (عبد الرحمن) : [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
- : [مظهر التفديس بزوال دولة الفرنسيين] طبعة القاهرة .
- جرجى زيدان : [تراجم مشاهير الشرق] طبعة القاهرة .
- جولد سيهر : [جمال الدين الأفغانى] فى [دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية ، الثانية . دار الشعب القاهرة .
- حاجى خليفة : [كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون] طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م .

- حسن الأمين : [دائرة المعارف الإسلامية الشيعية] طبعة بيروت .
- حسن البنا : [مجموعة الرسائل] طبعة دار الشهاب . القاهرة .
- الرافعي (عبد الرحمن) : [مصطفى كامل] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ .
- رشيد رضا : [تاريخ الأستاذ الإمام] طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م .
- سركيس (يوسف إليان) : [معجم المطبوعات العربية والعربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- سليم نقاش : [مصر للمصريين] طبعة الاسكندرية سنة ١٨٨٤ م .
- صاير طعيمة : [الماسونية ذلك العالم المجهول] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- الطهطاوي (رفاعة رافع) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .
- الطوسي (أبو جعفر) : [تلخيص الشافعي] طبعة النجف سنة ١٣٨٣ - سنة ١٣٨٤ هـ .
- قريب حتى : [تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين] طبعة بيروت سنة ١٩٥٨ م .
- الكواكبي (عبد الرحمن) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
- لوتسكي : [تاريخ الأقطار العربية الحديثة] طبعة موسكو سنة ١٩٧١ م .
- لوثروب ستودارد : [حاضر العالم الاسلامي] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .
- لويس عوض (دكتور) : [الايراني العام في مصر] مجلة [التضامن] لندن - الأعداد ١ - ٢٢ سنة ١٩٨٣ م [وأصل هذه الدراسة قبل نشرها]
- : [تاريخ الفكر المصري الحديث] ج ١ ، ٢ . طبعة

- كتاب الهلال - القاهرة سنة ١٩٦٩ م
- : [مقدمة في فقه اللغة العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .
- محسن الأمين : [جمال الدين الأفغاني] طبعة بدون تاريخ ولا مكان الطبع .
- محمد عبده : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- محمد عمارة (دكتور) : [العروة في العصر الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- : [العرب والتحدى] طبعة الكويت . سنة ١٩٨١ م .
- : [المادية والثالية في فلسفة ابن رشد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .
- محمد الفاضل بن عاشور : [التفسير ورجاله] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- محمد قواد عبد الباقي : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .
- محمد مختار باشا المصري : [كتاب التوفيقات الالهامية] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .
- مصطفى عبد الرازق : [جمال الدين الأفغاني] مقدمة مجموعة [العروة الوثقى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .
- ميرزا لطف الله : [جمال الدين الأسد آبادي - المعروف بالأفغاني] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م .
- ويشيلك (أ. ي) : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م .

دوريات

[الأهرام]

[السياسة الدولية]

[اللواء]

[ملف المستقبل العربية البديلة]

الفهرس

الصفحة

٥	تمهيد : قصة المخطط .. وأبعاده .. ومراميه ..
٢٢	الدوافع والمنطلقات ..
٣٨	طريق الجواميس .. لا طريق العلماء ؟ ! ..
٦٣	تشكيك .. واقتراء ..
٩٨	هل كان الأفغانى ملحدًا .. زنديقًا ؟ ! ..
	هل كان الأفغانى « إيرانيًا » ؟ .. و « شيعيًا » ؟ ..
١٢٧	بل و « بابيًا » ؟ ! ..
١٦١	الجامعة الإسلامية ..
٢٠١	خرافة المستبد العادل ..
٢١٤	المراجع ..

رقم الايداع ٢٠٩٤ / ١٩٨٤ الترخيم الدولي ٦ - ١٤ - ١٤٨ - ٩٧٧



مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٩٥٦٢٩٩ - برقية : شروق - تلکس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥٩٠٩ - برقية : دارشروق - تلکس : SHOROK 20175 LE

